إبراهيم عبد المجيد



السلسلة الروائية



ابراهيم عبد المجيد

البلدة الأخرى

رواية

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

THE OTHER VILLAGE

BY

IBRAHIM ABDUL MAGID

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Magid, Ibrahim Abdul
The Other village
I. Title
892.736 [F]

ISBN 1855131757 Paperback

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١

الإهداء

إلى فاطمة ...

١

انفتح باب الطائرة فرأيت الصمت.

شيء نادر أن تشعر في ظهرك بهواء المكيف بينما صدرك ووجهك يقابلان الشمس وأنت بعد لم تفارق باب الطائرة، لكن الذي خلفي دفعني برفق فخطوت أول خطوة.

ما كدت أفارق السلم الصغير وتلامس قدماي الأرض، حتى أحسست أني والأرض والفضاء شيء واحد، ساخن وفارغ. وكان علي أن أمشي المسافة القصيرة حتى صالة المطار.

المطار صغير ليس فيه غير طائرة واحدة صغيرة بعيدة لونها أصفر قاتم، على جانبها رأيت صورة العلم الأمريكي، وتحت الصورة قرأت بالانكليزية (القوات الجوية للولايات المتحدة).

* * * * *

على باب الصالة رأيت بعض الجنود سمر الوجوه، زعق أحدهم: «الرجال في صف والنساء في صف»، وشاهدت خلف زجاج جانب الصالة سيراً عريضاً يتحرك دائرياً فوق الأرض، فأدركت أن فوقه ستصل حقائبي.

- تقدم يا ولد.

زعق فيّ أحد الجنود. أدركت أن الذين أمامي دخلوا إلى الصالة، وأني نمت واقفاً في الطابور.

- هل نسيتني؟
- اطلاقاً، كنت أنتظرك.

أجبت بعد أن اضطربت وكدت أعتذر، قال:

- إذن لا تغادر المطار دوني.

وبدأت الحقائب تظهر فوق السير، فوجدت نفسي اتركه واقترب منها.

ما الذي يجعلني أنفُرُ من هذا الشاب؟

* * * * *

حملت حقيبتي الحمراء الصغيرة، ووضعتها أمام أحد الكشّافين الذين بدوا صغاراً لا يتجاوز أكبرهم العشرين من العمر. فتحت الحقيبة بسرعة، وبسرعة أيضاً انتهى الكشّاف من فحصها. ما كدت أغلقها حتى أمرني بفتحها من جديد.

- ما هذا؟ كتب؟
- «طبيبك الخاص»، مجلة مصرية..
- هذه ممنوعة.

تعلقت عيناي بعينيه. لم أجد ما أقوله.

- يا أخي ما للمصريين يحبون القراءة؟!

تساءل وأنا صامت. هل أقول إن «فاروق» الذي أرسل لي عقد

العمل، أوصاني بإحضار هذا العدد الخاص عن الحمل والولادة؟ هل أقول أني لا أعرف قوانين البلد؟

- امضِ..

قال بلا مبالاة، وأغلق الحقيبة بسرعة تاركاً المجلة داخلها. انصرفت غير مصدق، ورأيت فاروق ينظر إليّ من خلف زجاج الصالة مبتسماً.

* * * * *

- ألم أقل إنك تنساني؟

أحسست بالحرج الشديد. ها هو «عابد» يفاجئني للمرة الثانية. كنت جلست بالسيارة جوار فاروق، وكان يحدثني من النافذة المفتوحة يكاد يُدْخِل وجهه الطويل ذا العينين الضيقتين والحاجبين الكثيفين الملتحمين من الوسط.

تخلّصتُ من ارتباكي، وقدّمته إلى فاروق الذي قال وهو يدير السيارة:

- أهلاً. لقد تقابلنا من قبل.

وتساءل عابد:

- هل هذا قريبك حقاً؟ إنه خجول جداً..
- هذه أول مرة يترك مصر. سيحضر الى العمل غداً.

كان فاروق يتحدث دون أن يكلف نفسه مجرد النظر ناحية عابد الذي أدخل رأسه بالفعل من الزجاج المفتوح، فكدت أتنفس أنفاسه، وصرت لا أعرف إلى من أنظر. لكن عابد انصرف فسألت فاروق الذي تحرك بالسيارة:

- لماذا لم تدعه إلى الركوب معنا؟
- معه سيارة.
- إنه قادم معي من القاهرة.
- لا تشغل بالك بأحد.

وبدا لي أني لن أفهم شيئاً فآثرت الصمت، وأحسست بالجو حاراً وخانقاً.

* * * * *

انطلقت السيارة الداتسون اليابانية على الطريق الضيق الطويل الذي تحيطه الرمال المترامية على الجانبين. فاروق يقود السيارة بسرعة مجنونة. الطريق خال حقاً. لكني لم أركب من قبل سيارة تكاد تطير. انكمشت. فتح فاروق الراديو، فسمعت صوت محمد عبده «لا تردين الرسايل»، ولما ظهرت بعض أكشاك خشبية على جانب الطريق قال فاروق:

- هذه شركتك.

رأيت طفلين يمرحان أمام الأكشاك. فرّت سيارة من جانبي، فذعرت. ابتسم فاروق وقال:

- الجميع هنا يقودون سياراتهم بجنون ويمرون من الجانب المخطىء.

لكني رحت أنظر الى كلب أبيض بعيد بين الكثبان الرملية المتناثرة. كلب ضخم بدا لي مثل حمار شارد. لا بد أن فاروق لمحه أيضاً لأنه قال:

- هنا يقتلون الكلاب. يعتبرونها نجسة. هذا الكلب يعرف ذلك ولا يستطيع الاقتراب من العمران.

وضحك. وأنا تراجعت بذهني إلى الطائرة وكيف جاورَت المصادفة بيني وبين عابد فكان لا بد أن نتكلم. عرفت أنه يعمل في الشركة نفسها التي أسافر للعمل بها، وانه كان يمضي اجازته السنوية بالقاهرة، وعرض عليّ أن أمضي ليلتي الأولى معه في سكنه، فأخبرته أن لي قريباً بالبلدة ينتظرني. فحدثني عن غلاء أسعار السكن، وكيف ان للشركة سكناً خاصاً، لكن يحتله الآسيويون ونادراً ما يخلو فيه سرير، ثم سألني عن عملي السابق وكيف حصلت على العقد، وخططي للمستقبل. وما إذا كنت خاطباً أو متزوجاً، وغير ذلك كثير مما سبب لي بعض الضيق، لكني فكرت أنه ربما يود معاونتي فعلاً. وتساءل فاروق:

- لاحظت أنك تأخرت قليلاً في صالة الاستقبال؟
- «طبيبك الخاص». قالوا إنها ممنوعة.

ضحك وقال:

- لم تعد بذات فائدة.

ابتسمت. قلت:

- أصبحت أباً إذن.

زاد من سرعة السيارة وقال:

- أصبحت أعزب. طلقت.

* * * * *

ظهرت البلدة الصغيرة واختفت بسرعة، ذلك أن فاروق جنح

بسيارته إلى طريق يتجه الى اليمين ويدور حولها من بعيد. في آخر الطريق رأيت مجموعة من البيوت المنخفضة، بينما البلدة حين لاحت لي، ظهرت بعض مبانيها عالية شيئاً ما.

فوق أزقة غير مستوية من الأرض كانت العربة تتأرجح، رأيت سيارات كثيرة تقف أمام المنازل ذات الأبواب الحديدية الضيقة. قال فاروق:

- كل شارع هنا معرض للسيارات.

قلت:

- لم يمض عام واحد على زواجكما!

قال:

- لا تشغل بالك. ارادت ان تشتري ارضاً في قريتها.واردت ان اشتري في قريتي.

ولم أفهم. لم يبد من المرات القليلة التي التقيت فيها بفاروق انه عصبي أو أهوج. هو في الحقيقة ابن عم لأمي ظهر فجأة في حياتنا منذ خمس سنوات. أي عام تخرجي من الجامعة. في ذلك الوقت قال إنه تم تعيينه مهندساً في مصلحة الطرق بالاسكندرية ففكر في زيارتنا، وسألته أمي عن أسماء كثيرة لأقارب لها بقريتها سمعت أنا أسماءهم لأول مرة، فأخبرها فاروق بموتهم جميعاً. انقطع عن زيارتنا بعد ذلك عاماً، ثم ظهر يعاتبني على عدم زيارتي له، وعدم اصطحاب أمي لزيارة عمها الذي شاخ وهرم ولا يزال يذكرها، بل ويذكرني انا أيضاً منذ كان يأتي إلى الإسكندرية في الخمسينات، يشتري الكسب والأعلاف من شركة الزيوت والصابون، ويبيت ليلة

في بيتنا. كانت أمي تشارك فاروق الحديث، وتصدق على كل كلامه، وأتردد انا في القول بأني لا اذكر شيئاً من ذلك، بل واشعر أنه من الصعب أن يظهر لك قريب هكذا فجأة وأنت في سن الشباب، ثم تنمو بينكما علاقة قوية، وافكر ايضاً أني لا أعرف قريتنا هذه التي انحدرت منها أمي. لم اولد فيها ولم ازرها يوماً. لكن فاروق عاد واختفى مرة ثانية، ولا أدري كيف عرفت أمي انه سافر إلى السعودية، ولا أعرف الدافع الذي جعله يرسل أكثر من خطاب يعرض عليّ فيه مساعدته في الحصول على عقد للعمل. لم يحدث اني شكوت أمامه من شيء، ولا لمحت لأي رغبة في ذلك.

لكن كان لا بد أن أسافر. من يرفض الآن فرصة سهلة كهذه؟ انه شيء يحسدني الناس عليه، هكذا قالت أمي. إن عملي في التدريس لن يتحرك بي خطوة للأمام، وانتظاري للإعارة وفقاً لجدول وزارة التربية والتعليم، يعني الانتظار حتى يجف النفط. هكذا قال فاروق في رسائله.

- كان يمكن أن تؤجلا هذا الشراء.

قلت فجأة، فقال حاسماً:

- ولماذا لا تطيع الزوجة زوجها؟

سكتُّ. وسكتَ هو لحظات ثم قال:

- اعطيتها ثلاثة آلاف جنيه. كنت تكلفت مثلها أيضاً في الزواج. سوف اعوض ذلك وأتزوج بأحسن منها. هذا هو البيت. يسكن معي طبيب ومدرس.

وتوقف بالسيارة أمام بيت صغير من دور واحد مبني من الطوب الاسمنتي.

* * * * *

كان الدش البارد شيئاً رائعاً بحق. وددت لو تركوني أنفرد بنفسي، لكنهم أصروا أن أجلس معهم أشاهد المباراة الحامية في «الطاولة».

لم أرتح للبيت بشكل عام. حجرتان في كل ناحية، بينهما ردهة واسعة غير مسقوفة، وفي الطرف البعيد دورة المياه والمطبخ. قال فاروق إنه بيت على الطراز العربي، لكني وجدته مجرد مكعبات من الأسمنت. حجرات ضيقة تطل نوافذها على الردهة، لا على الشارع. والنوافذ أيضاً ضيقة كأنها كوى سجن.

تحت المياه الباردة كنت أسمع صوت حركة «الزهرين» وفرقعات «القواشيط» وتصفيقاً وضحكات. وفكرت أن أخرج بسرعة متجهاً إلى غرفتي التي جهزها فاروق بدولاب صغير من البلاستيك، وسرير معدني لشخص، ومروحة. لكنهم لمحوني وأنا اقترب من الحجرة فهتفوا معاً: «لا نوم إلا بعد منتصف الليل، هذا قانون الطبيعة».

توجهت نحوهم. لاحظت أن عرقاً تفصّد على ساقيّ وصدري خلال المسافة القصيرة من الحمام إلى منتصف الردهة حيث يجلسون. ها نحن ندخل في المساء ولا يتغير الجو. هل هذا شهر سبتمبر حقاً؟ في الاسكندرية يلف سبتمبر الناس والبيوت بموجة من النسيم الحاني. هنا هواء راكد ثقيل تستطيع أن تمسك قطعاً منه في يدك

ـ هل معك ريالات؟

بادرني الطبيب الذي عرفت أن اسمه «وجيه». أثارني السؤال، وجاءت الاجابة من «سعيد» المدرس.

ـ نحن نلعب قمار.

كنت جلست على مقعد جهزوه لي بينهم. وسمعنا طرقات على الباب الحديدي فنهض فاروق بسرعة.

رأيت وجه عابد يطل علينا فقمت اليه. كان فاروق قد فتح الباب نصف فتحة ووقف بطريقة لا تترك طريقاً لعابد للدخول.

ـ خلا أحد الأسرة بسكن الشركة فإذا أحببت الانتقال إليه أستطيع تخصيصه لك.

قال عابد. وددت أن أزحزح فاروق من مكانه، وأدعو عابد للدخول، لكن فاروق يمسك بالباب ويكاد يسد الجزء المفتوح بجسده، وسبقني وقال:

ـ سنرى في الغد.

لقد تعبت جداً حتى عرفت بيتكم. من حسن الحظ أني عرفت بخلو السرير بمجرد وصولي الى الشركة. لا بد أنك رأيت الشركة في طريقك. لقد أخبرني «نبيل» عامل البوفيه، أن أحد الباكستانيين توفي أثناء إجازتي، ووجدتها أنا فرصة أن أخبرك. إنها فرصة نادرة لا تجعلها تفلت من يدك.

بدا وهو يتكلم، شديد الإخلاص، وصرت في غاية الارتباك من

موقف فاروق الذي لا يترك الباب، ولا يتزحزح من مكانه، والذي سبقني مرة أخرى وقال:

- شكراً.

انصرف عابد. بمجرد أن استدار أغلق فاروق الباب وعاد، وظللت واقفاً للحظات ثم تبعته.

- سأقرض اسماعيل خمسين ريالاً.

قال فاروق قبل أن اجلس ولم أعلّق. خاطبني وجيه:

- لا تخف. ما تخسره ستأخذه. هذا قانون.

لم أعلّق. قال سعيد:

- نلعب الدور بعشرة ريالات، وندوّن الخسارة والمكسب في هذه النوتة.

وبقيت صامتاً، فقال وجيه:

- آخر الشهر يعيد الكسبان للخسران ما خسره ونبدا من جديد.

وسكتنا جميعاً للحظات، فعاد وجيه يقول:

- لا بد أنك تتساءل عن جدوى ذلك إذا كان كل شخص يضمن استرداد أمواله. الحقيقة نحن لا نعرف..

٢

- أول يوم مسموح لك بالتأخير.

قال فاروق وهو يشرب معي شاي الصباح. قلت:

- افكر أن اظل معك حتى اوصلك إلى المطار.

كنت متعباً من كابوس داهمني بالليل. رأيت نفسي أتراجع في بطء وفزع، ويتقدم نحوي أربعة رجال سود، لهم عيون جاحظة، كل عين في حجم بيضة تدور أمامي، وفي أيديهم سياط طويلة رفعوها عالياً، وأنا لا اعرف أين أذهب، فهم يحاصرونني من كل ناحية ويسوقونني، وأنا اتراجع بظهري، حتى دخلت إلى زقاق مظلم تحده من جانبي وخلفي جدران عالية من حجر بازلتي أسود ضخم، جدران اشبه بجدران القلاع القديمة، وراحوا على مهل يضربونني، وعلى مهل عيونهم تدور، وعلى مهل أصرخ، ولم يأتِ أحد لإيقاظي من الحجرات الأخرى. لا بد أن صوتي لم يصلهم. ولعله لم يخرج، وقمت لاهثاً أنظر حولي، فأدرك أنني في حجرة صغيرة ضيقة في بلد بعيد. لم يعاودني النوم الا بعد وقت طويل فكرت فيه.. في الزمن الذي مضى من عمري لم أرَ فيه حلماً ولم يهاجمني كابوس. قرأت مرة أنه بعد سن العشرين تندر احلام اليقظة، وبعد الثلاثين تكاد تنعدم احلام المنام. بعد العشرين يشرع الانسان في تحقيق

احلامه. وبعد الثلاثين يكون قد حقق الكثير. انا في الثلاثين ولم أحقق شيئاً ولا أحلم. زملائي المدرسون والمدرسات في مصر كانوا كثيراً ما يتحدثون عن احلامهم وحيتهم في تفسيرها. معظمهم مثلي لم يحقق شيئاً ذا قيمة، ولكنهم يحلمون ويتحدثون عن احلامهم. كنت دائماً اقول لنفسي: لماذا لا احلم حقاً مثلهم؟ وأتساءل حتى وصلت الى انني شخص راضٍ بما انا فيه. راضٍ شديد الرضا لا أرى للحياة بعداً غير رعاية امي وإخوتي بعد موت أبي. كثيراً ما فكرت اني ربما صرت شخصاً غير راغب في الحياة. ما الذي أوصلني الى ذلك؟ القراءة القديمة التي انقطعت عنها؟ أم هو غبار في الفضاء يفسد صَبَوات الروح قبل أن تنشأ؟ ربما كرهي الدفين لحالة الرضا الزائد التي اعيشها، هو الذي جعلني أوافق على السفر. لو لم افز بأي شيء، فلا بد أني سأهز الركود عن روحي ولو مرة. لا يمكن أن أعود كما جئت. إن لم افز بشيء، سيصيبني ولو جرح صغير. إن لم أنجح، سيكون لدي أسباب للفشل، وها هي روحي أخذت في الاهتزاز. تداهمها الكوابيس، مع أني لم أرتكب خطيئة، ولم أتناول طعاماً ثقيلاً في العشاء.. وقال فاروق:

- طائرتي ستقلع في الواحدة. الساعة الآن الثامنة. اذهب يحسب لك العمل من اليوم.

فاجأني امس خلال السهر بسفره اليوم إلى القاهرة. قال إنه أخّر السفر حتى يستقبلني، وشعرت بامتنان حقيقي له، وسألته هل هذا موعد اجازته السنوية، فابتسم وقال إنه انما يسافر ليتزوج، ولم أتحدث معه بقية الوقت.

* * * * *

- لقد تأخرت.

قال عابد بمجرد دخولي الى مكتبه ولم ارد. جلست على مقعد واسع من الجلد ورحت أتطلع الى الغرفة الصغيرة واحس بهواء المكيف البارد. الجو بعد لا يحتاج الى المكيف فالساعة لم تدخل في العاشرة. وأزعجني صوت الجهاز. جدران الغرفة رمادية. جهاز التكييف رمادي. الموكيت المفروش على الارض رمادي. المكتب الذي يجلس عابد خلفه رمادي. الغرفة كلها كابية، وصوت الجرس البيانو يدق مرات متتابعة ملسوعة، فيقفز عابد من خلف المكتب، ويقف لحظة يغمض فيها عينيه، ثم يطفيء سيجارته في المنفضة، ويهدوء يتقدم يفتح باباً لم أنتبه إلى وجوده يُفضي إلى حجرة داخلية، يدخلها وينغلق الباب خلفه، فأسمع صوتاً قوياً..

- من عندك؟
- الزميل المصري الجديد.
- أدخلـــه.

في اللحـظة نفسهـا تقريباً، رأيت عابد أمامي يقول هامساً: «المدير»، ويشير لي أن انتبه.

واجهتني غرفة المدير باتساعها، وبرائحة الياسمين المشمشع فيها، وأحسست بالارضية عميقة تحت قدمي. كانت مفروشة بالموكيت الاخضر القاتم الفني. لون المقاعد الستة الواسعة المنخفضة نفسه، ذات المساند العريضة المكسوة كلها بالمخمل الوثير. جدران الغرفة مكسوة بالورق الأبيض المفضض، والمكتب الخشبي واسع بيضاوي أبيض لامع، فوقه أربعة تليفونات. الاحمر مستطيل، والأسود مستدير، والاصفر اسطواني يرتكز على

قاعدة سوداء مربعة، والأبيض في حجم علبة السجائر، والمدير خلف المكتب لا يظهر منه غير وجهه، الذي حين رفعه الينا رأيته قمحي اللون، حاد العينين، صغير الانف، رفيع الشفتين، وغترته فوق رأسه بيضاء لامعة والعقال الأسود حولها زاه. لكن المدير عاد ينظر الى ورقة فوق المكتب، وتابعت النظر الى دولاب زجاجي زواياه من الخشب الابنوس، وبداخله بعض ملفات صغيرة رشيقة الالوان والاحجام، وكان المكيف يعمل، ولكن لا ضجة تصدر منه، وكدت من فرط هدوء المكان وانتعاشته أنام واقفاً. نسيت عابد الذي كان لا يزال يقف جواري، وفكرت هل الصوت القوي الذي سمعته منذ قليل هو صوت هذا الرجل الهش حقاً؟

- يا هـلا.

قال المدير الذي تراجع بظهره قليلاً. رددت في ادب وابتسام:

- اهـلاً بك.
- تعرف الكتابة على الآلة؟
- لا.

بان الامتعاض على وجهه.

- تعرف القيـادة؟
- لا.

قلت لا هذه المرة بصوت وددت لو لم يخرج. تأملني قليلاً وخاطب عابد:

- قل لارشد يعلمه القيادة «ويسوّي» له رخصة.

ثم سألني بالانكليزية:

- دو يو ريد آند رايت إن جود انكلش؟
- ييس سير.

اجبت على الفور وخرج صوتي عالياً بشكل لافت. تذكرت الجنود حين يتلقون الاوامر من قادتهم في الافلام الحربية الأمريكية وكدت أضحك. رأيته يبتسم ابتسامة لا يريد لها أن تظهر. ربما يسخر مني، وربما هو مدهوش فعلاً من صوتي العالي.

* * * * *

لم يكن هناك شيء هام...

عرفت أني سأجلس في الغرفة المجاورة لغرفة عابد. مبنى الشركة كله عبارة عن صف من ثلاث غرف خشبية ودورة مياه، يتعامد معه صف آخر من ثلاث غرف مهجورة، وبوفيه. بين الجميع باحة ترابية واسعة تقف فيها سيارات المدير، وسيارة عابد، وسيارات الزوار، ويحيط الجميع سور عال من القرميد الأبيض، له بوابة واسعة، ولا توجد شجرة واحدة.

ما كدنا ندخل الى الغرفة التي سأعمل بها، حتى انشغل عني عابد بفتح خازنة معدنية مثبتة في الحائط. وقفت متحيراً للحظات. لم استطع أن اغض بصري عن رؤية حزم النقود الورقية الزرقاء الزاهية داخل الخازنة. عابد لم يدخل إليها شيئاً ولم يخرج منها شيئاً. فتحها فقط وأغلقها بعد لحظات.

أشار لي أن أجلس، فجلست خلف مكتب معدني كبير صدىء الزوايا، وجلس هو خلف المكتب القريب من الخازنة. ليس بالغرفة غير هذين المكتبين، ومقعدين جلديين قديمين، ودولاب معدني مفتوح بإهمال به أوراق مُتْربة غير مُرتّبة.

قال عابد إنه سيكون عليّ ترتيب الأعمال الادارية، وقال إن

العمل روتيني، وإن عدد العمال لا يتجاوز الثمانين. ثم تنهد وقال إنه كان يحلم بيوم يشاركه فيه العمل شخص مثلي، فهو سكرتير للمدير ومسؤول مالي، وكان أيضاً يقوم بالأعمال الإدارية للأفراد. الآن سيرتاح من الأفراد ومشاكلهم مع الغياب والحضور والمرض والسفر والإجازات والتعاقد وإنهاء الخدمة. سوف اقوم أنا بذلك، وأترجم أيضاً التقارير الواردة من القسم الفني الذي يعمل به الفنيون الأمريكان. للأميركان مواقع عمل بعيدة، وسكن متميز، لكنهم يتبعون الشركة. هنا لا يوجد غير عمال عاديين يعملون في النظافة والبناء، وإقامة المباني، وصيانة منشآت قواعد الدفاع الجوي بالمنطقة الشمالية، وكلهم من الأجانب أيضاً. آسيويون بالأساس. هنا قطاع الخدمات، وللأميركان قطاع الأعمال الفنية الراقية الذي سنتلقى منه بعض التقارير نترجمها لعم عبد الله. ثم قال إن أفضل طريقة للتخاطب مع المدير هي مناداته «يعم عبد الله». عبد الله اسمه، وكلمة «عم» بدلاً من أستاذ عندنا في مصر. ثم قال فجأة:

- هل تعرف أن عم عبد الله اخفى عني نبأ التعاقد معك؟
- الحقيقة لا أعرف.

ابتسم وقال:

- له تصرفات غريبة عم عبد الله، لكنه دائماً شخص طيب.
- يبدو كذلك فعلاً.

قلت غير معنيّ بمدى صحة قولي. ودخل الغرفة شاب متوسط الطول يرتدي جلباباً سمني اللون، ادركت من وجهه أنه مصري. كان يحمل صينية فضية فوقها علبة من «السفن اب» ويبتسم.

- هذا نبيل عامل بوفيه. يعيش معي في غرفة خلف المكاتب. لقد ابلغني امس بخلو سرير في سكن الآسيويين كما قلت لك.

كنت أنا ابتسم مصافحاً نبيل الذي قال وهو يبتسم بدوره:

- أهلاً بك في بلدك.

أحسست بالارتياح لوجه نبيل. وجه مثير بحق. أنف عريض وشفتان غليظتان وعينان صغيرتان جداً، ولم يضايقني هذا التنافر، أحسست بالطيبة والعفوية خلفه.. وسألني:

- حضرتك الأخ اسماعيل؟
- أجـل.

- حدثني عابد عنك أمس. الحقيقة كنت أنتظرك بفارغ الصبر. اريد أن أسألك. غرفة مثل هذه مهجورة، وبلد مثل هذه مهجورة، وخازنة مثل هذه عامرة ماذا تفعل بها؟ هه. قل لي بالله عليك.

كان يتكلم ويضحك، ولم أجد إجابة غير أن أبتسم.

* * * * *

جلست طويلاً وحيداً في غرفتي صامتاً. فكرت في ما يمكن شراؤه من أثاث، فلم أجد حاجة إلا الى دولاب زجاجي بدلاً من هذا القديم الصدىء، وعدد من الملفات الجديدة. اخبرني عابد اننا يمكن ان نشتري ما أحتاجه اليوم.

فجأة قفزت أمي إلى ذهني. لا بد أنها تفتقدني الآن. كانت أكثر المتحمسين لسفري وأعرف أنها لا تحب أن أفارقها. ليتني كتبت خطاباً أرسلته مع فاروق. لا استطيع ان اترك العمل من أول يوم

لألحق به في المطار. سأكتب إليها في المساء وأرسل الخطاب بالبريد.

اعرف ان كل انسان يحب امه. هكذا في الغالب، وانا مثل سائر الناس. لكني منذ موت ابي، صار حبي لها ولإخوتي مضاعفاً. حُبٌّ يخـالطه نوع من القلق، حب تخـالطه ابوّة غير حقيقية. انا إذن أختلف عن سائر الناس. لكن أمي مثل كل الأمهات لابد انها تعرف ان آلافاً من المصريين يأتون إلى هذه البلاد، ومثل كل الامهات لا تفكر إلا بابنها الغريب الوحيد في هذا العالم. منذ الآن إذن عليّ ان أحرص عَلَى كتابة الرسائل، وأحرص على الكذب فاقول إني دائماً بخير، وأحكي كل كابوس على أنه حلم جميل. هكذا يفعل كل الذين اغتربوا حباً لغيرهم. هذا حقاً زمن الكذب الجميل، وانا واحد من رجـال هذا الزمن. وإذ أحسست باحتجـاب الضـوء القادم من الباحة، نظرت إلى الباب فرأيته. شاب أسمر، مكفهر الوجه، يقف يسد الباب وفوق كتفه قرد. أجل قرد..

الشاب يرتدي جلباباً أبيض سابغاً ونظيفاً للغاية، والغترة فوق رأسه بيضاء ونظيفة، والعقال أسود ونظيف، ولكن القرد هو الذي يشد عينَي. لم أقف والشاب يدخل دون استئذان، ويجلس خلف المكتب الآخر القريب من الخازنة، وتابعت النظر إلى القرد.. صغير بُني اللون، قليـل الشعر، ذو عينين ملونتين حولهما شعر طويل، وحول عنقه هالة من الشعر الأزرق المنفوش، وله خصيتان زرقاوان ظاهرتان فوق كتف الشاب، وبين فخذيّ القرد كبليتان لامعتان. قرد جميل بحق يرفع ذيله الرفيع اعلى من رأس صاحبه.

ـ أين عابـد؟

ـ في غرفتـه.

ـ غير موجود.

ـ ربما خرج في مشوار قريب وسيعود.

كنت لا أزال أنظر الى القرد الذي وضع يديه فوق رأس الشاب.

ـ اعـرف.

قال بحسم. وضعت رأسي فوق كفي اليسرى، وارتكزت بمرفقي على المكتب، ولذت بالصمت. لكنه سألني:

ـ أنت المصري الجديد؟

ـ أجـل.

ـ شـو اسمـك؟

ـ اسماعيـل.

وابتسمت علّني اتخلص من ضيق الصدر، لكنـه تنهد وردّد اسمي لنفسه بدهشة، ثم زفر بغيظ غير مفهوم، وظهر نبيل واقفاً بالباب يضحك.

ـ هـا. منصـور!

ودخـل مسرعـاً يصـافحه، لكن منصوراً لم يعطه يده، ولمحته يبتسم ابتسـامـة صغيرة. مد نبيل يده إلى رأس القرد، فتراجع منصور قليلاً. ضحك نبيل وخاطبني:

ـ هذا منصور. ها. ها. وعلى كتفه منصور الصغير. ها ها ها ها..

وراح يضحك بشدة، فنهض منصور مضطرب الوجه، وغادر الغرفة بلا كلمة. كان القرد يلتفت مضطرباً، وادهشني ان منصوراً صَوَّبَ لي نظرة حادة غاضبة..

* * * * *

في العربة التويوتا الهايلوكس نصف النقل، قال عابد:

- ألم تفكر حقاً في السكن مع الآسيويين؟

كنت أفكر في منصور وقرده. يبدأني بالعداوة دون سابق معرفة. كيف يتعامل معه نبيل بهذه البساطة؟ لقد حدثني عنه بعد خروجه، وقال إنه طيب ومسكين ويجب أن لا أخشاه.

- هل أنت مرتاح للسكن بالبلدة؟

- أجـــل.

وصمتنا. وتابعت النظر الى الطريق الأسفلتي الذي بدا لامعاً للغاية على عكس ما كان في الصباح. الشمس الآن في وسط السماء، ولأن الأضواء تنعكس على الطريق متماوجة، أدركت عدم استوائه. وفي اللحـظة التي رأيت فيهـا الكلب الأبيض يجـري بعيداً بين الكثبان، الكلب نفسه الذي له منظر الحمار الشارد، هبّت زوبعة ترابية صفراء جعلت عابد يبطيء السير بالسيارة. حاصرنا الغبار من كل ناحية فأغلقنا النافذتين. أضاء عابد كشافات النور، فرأيت ذرات التراب تطير أمامنا في عمودين من الضوء، وتمور في الفضاء.

- هذا هو «الهَبّ» ريح مترية تهب على البلدة بلا موعد. ربما كل يوم. ربما أكثر من مرة في اليوم الواحد. وكثيراً ما تختفي لأيام طويلة.

وبدا أن العاصفة لن تهدأ، وكدنا نختنق. أدار عابد مسّاحات الزجـاج التي راحت تزيـل التـراب المنهمر كما تزيل ماء المطر، وسمعنا صوت ارتطام ذرات الغبار بجسم السيارة، وبدأت أخاف. قلت:

- لا بد أن نقف.

كان عابد يهديء من السرعة كثيراً، ويأخذ جانب الطريق ليقف، لكن العاصفة راحت تنقشع شيئاً فشيئاً، ويعود الفضاء أبيض، والأسفلت أسود، والسماء فوقنا عادت زرقاء. رأيت البلدة تقترب ممتدة على الجانبين بمبانيها المنخفضة البيضاء، ودخلناها.

* * * * *

- هذا هو الشارع العام. الشارع الرئيسي بالبلدة.

قال عابد، ثم أضاف:

- البلدة صغـيرة، أحياؤهـا قليلة. السليمـانيـة. الفيصلية. العزيزية. أم درمان. البلدة كلها في حجم ميدان التحرير بالقاهرة. لا بد أنـك رأيته. خانق. أليس كذلك؟ وبنوا فيه «كوبري» علوياً للمشاة. تصور!

كنت منجذباً الى الزحام، ومشهد السيارات الزاحفة في نَهْرَيّ الشـارع، والمحـلات المفتوحـة على الجانبين. الشارع العام هو السوق الذي سنشتري منه ما أريده لغرفتي وعملي. وتركت عَيْنَيّ ترتفعـان وتنخفضـان مع الأقمشة المعلقة في علاّقات عالية أمام المحلات، ورحت أنظر الى الأدوات والأجهزة الكهربائية المكدسة والمرايا اللامعة خلفها بارفانات وعطور وساعات وكتب وأقلام وثياب فضفـاضـة زاعقـة ألوانهـا. الأسـود صـارخ، والأحمر صارخ، والأخضر صارخ، والأصفر والأزرق، والزهور كبيرة تتوسط الألوان، والأبيض قليل، والكراتين الفارغة على الأرصفة، والأوراق المهملة في الطريق، وجماعات من الكوريين الشباب تجري وتضحك، ورجال

بجلابيب، ورجال بسراويل، وهنود لهم لحى سوداء وعمائم ضخمة يمشون على مهل، ورجال بلحى حمراء مخضبة بحناء، بيض الوجوه، مسنون يمشون في تعب. عرفت انهم افغان. وشباب ورجال عيونهم تلمع في الفضاء وهم يسرعون في سراويلهم الفضفاضة والقمصان الواسعة فوقها: باكستانيون. ورأيت الأميركان في الجينز والمصريين أيضاً، والنساء لا ارى وجوههن إلا كشعاع يختفي وأنت تغلق نافذة. شمس عالية، وفضاء أبيض واسع، وسيارات زاحفة الى الناحيتين، ورائحة شواء. وأكاد أرى راقصات من ألف ليلة وليلة يوزعن الكؤوس على المارة مترعة بشراب ثقيل، وشهريار يمر في موكب من الغلمان والقيان خلفه أعلام وصنوج، وأصوات نفير السيارات تختلط بأصوات المسجلات. وقال عابد:

- «تبوك تنسيك أهلك وأبوك»، مَثَلٌ يتداوله المصريون هنا.

وحطّ على الدنيا صمت.

- ما هذا؟ اسمع.

وابطأ من سرعة السيارة البطيئة أصلاً. أرهفت السمع. رأيته يفتح عينيه بأقصى اتساع، ويمد رأسه إلى الأمام يكاد يَخرج بها من الزجاج. وسمعنا «المتوسطة».

وكأني أرى الصمت نفسه فقد توقف كل شيء عن الحركة الآن.

- فضيحة جديدة.

قال عابد وأشار لي بإصبعه أن لا أتكلم. لم أتكلم وراح الصوت يقترب. ظهرت من شارع جانبي سيارة شرطة مكشوفة يقف في صندوقها الخلفي شرطي يمسك بميكرفون وتقف جواره امرأة أو فتاة. شيء مغطى بالسواد كله من الرأس حتى القدمين لا يكون الا

كذلك. الشرطي يتحدث في الميكرفون بصوت تضخم الآن ويبدأ متنافر الضربات. لحيته طويلة الشرطي، والغترة فوق رأسه خضراء حائلة بها خطوط سوداء قديمة، وحولها العقال باهت، وملابسه صفراء تلمع ازرارها النحاسية تحت الضوء، ويقول:

«.... واضحة بنت سليمان بن سبيل التلميذة بالمدرسة المتوسطة بالعزيزية، كانت تخرج كل يوم بعد الدراسة، مع اليمني اليامي بن عبد الله اليامي....».

ويزداد الناس على الأرصفة وفي افواه المحلات، ويزداد الضوء فوق الدنيا، وأرى الفتاة مشة ضئيلة، إلا أن العباءة السوداء تلمع وتحدد لنفسها موضعاً في الفضاء الأبيض الواسع، وتشد كل العيون.

«.... كانت تخرج معه كل يوم الى طريق تيماء المهجور».

ولا أعرف كيف استطاع عابد أن يوازي سيارة الشرطة. صار الصوت كأنه كُتَلٌ من الحجارة تسقط فوق رأسي.

«اليامي لم يعتد عليها، لكنها لفعلتها الشنعاء فُصِلَتْ من المدرسة».

- فاجـرة.

هتف عابد وهو يعض على أسنانه. وأنا الذي لم يخطر ببالي شيء كهذا تصلّبت عيناي على الجسد الصغير ضائع القسمات تحت العباءة السوداء الواسعة. أريد، يا ربي، ساعدني، أن أرى وجهها. صار ذلك حاجتي التي تتمدد بالحزن في صدري. الخَبْرة فوق الوجه سوداء ثقيلة. لكن ضوء الشمس باهر يستطيع أن

يكشفه لي لو اراد. يقيني أنها ماتت واقفة، وامني، المؤلم، ان أراها تتحرك. آه لو تتحرك. إنها حتى لا تهتز مع حركة العربة، والشرطي القزم الضخم لا يكف عن الوقوف والانحناء وهو يصرخ في الميكرفون.

«اليامي سُجن ثلاثة أشهر سيغادر بعدها المملكة بلا عودة». وأتطلع الى الشمس في قُبة السماء. بعيدة، لكن الضوء يغمر الدنيا ببراءة اللبن الحليب، ويأخذ عينيَّ مني سواد العباءة والحيرة وجمود الجسد. يا الله. يا أرحم الراحمين. ها هو الجسد الصغير يختلج. اكثر من مرة يختلج. لا ريح في الفضاء ولا نسمة، ولا يحرك العباءة الآن إلا اختلاجة الجسد، وانتفاضة الروح..

ولم أعد أسمع الشرطي، ولا عابد الذي صار يتكلم كالمجنون يسبّ الفتاة واليمني. رحت أتابع العربة التي تبتعد. اتابع العباءة وهي تتحرك. الجسد وهو يختلج. حيّة هي إذن لم تمُتْ. والناس عادت تتحرك في الشارع، والعربات وراقصات ألف ليلة وليلة تقفزن يوزعن الكؤوس، وموكب شهريار راح يتقدم حوله الفتيان والغلمان وخلفه الاعلام والصنوج، وعاد الكوريون يجرون ضاحكين، والهنود يمشون على مهل ممشوقي القوام، والباكستانيون يبتسمون ويعكسون أشعة الشمس من عيونهم. والافغان المسنون فتحوا افواههم للفضاء في ذهول، والمصريون يتلكأون امام الفتارين، والامريكان يشربون «البارد» وايديهم اليسرى في خصورهم وعلى انوفهم العالية نظارات قاتمة، وحاصرتني البضائع وأصوات المسجلات المختلطة الناشزة وعدت أشم رائحة الشواء، ولم أعد أرى في الشارع نساء.. اي نساء.

٣

صرت احب البيت ووقت العودة. تأتي الساعة الثالثة فيتسع الفضاء بي. لم أتعلم القيادة بعد. «أرشد» كل صباح يسألني وهو يوقّع في دفتر الحضور: متى ستأتي الى الورشة مستر اسماعيل؟ وأجيب: في أقرب فرصة، وللآن لم أذهب لا أعرف لماذا.

يحملني عابد في سيارته، وأصل الى البيت في حوالي الثالثة والنصف لأجد سعيد قد أعد الغداء. سعيد أول من يصل منا. أحياناً أساعده، لكنه كثيراً ما يكون انتهى من إعداد كل شيء. نتغدى في العادة وحدنا. وجيه يعود في الخامسة، وكثيراً ما يعود مرة أخرى الى المستشفى. غداؤنا قطع كبيرة من اللحم المسلوق وأرز وأي نوع من الخضر وسلطة، والفاكهة عنب أو كمثرى أو بطيخ. كل شيء يأتي طازجاً من الأردن. يقول سعيد، ووجيه يحتج على كميات اللحوم الكبيرة التي نلتهمها، ويلفت انتباهنا الى ضرر الخضار المسبك في هذا الحر، وضرورة ان نتعلم أكل السوتيه. لكن سعيد يضحك ولا يهتم. لا يغير طريقته في طهو الطعام، ولا وجيه يتوانى عن التهام أكبر كمية منه.

أدركت صحة كلام وجيه من النوم الذي يداهمني بسرعة بعد

الغداء، ومن الوخم الضاغط الذي يكبس على صدري ورأسي، ومن الحركة الغريبة التي صرت أحسها في امعائي والحاحها عليّ لإخراج الرياح، لكنني لم اسع لتغيير طريقة سعيد في الطهو.

صرت أحب البيت، وتهفو نفسي إلى العودة اليه، منذ يقف عقربا الساعة عند الثانية عشرة. لماذا اشتريت يوم نزلت الى السوق ساعة الحائط هذه للمكتب؟ لماذا وافقتُ عابد عَلَى ذلك؟ لقد ثبتُّها امامي، وكأني أعذّب نفسي ارفع بين وقت وآخر عيني إليها. حين ينضم العقربان الى الثانية عشرة، أبدأ في متابعة حركة عقرب الدقائق. دقيقة بدقيقة أراه يقفز او أسمع صوت قفزته. في الثانية عشرة أكون انتهيت تقريباً من معظم الشغل، وتصبح الساعات الثلاث الباقية دهراً، فأفكر في البيت.

هنا لا أستطيع أن أترك العمل، الغرفة، لأكثر من دقائق، ونبيل لا يستطيع أن يمضي وقتاً طويلاً معي، وعابد في غرفته أو خارج المكان كله. عابد في العادة يمضي معظم وقته في أعمال عم عبد الله الخاصة، وهي أعمال غير أعمال الشركة. يقول لي ان اجلس في غرفته حتى يعود، ولا يعود إلا بعد وقت طويل يكون عليّ فيه أن أقوم بأعمال السكرتارية التي لا تزيد على استقبال الرسائل التليفونية.

- آلــو.
- من أنت؟
- اسماعيل.
- عمك موجود؟
- لا. هل من خدمة أؤديها لك؟
- أخبره أن الشيخ صالح «دهم» عليه.

واضع السماعة ويدق التليفون.
- آلــو.
- من أنت؟
- إسماعيل.
- وين عبد الله؟
- خــرج.
- أدري، وين خــرج؟
- ما أدري والله.
- كيف ما تدري. حمار أنت؟

وتغلق السكة في وجهي، ويدق التليفون.
- آلــو.
- يا عابد جهزت الريالات؟
- انا اسماعيــل.
- من هو اسماعيل؟
- موظف جديد.

وتغلق السكة، ويدق التليفون وليس لي أن اشكو. عليّ فقط أن أدون الأسماء حتى إذا جاء عابد أو عم عبد الله اقدمها له.

الآن وقد مضى عليّ أسبوعان لم يعد يزعجني ذلك. تعودته وتعود المتحدثون وجودي واسمي، وخَفَّتْ حدة كلامهم، وبعضهم صار يداعبني، ويسألني عن مصر، وأحوال مصر، وأنا لا اعرفه، ولم يسبق أن التقيت به، لكني لم أعد قادراً على نسيان النظر الى الساعة حين تصل الى الثانية عشرة. حتى لو كنت في غرفة عابد، انظر الى الساعة المماثلة تماماً، التي اشتراها هو أيضاً لغرفته.

بعد الثانية عشرة يبدو الكون هنا واسعاً فارغاً. فالشمس تضيئه حتى كأنها ستشعله، ويصبح ظهور شخص أو سيارة أمراً نادراً إلا اليمني العجوز الذي يرتدي زياً افرنجياً، وافاجأ دائماً به وقد جلس على أرض الباحة بجوار السور، وراح يضع السواك في فمه يحركه بيده. لم يحدث أني رأيته يدخل الباحة مرة. دائماً أراه جالساً بعد الثانية عشرة يحرك السواك في فمه. لا تضايقه الشمس فوقه ولا تراب الارض التي يفترشها. أنظر اليه فينظر اليّ ويبتسم، وأرى نبيل يتقدم نحوه بكوب من الشاي يأخذه في صمت، ويعود نبيل في صمت ايضاً. وإذا دخلت سيارة عابد او عم عبد الله أو أي زائر، وأثارت التراب في الباحة، فلا يتحرك من مكانه. كلما نظرت فقط إليه نظر إليّ مبتسماً تلمع عيناه بذكاء حاد. إنه سائق شاحنة وفي حوالي الخامسة والخمسين. قلت لعابد مرة:

– ليس لهذا اليمني اسم في دفتر الحضور، ولا في دفتر الانصراف، وليس له ملف عمل عندي.

قال:

– هناك اتفاق بينه وبين عم عبد الله أن يتقاضى راتبه دون أن يتم تعيينه بشكل رسمي.

– لكن تعيين اليمنيين لا يرتب عليهم أي أعباء، إنهم يعاملون كأبناء المملكة، ويستطيعون ترك العمل في أي وقت.

– صحيح. هو يعرف ذلك، لكنه يقول من يضمن ثبات الأحوال. عم عبد الله يحبه ويوافق على شروطه.

قلت لنفسي: إذن لن يدخل هذا الرجل مكتبي ابداً.

لا اعرف بحق لماذا فكرت في ذلك، ولا أعرف لماذا أحببت أن يدخل هذا الرجل مكتبي. أشرت له بيدي مرة أن يتقدم الى المكتب، فلم يفعل أكثر من أنه ابتسم، وعاد الى السواك يديره في فمه. وفجأة فكرت كيف لا أراه إلا وهو جالس في موضعه بعد الثانية عشرة. شغلني ذلك، وراقبت الباحة ليومين حتى أراه في قدومه، ودائماً كنت انشغل في أمر ما. كانت لحظة من الانشغال كافية لان أجده جالساً ينظر اليّ مبتسماً وتلمع عيناه بالذكاء المشتعل كأنه يعرف بالضبط ما أريد، ولا يريد أن ينيلني إياه.

صرت احب البيت، ومنذ الثانية عشرة كل يوم لا أكاد أستقر جالساً. ما الذي يقلقني كل هذا القلق؟ أستطيع لو أغمضت عيني ان افسح الطريق لمرور الوقت. والساعات الثلاث الباقية لا تمر بطيئة إلا لأني انتظر مرورها.

البيت حقاً جميل. بعد نوم القيلولة نضع «الطاولة» بيننا في الباحة ونضع النوتة وعلبة النقود. الآن نادراً ما أخسر. لا يمر يوم إلا كسبت ثلاثين ريالاً، وكلما ضبطت نفسي جاداً في اللعبة أكثر مما ينبغي، قلت يا اسماعيل لا مكسب هنا ولا خسارة، كل شيء سيعود الى أصحابه. لكني سرعان ما أنسى وأبدو جاداً في اللعب، ويضحك سعيد ووجيه على هذا التحول الذي اصابني.

ردهة البيت جميلة حقاً بالمساء. نحن نتقدم في سبتمبر، والنسمة بالليل تبدو وقد لانت قليلاً، والتليفزيون دائماً امامنا حتى لو كنا نلعب الطاولة. أنا الذي أنقل التليفزيون من حجرة سعيد إلى الردهة. انا الذي أحرص على ذلك.

صرت أحب التليفزيون وأحفظ كل برامجه. لم يحدث في مصر أني ضبطت نفسي متلبساً بالاهتمام بالفرجة على التليفزيون. هنا تنمو بيننا علاقة غير مفهومة. هنا أكاد أتخيل أن برامجه حقيقية تدور حولنا. وصرت مغرماً بالفرجة على حلقات رجل بستة ملايين دولار، التي تُبثّ أكثر من مرة في الاسبوع. لم أهتم قط بها في مصر هنا شاهدت ثلاث حلقات ضخمة، وأمس أعلنوا قراراً بعدم عرضها مرة اخرى بسبب حوادث في الرياض والدمام. ألقى بعض الأطفال أنفسهم من الأدوار العليا تقليداً لستيف اوستين. أعلنوا عرض حلقات جديدة بعنوان «الرجل الأخضر» ستبدأ الاسبوع القادم، وأنتظر بشغف شديد هذه الحلقات. كل شيء تافه في التليفزيون هنا صار يأسرني. بثوا فيلم فارس بني حمدان مرتين، وفي المرتين رأيته كأني أراه لأول مرة. وفي المرتين أحببت فريد شوقي وكرهت غريمه محمود مرسي، رغم ادراكي لسذاجة الفيلم كله.

في الردهة، وتحت السماء العالية، وفي نسمة لينة، تبدو أصوات المغنين شيئاً ساحراً. وفي الردهة، وتحت السماء العالية، يأخذني صوت المؤذن لصلاة المغرب ثم صلاة العشاء، إلى آفاق عالية من الشجن. صوت المؤذن كأنه نداء طائر ذبيح من فوق جبل شاهق. بعد المؤذن أسمع صوت المذيع الشجي وهو يرجّع أحد الأحاديث النبوية. يا إلهي ما سر هذا التوقيع العميق، وتلك النبرة شديدة الأسى، التي تحملني إلى أودية الوداعة والسكينة؟ فضاء يفتح بوابات الراحة في روحي، ويكاد الدمع يترقرق في عينيّ أنا العاصي الذي لا يعرف ذنباً ارتكبه.

صرت أحب البيت، وأرفض كل دعوة للخروج منه، حتى لو كانت

دعوة عشاء عربي مما يتكرر كثيراً. يذهب سعيد أحياناً أو وجيه لحضور مثل هذه الدعوات عند بعض أصدقائهما أو أصدقاء لأصدقائهما من أهل البلدة، ويأتون يتحدثون عن «الكبسة»، الأكلة الشعبية العربية، حيث تُقدم الخراف الصغيرة المشوية فوق صوانٍ كبيرة فوقها الأرز المحشو بالصنوبر واللوز والجوز، وكيف يصير الأكل بالأيدي مباشرة. والشاطر هو من يضبط شهيته، لأن الاسهال كثيراً ما يصيب الذي يُقبل على الأكل بهمّة. ويقول سعيد: «ليس مهماً أن تأكل. المهم أن تتفرج». لكني أحب إذا دخلت البيت أن لا أغادره.

ينتهي الارسال التليفزيوني، وأدخل حجرتي أقلّب في الصحف والمجلات التي يشتريها وجيه وسعيد، ويتركانها في المطبخ بعد قراءتها. كل الصحف تتحدث عن السادات وتلعنه، وحملت احدى المجلات عنواناً يقول (ألا من رصاصة تزف الى رأس الخائن؟). وفوق العنوان صورة للسادات في البزّة العسكرية الالمانية وفي فمه الپايب الشهير. لا أقف كثيراً عند السياسة. أتجاوزها وأبحث في الاعلانات عن نساء. صور عارية لنساء. لا أجد ذلك حتى الآن رغم كثرة الاعلانات عن ساعات سويسرا واليابان وعطور فرنسا وأثاث ايطاليا وقصور بريطانيا وشركات طيران سنغافورة.. النساء شيء لم أفكر فيه من قبل. لكن لا بد أني ما جئت إلا من أجل ذلك. لماذا أتيت هنا حقاً؟ لجمع المال؟ لاخوتي؟ للأكذوبة التي وضع أبي حبلها في عنقي؟ أنا لا بد خائض بحر النساء يوماً. ذلك البحر الذي لم أشأ أن ألقي فيه يوماً بحجر، والذي بسبب ذلك الحرص اللعين على الأكذوبة، والاستمرار اللعين لتعذيب النفس الذي لا أعرف من أين أصابني، ضيّعتُ أكثر من قلب، وضيّعتُ قلباً كبيراً. أي رجل

تعيس أنا! لكني صرت أحب البيت ساعة ننقل مراتبنا الى الردهة لننام. يقول وجيه إن ذلك سيصحبه أكبر الضرر فيما بعد، لكنه لا يتركنا، ويقول سعيد ليس اجمل من نوم رجل وامرأة هنا تحت السماء والطير والنجوم، ونضحك. في بنصره الأيمن دبلة الخطوبة، ولم أحاول أن أعرف منه شيئاً، هو لا يتحدث في الامر، لكنه ينشد وهو ينظر الى قبة السماء المرصعة بالنجوم.

«كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب
وليل اقاسيه بطيء الكواكب»

«تقاعس حتى قلت ليس بمنجل
وليس الذي يرعى النجوم بآيب»

ونضحك، ويقول وجيه: لكن صاحبتك اسمها «وداد» وليس «اميمة»، فيغمز لي سعيد بطرف عينه ويقول: «جاهل»، وأعجب من معرفة سعيد بالشعر وهو مدرس التربية الرياضية.

أود أن اقول إني أيضاً أعرف الكثير وإن علا التراب الذاكرة، وإني قضيت صباي ومطلع شبابي مع الاغاني وعيون الاخبار ...إني وإني... ولا اقول. أقول لنفسي: كان الوقت متسعاً فلا تأس. وافكر كيف أن سعيداً أبداً لا يخوض في حديثه عن خطيبته التي عرفت اسمها فقط، كذلك لم أعرف عن وجيه حتى الآن اكثر من انه متزوج. ذلك واضح من الدبلة التي في بنصره الأيسر، لكن سعيداً قال له: «لا يقاسي الحب من يتسع قلبه لامرأتين يا دكتور»، وسكت ...نا مرتبكاً، وفوجئت بوجيه لا يهتز. يضحك ويقول: «الله يعرف أكثر ...نا، لذلك شرع أربع نساء للرجل، وأنا أبحث عن الثالثة الآن». ...نظر الي وقال: «هل يبدو أني متزوج من اثنتين؟». ابتسمت

مرتبكاً، لكنه استمر يضحك ويقول إنه تركهما معاً في المنصورة. لم يشأ أن يصطحب واحدة فتغضب الأخرى، وهو يحب أن «يرفق بالقوارير». ولأمر ما تركنا وجيه للحظات ودخل حجرته، فهمس لي سعيد بأن زوجتيه فائقتا الجمال، لواحدة ولدٌ كالبدر وللثانية بنتٌ كالقمر، وهو طالما تحدث عن امرأة ثالثة فلا بد سيفعلها، لكني لم أجد من الواجب أن أخوض في شؤون أي منهما طالما أنه لا يفتح الباب. عوّدت نفسي ذلك، وآثرت أن أعرف عنهما ما يلقيان به اليّ، ولم أشعر بأي ضيق. انا ما جئت هنا إلا لوقت عابر، فلاكن مرآة لامعة تنزلق عليها الوقائع، ولا افسد احساسي بالراحة في البيت، ولا أحاول أن أغتنم فرصة غياب واحد منهما لأعرف منه شيئاً عن الآخر. امامي وقت طويل معهما لا بد ينكشف لي فيه كثير من الأسرار.

– ما لك اليوم تلعب شارداً؟

قال سعيد ونحن نلعب الطاولة في الردهة. كان وجيه نوبتجياً الليلة بالمستشفى.

– فاروق، لم يصلني منه خطاب.

ضحك وقال:

– هل تنتظر خطاباً من شخص سافر ليتزوج؟ العب.

وقذف بالزهرين بقوة، وسمعنا صوت طرقات خفيفة على الباب.

– ترى من الذي يأتي الآن. ربما وجيه ترك العمل وعاد يلعب الطاولة.

قال سعيد وهو قائم يضحك ليفتح الباب. فتح وسمعته يصيح:

– أهلاً يا دكتور رأفت. تعال. لدينا زبون جديد.

ودخل الردهة شخص ذو قامة طويلة، تقدم يصافحني بحرارة، فبادلته المشاعر نفسها. وقدم له سعيد مقعداً وهو يقول لي:

- الدكتور رأفت، طبيب مسالك بولية عظيم. إنه هو صاحب فكرة اللعب بالفلوس ورد الخسارة لصاحبها آخر الشهر. لا بد أنك ستلعب معنا يا دكتور. مضى وقت طويل لم نرك.

ابتسم رأفت بهدوء، وقال:

- الحقيقة أنا لم آت لأسهر. جئت فقط لأودعكم. أين وجيه؟

تساءل سعيد بدهشة:

- تودعنا؟ خيراً يا دكتور.

- انني عائد إلى مصر عودة نهائية.

- معقـــول!

- لماذا لا يكون معقولاً؟ سأسافر في الصباح. الم يخبرك وجيه؟

- اطلاقا. وجيه اليوم نوبتجي في المستشفى.

هز رأفت كتفه وابتسم وخاطبني:

- القرار الصعب هنا أن تحدد متى تعود. الوقت هنا ممل. يبدو كذلك حقاً، لكنك تكتشف فجأة أنه مرّ بسرعة وأخذ معه خمس سنوات من عمرك. بعضنا هنا أمضى عشر سنوات. كم خمس سنوات وكم عشر سنوات في عمر الواحد منا؟ لا أحد يفكر في ذلك. قوة الشباب وكثرة المال تُنسينا. لقد حاول الكثيرون ثنيي عن العودة لكني قررت. خمس سنوات كافية جداً لأي بلد غير الوطن. هنا لو تأملت الامر ستجد سجناً كبيراً. من حقك أن تزور الناس وتتحرك، لكن الناس هي الناس ولا صباح جديداً ولا مساء جديداً - ولم يلاحظ ان حديثه طال أكثر مما ينبغي - انا لا استطيع البقاء

في دولة يتم الانتقال بين مدنها بالطائرات، اكثر من خمس سنوات. ثم ماذا يريد الواحد منا غير مبلغ معقول يبدأ به حياته في مصر. انا فعلت ذلك. عندي الآن عيادة في طنطا، وسأسافر من هنا الى امريكا أشتري بعض الاجهزة، وأعود أعمل بالعيادة وأعيش كأي مواطن يعتمد على عقله وقوته.. هل تراني مخطئاً؟

ابتسمت. اجبت:

- على العكس. معك كل الحق.

كان سعيد قد تركنا واتجه الى المطبخ ليعد كوبا من الشاي لرافت، وعاد به يقدمه اليه قائلاً:

- شاي بدون سكر يا دكتور.

- اشكرك.

واخذ كوب الشاي، وقال لي:

- السكر عندي مرتفع. لا تنزعج. يحدث ذلك للكثيرين الآن.

وقال سعيد:

- لا أظن ان وجيه سيتأخر. إنه نوبتجي بالمساء فقط. لن يبقى للصباح.

- غريب أنه لم يخبرك. يعرف أني سأسافر غداً ولا يفكر ان يمر بي.

- قد يفعلها في عودته. ربما رتب نفسه على ذلك.. ستوحشنا كثيراً يا دكتور. اسماعيل سيىء الحظ لأنه لم يتعرف عليك من قبل. انت لم تزرنا.

وخاطبني الدكتور رأفت:

انا سعيد بمعرفتك يا أخ اسماعيل. هل تحب أن أحمل لك أي رسالة لمصر؟

- احمل لي السلام يا دكتور.

- تصور يا استاذ اسماعيل، إنني أكثر الناس احتياجاً للبقاء هنا. سعيد يعرف ووجيه . ابني المصاب بشلل الاطفال يلتهم علاجه معظم ما أكسبه . ابني هناك في مصر، لكني قررت أن لا أبتعد عنه اكثر من ذلك.

ارتبكتُ كثيراً. قلت:

- ربما كان وجودك معه أفضل علاج يا دكتور.

- هل تظن ذلك حقاً؟

- بالتأكيـــد.

وصمتنا، ولاحظت أن دمعاً بدأ يترقرق في عينيه، وفي اللحظة التي همَّ فيها بالقيام، سمعنا المفتاح يدور بالباب، وهتف سعيد:

- هذا هو وجيه.

ودخل وجيه بالفعل وهو يقول:

- مساء الخير على المصريين.

صافحنا وقال لرأفت:

- أنا قادم من عندك . لم أجدك بالطبع . لا تلمني . ما حدث الليلة طبيع.

- ماذا حدث؟

تساءل رأفت بهدوء، فقال وجيه بعد أن جلس على مقعد رابع:

- تبوك لن تنام الليلة . ثلاثة من الصعايدة قتلوا صاحب العمل. طعوه قطعا صغيرة منذ شهر، ووضعوه في ماكينة خلطة الخرسانة.

وضاعت الجثة في البناء. اكتُشِفَتْ الجريمة اليوم فقط. تمَّ القبض عليهم واعترفوا، ونُقِل أحدهم إلى المستشفى بين الحياة والموت من أثر التعذيب.

٤

أي يوم جميل هذا!؟!

وقفت أحدث نفسي أمام باب غرفة مكتبي متطلعاً الى السماء الزرقاء العالية، والفضاء السابح في نور الشمس الباهر. الصمت بعد لم تفسده قوة الحر، فالساعة لم تتجاوز الثامنة. جاء العمال وانصرفوا بعد أن وقّعوا في دفتر الحضور، ولم أفعل شيئاً بعد ذلك غير شرب القهوة، والجلوس قليلاً أتذكر دخولهم في السابعة مسرعين.

«صبـــاح الخيـــر»
«غود مورننغ»
«السـلام عليكـم»

جمل ثلاث أسمعها كل صباح، وفي الظهيرة حين يعودون للتوقيع في دفتر الانصراف يقولون فقط «السلام عليكم» يتحدثون بسرعة كما تأكل الأرانب، وأبتسم في وجوههم لأنهم دائماً يبتسمون. لكنهم دائماً على عجل. لا فرصة لقيام علاقة مع أحد. يحدث أن يتردد البعض الى المكتب أثناء النهار لكن لوقت قصير أيضاً، لمقابلة عم عبـد الله أو للتحويل إلى طبيب، أو لطلب إذن بالانصراف ساعة

لقضاء عمل يتعلق بالبنك أو استقدام الزوجة والأبناء. فيليب سوساي بيليًا، الكهربائي السيلاني العجوز هو الذي يقف احياناً يتحدث معي. أخْرَجَ مرة نسخة صغيرة من القرآن من جيب سترته وفتحها واشار الى آية «وخلقنا الانسان في كبد»، وسألني ماذا تعني. راعني انه يحمل نسخة من القرآن. وراعتني النسخة نفسها فهي بالانكليزية والعربية معاً. اجبته:

ـ في تعب ومشقة.

تساءل:

ـ كل الناس تتعب؟

ـ المعنى انه لا راحة في الحياة الدنيا. الراحة الحقيقية في الآخرة.

قال في دهشة:

ـ لكن الناس هنا مرتاحون جداً؟

ـ من تقصد؟

ـ أهل البلدة مستر اسماعيل.

ابتسمت. سألته:

ـ هل أنت مسلم فيليب؟

ـ بوذي لكني سأشهر اسلامي. انا لا أريد العودة إلى سيلان.

أدهشني وهو الذي تجاوز الخمسين انه يفكر على هذا النحو لكني ابتسمت له، وشددت على يده وهو ينصرف. لم يمر يوم بعد ذلك إلا سألني فيليب عن معنى من معاني القرآن، ولما سألته متى سيشهر اسلامه، قال:

ـ بعد أن أفهم القرآن كله مستر اسماعيل. إنني جادّ في الأمر.

غير فيليب كان هناك «منذر» الأردني الذي يدخل ويخرج في عجلة واضحة، يُلقي السلام ويوقع في الدفتر ويمضي غير منتظر أن أرد عليه التحية. أكثر من مرة فكرت أسأله لماذا هذه العجلة، ودائماً انسى. في النهاية قلت لنفسي: لله في خلقه شؤون. ولم يلفت انتباهي من بقية العمال غير «آرون بونكرد» التايلاندي ذو العينين اللوزيتين والشارب المغولي. يربكني في حضوره وانصرافه. يوقِّع بالانكليزية، وينظر الي طويلاً، ويبتسم ابتسامة واسعة، ويمضي على مهل. يفعل ذلك كلما جاء الى المكتب، واحياناً يسألني عن حالي، فأقول: بخير. فلا يقول شيئاً آخر ويمضي. بدا لي مثل شخص يعرفني منذ زمن بعيد، ويريد أن يذكّرني بنفسه.

ـ ورأيت عابد يقف فجاة بباب غرفته. نظر اليّ وقال:

ـ يوم جميل اليس كذلك؟

ابتسمت. قلت:

ـ كنت أقول لنفسي ذلك منذ لحظات.

ـ عم عبد الله لديه اجتماع في الامارة اليوم. انا لن اترك المكتب تستطيع الذهاب الى أرشد لتعلم القيادة. يجب أن تتعلم القيادة حتى لا تحتاج لاحد لتوصيلك للبيت.

في اللحظة نفسها لمحت نبيل يقترب من ناحية البوفيه يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة. نبيل يفعل ذلك مرتين في الصباح. بعدها لا يقدم لنا شيئاً إلا إذا طلبنا. وفجاة صاح:

ـ يا فتاح يا عليم. جُمعة وصل.

كان يحدّث عابد. ونظرت إلى البوابة حيث اشار، فوجدت شاباً مصرياً ضخم البنيان يتقدم في الباحة مبتسماً.

- صباح الخير على المصريين.

قال وهو يقترب منا. أخذه عابد من يده ودخل غرفتي فدخلت معهم. صافحني الشاب بقوة، ووقف نبيل يحمل القهوة وينظر إلى الشاب في دهشة، ثم خاطبني:

- استعد يا عم ستدفع خمسين ريالاً من أول راتب.

كنا تسلمنا رواتبنا أمس. ما كدت أشرع في الكلام حتى قال الضيف:

- ليس لي والله. للميت..

ولا بد أن الارتباك الشديد بان على وجهي وأنا أجلس. ورأيت عابداً يتجه إلى الخازنة يفتحها ويخرج منها خمسين ريالاً، وظل جمعة واقفاً، بينما وضع نبيل القهوة، وقال لعابد:

- سأضع فنجانك في غرفتك.

واستدار يمشي فقال جمعة ضاحكاً:

- ألن تدفع يا نبيل؟

ضحك نبيل وقال:

- الميت القادم.

وخرج، وجمعة يضحك، وعابد يبتسم وهو يقدم له الخمسين ريالاً، وأخرجت أنا من جيبي مثلها قدمتها له، وقال عابد:

- جمعة يعمل في شركة البازعي أكبر مقاول في البلد، أكبر مقاول في المملكة تقريباً، عنده سفن في البحر، وأسطول سيارات يحارب به إسرائيل لو أراد، لا يمر يوم دون أن يموت عنده واحد من العمال، البازعي ومديروه يرفضون دائماً دفع مستحقات الميت، يرفضون

دفع ثمن شحن الجثة، يرفضون حتى ثمن الصندوق الخشبي ادفنوه في المملكة، أرض طاهرة. دائماً يقولون. أصبح معروفاً أن لكل جنسية مندوباً لجمع التبرعات للموتى عند البازعي.

ما كدت أستوعب الأمر حتى دخل نبيل المكتب يقول لجمعة:

- لو أرسلت أحداً غيرك مرة يا عم جمعة قد لا يموت أحد بعد ذلك.

احمرّ وجه جمعة، لكنه لم يكف عن الابتسام حتى بدا لي فجأة شخصاً شديد الحماقة.

* * * * *

شربت قهوتي وحدي. انصرف جمعة، وعاد عابد إلى غرفته، وانشغل نبيل في تنظيف السيارة الكاديلاك الواقفة في الباحة، سيارة بيضاء جميلة تقف مثل أوزة ضخمة تسبح في بحر من النور. لدى عم عبد الله أكثر من سيارة. ويركب في اليوم الواحد أكثر من واحدة، وكل منها مجهزة بتليفون لاسلكي.. لم أستطع أن أطرد وجه جمعة من الغرفة. قال عنه نبيل بعد انصرافه: إنه يعرفه ويتشاءم من مجيئه، وإنه في الأصل يعيش في القاهرة بمقابر الإمام وإن أباه تربي، وضحك وقال: «الدم يحن». لكني لم أضحك كنت مأخوذاً بما يقول.

نهضت أذهب إلى «أرشد». لا يجب أن أفسد بهاء هذا اليوم. قطعت الباحة الباهرة بضوء النهار، وترك نبيل عمله في السيارة الكاديلاك، ولحق بي بعد البوابة:

ـ إلى أيــن؟
ـ إلى «أرشد» أتعلم القيادة.
ـ إذن خذني معــك.

ومشينــا. لا بد أن نبيل يعرف بانشغال عم عبد الله بالإمارة اليوم فهو يخشاه حتى الموت.

ـ أتمنى يا أخي أن أتعلم القيادة مثلك.

قال نبيــل ونحن نتقدم صامتين. لم أرد. تطلعت إلى الجراج القــريب المجاور للكامب الذي يسكنه الآسيويون. هذا مكان لم أحضر اليه من قبل. الأرض بين مكاتب الشركة وبينه ليست ممهدة، لكنها ليست صعبة. أرض من الحجر الجيري عليها طبقة رقيقة من الرمال. واستمر نبيل يتكلم:

ـ المشكلة يا أخي أني لا أجد الوقت بالنهار لأن عم عبد الله يمكن أن يعود في أي وقت ويحتاج الى القهوة.

ـ لماذا لا تتعلم في المساء؟

ـ أرشد يخاف استخدام السيارات بعد العمل. وعابد لا يسمح لي بالتعلم على سيارته.

أربكني بحق. فكرت لماذا إذن يأتي وقد لا يجد فرصة اخرى. قال كأنه يقرأ أفكاري:

ـ أحببت اليــوم ان أراك وأنت تتعلم. سوف أتعلم مما تفعله امامي. «شفهي» يعني.

ابتسمت. كدت اضحك. قال:

ـ أي واللــه.

اندفعت أضحك، وأحسست أن الفضاء يجاوبني في ضحكاتي رغم انه لا جبال حولنا. وقال فجأة:

ـ لماذا لا تصدقني؟ لماذا تسخر مني؟

وكأنما الفضاء الواسع ازداد اتساعاً فجأة. أحسست انه لا يوجد في الدنيا كلها غيرنا. انا ونبيل فقط في هذا العالم. وأحسست، وبالغرابة هذا الاحساس الذي لن أنساه ابداً، برغبة في أن أقتله. لو أن سكيناً كانت في يدي لطعنته، ووقفت أراقب الدم يمشي فوق الأرض لامعاً تحت الضوء..

ـ هل تصدق اني احببتك جداً يا أستاذ إسماعيل؟

قال، فأدهشني. وأدهشني أنــه لا يرفع الكلفة بيننا اليوم. لا يحدثني باسمي مباشرة كما تعود. واستمر يتحدث:

ـ اعتقد أنك طيب يا أستاذ اسماعيل. عابد هذا ثعبان. كوبرا. ينام معي في غرفة واحدة واعرفه. تصور اني احياناً أقوم من النوم فزعاً خوفاً من ان يقتلني. لماذا يحدث ذلك يا أستاذ اسماعيل؟ هل سأجن هنا؟

وتوقفت عن المشي. مزيج طاغ من المشاعر أوقفني. لا أعرف هل اردت ان اهون عليه أم الحنه أم آمره بالعودة. قلت وانا امسك بذراعه:

ـ لا تصدّ نفسي عن الناس يا نبيل.

ويا لنظرة عينيه وهو يكاد يبكي فجأة. قال:

ـ أنا لم اقصد ذلك. أردت أن اذكرك ان لا تتمادى في صداقة

أحد. أنت هنا مثل كل الناس لجمع المال فقط.

تركت ذراعه، ومشيت صامتاً. لاحظت أننا نبتعد عن بعضنا قليلاً ثم نعود ونقترب. لم يطل مشينا فالمسافة قصيرة. وقبل باب الجراج بقليل سألته:

- هل جئت لتعلم القيادة حقاً؟ أستطيع لو احببت أن اقنع ارشد يعلمك في المساء..

قـــال:

- لو حدث اني سرقت الخازنة هل يقتلونني؟

* * * * *

سألت أرشد:

- وحدك تعمل في هذه الورشة؟

اجــاب.

- معي «وفاج الدين». خرج يجرب إحدى السيارات. الورشة صغيرة كما ترى.

كنا قد انتهينا من الدرس الأول، الذي لم يزد عن التعرف على اجهزة تابلوه السيارة، ونقل الحركات والسيارة في حالة وقوف.

لقد تركني نبيل بمجرد بلوغنا باب الجراج. قال إن عم عبد الله ماكر يمكن أن يعود في أي وقت، ولم ينتظر اجابة مني عن سؤاله المفاجيء الذي اربكني.

انشغل أرشد عني قليلاً وراح يملأ كوبين بالشاي من «تورمس» اخـرجه من دولاب خشبي صغير. رحت اتأمل الورشة والجراج.

سيـارات قليلة معـطلة، وكثـير من العـدد القديمة تملأ الأركان، والارض سوداء متسخة. لأرشد وجه شديد الحضور، عليه دائماً مسحة استنكار واستياء. تزداد هذه المسحة حين يأتي الى المكتب ويدخل في نقاش مع عابد حول مشتروات الكامب من الأغذية. ارشد مسؤول ايضاً عن إعاشة الآسيويين.

لأرشد عينان عسليتان، حادتا الذكاء، وبياض بشرته يميزه عن كثير من الباكستانيين، رغم أن له الشارب نفسه المحفوف بعناية واتساق مع الشفة العليا، وله الشعر نفسه الأسود الناعم. لكن ملامـح أرشد كلها تضيع وهو يناقش عابداً فيما هو مطلوب من غذاء. يبـدو أرشـد في البداية لطيفاً، وهو يتكلم بانكليزية يختار كلماتها بعناية، لتكون واضحة وسهلة لعابد الذي لا يعرف الكثير منهـا، ودائماً يطعّم حديثه بكلمات عربية، لكن سرعان ما تختلط ملامـح وجهه، وترتفع فيه حمرة الدهشة والاستنكار. أرشد يبدو جاداً دائماً وعابد يحدثه بغير اهتمام، بالضبط كما يلقي الواحد بورقـة في سلة مهملات. يقول عابد: «ماتش كمون»، ويهز كتفه، فيقـول أرشـــد: «بيس ماتش كمـــون مستـــر عابـــد. كمـــون از نيسيسري». ويطول الجدل دائماً حول كمية التوابل التي يطلبها أرشد. التوابل من أرخص الأشياء بالمملكة. إلا أن عابداً يحلو له أن يتوقف عندها ويتعنت. يقول أرشد نافد الصبر: «مستر عابد بليز ريميمبر هاو ميني تايم اي طولد يو ذات كمون آند شطة آند بيبر آند أول بهارات إز نيسيسري فور أورْ فود». واكاد اضحك من هذا المزيج الغريب من العربية والانكليزية المعجون بلكنة اوردية.

الحقيقة أني دهشت من موقف عابد الذي لا بد أنه يدرك قيمة

التوابل في طعام الآسيويين. قلت مرة لأرشد وهما محتدان في النقاش، إن عابداً يداعبه فقط، ففوجئت بعابد يقول لي جاداً: «انا لا أداعبه. إنهم يستهلكون كمية كبيرة جداً ويكلفون الشركة الكثير. بعدها لم أتدخل في النقاش.

ـ اشرب الشاي مستر اسماعيل.

قال أرشد، فأخذت الكوب في يدي، ورشفت رشفة، وقلت:

ـ أرشد. انت تعرف أن الباكستانيين غير التايلانديين غير السيلانيين. أنا في الصباح أو بعد الظهر، في حديثهم معي، لا أكاد أميز بين كلماتهم. يصبح صوتهم واحداً تقريباً حين يقولون صباح الخير أو غود موورننغ أو السلام عليكم. انت الآن تحدثني بالانكليزية، لكن صوتك لا يختلف عن صوت أحد.. انني اسمعك فأتذكر الجميع. شيء غريب. أليس كذلك؟

ابتسم أرشد، وراح ينظر اليّ بألق شديد في عينيه. ابتهج أرشد فجأة. لا أدري لماذا. أنا قلت ذلك كله دون ترتيب، ولا أعرف بالضبط متى فكرت فيه. قال:

ـ انت ايضاً سيتشابه صوتك معنا مستر اسماعيل.

سكتنا، ورحنا نشرب الشاي، ووقعت عيني على كتاب فوق مقعد قريب، فقام واخذ الكتاب ووضعه في الدولاب الخشبي وعاد يقول:

ـ انا آسف مستر اسماعيل. لقد أحضرت هذا الكتاب معي عفواً. انا لا أجد وقتاً هنا للقراءة.

تأملت وجهه قليلاً، فأغمض عينيه. لماذا يخشاني إلى هذا

الحد؟ رشفت ما بقي من الشاي دفعة واحدة، وقمت أصافحه علَى ان نلتقي في الغد.

* * * * *

يا الهي. ما هذه السيارة التي تدخل الباحة بهذه السرعة، وتثير كل هذا التراب؟ قلت لنفسي، وما كدت ادخل الغرفة عائداً من عند أرشد. وسمعت صوت باب السيارة وهو يُفتح، ثم يُغلق بقوة، ورأيت عابداً يقفز داخلاً مكتبي:

ـ ملف السيلاني بسرعة.

ـ أي سيلانـــي؟

ـ فيليب. هل لدينا غيره؟

كان لدينا اكثر من سيلاني. لم أشأ ان أرد. وقفت أتعجب منه لا يعطيني فرصة احضار الملف، بل يهجم على الدولاب يفتحه، ويختطف ملف فيليب، ويعود يهرول خارجاً. اسقط وهو يبحث عن الملف عدداً آخر من الملفات فوق الأرض، رحت أعيد ترتيبها في غيظ ثم رحت ادور في الغرفة. وددت لو أصرخ. أصرخ في أحد. أي أحد وبأي شيء. ورأيت نبيلاً يدخل حاملاً صينية فوقها فنجان القهوة.

ـ تشرب قهوة؟ لقد ذهبت بها اليه فرفض.

كيف أعدّ القهوة بهذه السرعة وذهب بها ايضاً. لا بد أن عم عبد الله هو الذي دخل الباحة مثيراً لكل هذا التراب. كدت انفجر بالضحك.

ـ رفض القهوة وصرخ في وجهي ان أنصرف. ستطردني انت أيضاً؟

- ضع القهوة على مكتبي واجلس. هل عرفت شيئاً..؟
- كارثة. فيليب سرق راديو من السوق وقُبض عليه..
- كيف عرفــت؟
- سمعت عم عبد الله يقول ذلك لعابد وأنا أدخل.

وراح يهتز بالضحك، وبمحاولته ان لا يصدر صوتاً، وسمعنا صوت عم عبد الله وهو خارج من المكتب يقول لعابد:

- اجلس هنا لا تتحرك. وقل لهذا - يقصدني بالتأكيد - أن لا يترك مكانه.

وسمعت صوت باب السيـــارة يُفتح ويُغلق بعنف مرة ثانيــة، وسمعتها تدور، ورأيت عم عبد الله يعود بها إلى الخلف في سرعة. لم ينس أن ينظر إلي بحدة، ثم اندفع إلى الأمام بقوة، فملأ الفضاء مرة أخرى بغبار أكثر مما هو فوق الأرض.

* * * * *

نظرت إلى الســاعــة فوجدتها الثانية عشرة. نظرت إلى الباحة فوجدت اليمني العجوز يدير السواك بيده في فمه. دخل مع غبار السيــارة. كانت هنــاك فرصـــة أن أراه يدخل اليوم لولا غبار عم عبد الله. ابتسم وبرقت عيناه وهزّ لي كتفه حين رآني انظر اليه.

ابتسمت وجلست الى مكتبي أتعجب من خلق الله. ما الذي حقاً يجعــل فيليب يسرق؟ رجــل مثله تجــاوز الخمسين مهيب الوجه ومــلاحـظ كبـير لأعمال الكهرباء ويريد قضاء أكبر وقت بالمملكة ويستعد ليشهر اسلامه. ماذا سيقول لزوجته «روزالينا» وأبنائه

العشرة. خمســة هنا وخمسة تركهم في سيلان. العاشر من ابنائه أنجبه هنا وأسماه «فيرلاندو» ويقول إنه ليس أسود مثله ولكنه بُنّي مثــل «روزالينــا» قطعــة شيكــولاتة صغيرة، وعمره عامان الآن، ويصحــو في الصباح مع فيليب يتعلق بساقه لا يريده أن يخرج دونــه، فيحمله فيليب من فوق الأرض، ويضعـــه فوق الدولاب، فيضحــك «فــيرلانــدو» ويخــرج فيليب ويعــود آخر النهار فيجد «فيرلاندو» كما هو فوق الدولاب لكن يبكي. لا تفكر أبداً «روزالينا» صغيرة الجسم أن تصعد على كرسي وتنزله. «فيرلاندو» معجزة الهية فمن كان يصـــدق أن روز الينا تُنجب بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين، لكنها الأرض الطاهرة مستر اسماعيل. هكذا يقول لي. «انني وزوجتي مثــل النبي زكـريــا وزوجتــه في القــرآن مستـر اسماعيل» فيليب يفسد كل شيء ويسرق راديو. لن يشهر إســلامه ولن يبقى بالمملكة.

أحسست بالضــيق فقمت عازمــاً على ترك الغرفة والجلوس في البوفيه قليلاً مع نبيل لكني رأيته يدخل ويتساءل:

- ويــن رايـــح؟

وقفت مندهشاً من عودته بعد انقطاعه كل هذا الوقت. كان يتجه الى المكتب الآخـر القريب من الخازنة ويجلس خلفه والقرد فوق كتفه. يسألني كأنه كان معي منذ دقائق، مع أنه اختفى لأكثر من عشرين يوماً الآن، ولم يفكر حتى بالقاء السلام.

ودق التليفــــون.
- آلـــو.
- أنزل السماعــة.

صوت عم عبد الله. أعرفه ولا أخطئه. هو أيضاً يعرف صوتي. لا بد. وإلا ما قال ذلك. يريد عابد. ما ذنبي إذا كان التليفونان على خط واحد؟ جلست من جديد الى مكتبي ممتلئاً بالغيظ.

ـ يا هلا يا اسماعيـل.

ذكرني منصور بوجوده. قررت إذا اساء اليّ أن أردّ الاساءة بأعظم منها.

ـ تسمح لي بالجلوس؟

ـ لقد جلست بالفعل.

وسكتنا قليلاً. قال:

ـ لقد سافرت إلى عمان. ذهبت بالسيارة. عمان جميلة جداً..

لم أرد. وظهـر نبيـل بالبـاب حامـلاً طبقاً به قليل من الفول السوداني والفستق. قال منصور.

ـ ضعه على الأرض.

وضع نبيل الطبق، وتألقت عينا القرد، وهز منصور كتفه هزة بسيطة، فقفز القرد الى المكتب ثم إلى الأرض وراح يلتقط الفول السوداني والفستق في سرعة مضحكة. راح نبيل يضحك ويقول:

ـ سيرك. سيرك المعلم منصور.

احمـر وجـه منصـور، ورأيته يحاول اخفاء ابتسامة صغيرة، وفجأة وجدت نفسي أضحك بشراسة. قال نبيل بعد أن توقفت عن الضحك:

ـ منصور زارنا بالليل. احضر لنا فستقاً من عمان.

لم أهتم. قال منصور لنبيل:

ـ فستق عمان طازج ليس كالذي يباع هنا. لكن لا تنس أنه ليس كله لك. لا تنسَ الكيس الخاص بالقرد ـ ثم خاطبني ـ هل يضايقك أن يأكل القرد هنا؟

ـ بالتأكيـــد.

أجبت بحســم.

ـ لو احببت أن اخرج لخرجت.

لم أرد. وانسحب نبيـل الذي لا بد أنــه أدرك نُذُر الصــدام. وتساءل منصور:

ـ مصري أنت يا أخ اسماعيل؟

ـ ماذا تقصد بالضبط؟

ـ اقصد هل انت من القاهرة. يقولون عن القاهرة مصر. أليس كذلك؟

ـ انا من الاسكندرية.

ـ جميلة الاسكندرية بها شاطيء وبحر.

ـ بها أجمل شاطيء في الدنيا.

ـ رأيت القاهرة ولم أرها. هل تعرف السباحة يا أخ اسماعيل؟

ـ أنا سباح ماهر فزت في بطولات كثيرة.

كنت أكذب. لم يحدث اني سبحت عشرة أمتار.

ـ تسبح وسط النساء في البحر؟

ـ وسط نساء يرتدين المايوهات البكيني. والآن ينزلن بمايوهات قطعة واحدة فقط. صدورهن تسبح امامك. ما رأيك؟

رأيتــه ينظر اليّ ثم يطرق، وينظر الى المكتب، ويضربه بأنامله ضربـات سريعة منتظمة. لاحظت اتساخ اظافره رغم ما يبدو من

نظافة مظهره العام. ورأيت وجهه يكفهر فجأة ويتلبد بالغيوم، ثم وقف ودار حول المكتب. وكأنما احس به القرد توقف عن إلتهام الحبات القليلة الباقية، ومد له منصور ذراعه فصعد عليها، ثم استوى فوق كتفه. واندفع منصور خارجاً بلا كلمة واحدة.

* * * * *

كان «منذر» اول الواصلين للتوقيع في دفتر الانصراف. ولان عم عبد الله استدعى عابداً ليلحق به في الإمارة، طلبت من منذر أن يحملني في سيارته. ولأني أعرف أنه في عجلة من أمره دائماً، قلت:

ـ لن يستغرق توقيع العمال وقتاً طويلاً. لا تقلق.

قـــال:

ـ خذ راحتك يا رجل.

وجلس على المقعد الجلدي الواســع ونـام. أجل. مد ساقيه، وارخى قبعته على وجهه، ونام، وسمعت شخيره في لحظات. إلى هذا الحـد يتعب منـذر في العمل؟ سألت نفسي. «وآرون بونكرد» يقف أمامي مبتسماً ابتسامته المحيرة. لاحظت، لأول مرة، أن أسنانه موضوعة في فمه كيفما اتفق.

قال وهو يصوب نحوي عينيه المغوليتين:

ـ أنا محتاج إلى قرض ثلاثة أشهر مستر اسماعيل.

كدت أضحك من لكنته وهو يتحدث بالانكليزية. يقول «تري» بدلاً من «ثري» ويقول «مَنْ» بالميم المفخمة والنون فقط ويعني شهراً. قلت:

ـ هذا عمل عابد.

قال في يأس:

ـ أوه مستر اسماعيل. عابد هذا صعب جداً.

وربّت على ذراعي، وقـال إنـه مضطر الى هذا القرض ليرسله لزوجته لتشتري بيتاً في بانكوك. بيت صغير. ثم قال:

ـ ما فائدة عملي في المملكة إذا لم اشتر بيتاً في العاصمة مستر اسماعيل؟

تأملت قصَرَه وامتلاء جسمه وصُفْرة بشرته وصلعة رأسه وعظام وجهه النائئة، واستمر يتحدث:

ـ الا تود شراء بيت في القاهرة؟

ـ انا أعيش في الاسكندرية آرون.

ـ أنا ايضاً لا أعيش في بانكوك.

ـ الاسكندرية أجمل من القاهرة.

ـ حقاً مستر اسماعيل. إنها مدينة جميلة جداً.

حسبت انه يجاريني ويتملقني، لكنه قال:

ـ لقد رأيتها مستر اسماعيل. في السينما في فيلم امريكي جميل كان اسمه «واحد بيرة مثلج في الاسكندرية».

ربّت على كتفه وقلت:

ـ سأساعدك آرون. سأتحدث مع عابد في الأمر.

قال ببؤس:

ـ أشكرك مستر اسماعيل. انت شخص طيب جداً.

ثم شبّ على قدميه ليهمس في أذني:

ـ دو يو لايك فاين؟

للوهلة الأولى لم أفهم. دهشت وأنا استوعب السؤال. ارتبكت.

عاد يهمس:

- لا تخف مستر اسماعيل. أنا أجهزها بنفسي. إن خمرة آرون شيء رائع..

كانت عيناه تتسعان بألق غريب كانما يشعرني بالبهجة كلها. قلت:

- لا أحبها.

وكاد صوتي لا يخرج. أحسست بالخوف حقيقة، حتى أنه انصرف من امامي من دون أن اشعر.

* * * * *

في الطريق ضَرَبَتنا ريح العجاج بدوّامات صفراء ثقيلة. أضاء منذر الكشافات، لكنها لم تفلح في إشعال هذا الظلام الأصفر، يلفنا من كل ناحية، يكاد يخنقنا. صرخ منذر:

- لا حيلة لي في تراب هذا البلد. أنا منذر الذي لا يقف شيء أمامه. كهرباء يعمل. ميكانيكا يعمل. نجارة يعمل. حدادة يعمل. مراقبة يراقب. موت يموت. أنا منذر أعجز عن مقاومة هذا التراب الأصفر؟

- نقف بالسيارة أفضل.

- نختنق يا رجل. قد يطول الوقت. الكل يقف الآن بعيداً عن نهر الطريق. الكل يخاف. الطريق مفتوح من الوسط. ننطلق بسرعتنا نفسها.

وصرت أسمع صوت ارتطام ذرات الرمال بالعربة، وأحس كأننا

شخص يحملني في صندوق مغلق ويطير بي. المشكلة أني أعرف أني في سيارة. ماذا أفعل؟ هل أتوسل اليه أن يقف. صرخت:

- منذر. قف بالسيارة.

- تصرخ بي يا رجل. تصرخ في منذر. تريد أن نموت. ألا تعرف أنها بلدة ملعونة؟

ولم يهدِّئ من سرعة السيارة. صار يضحك بهستيرية. يهذي. منذر أفضل من شاذام. منذر يتحدى السوبرمان. ها ها ها. لا تخف يا رجل.

- لا تخف يا زلة. يا أستاذ. يا مصري. هل تحب السادات؟ أنا أكرهه. أكرهه جداً. ها ها ها. وصوت الرمال صار كصوت مطر من حصى. ماذا أفعل مع هذا المجنون؟

- لا تخف. سأقف. أهدئ من السرعة كما ترى. لا تخف أخي اسماعيل.

وأحسست بالسرعة تقلّ فعلاً، وبالسيارة تأخذ جانب الطريق لتقف، لكن العاصفة راحت تتقشع، وظهرت بيوت البلدة قريبة.

- انظر. لقد قطعنا مسافة طويلة ولم يحدث شيء. نظرية منذر صائبة. الكل يقف على الجانبين. منذر لا يقف ويجري في المنتصف.

- لا أظن أني سأركب معك مرة أخرى يا منذر.

- ستركب معي كثيراً يا أستاذ.

وراح يقود السيارة على مهل رغم انكشاف الفضاء.

- سأترك السيارات التي تخلّفت تسبقنا. لن أضايق أحداً.. قل

لي يا أستاذ، هل تسكن وحدك؟

رحت أتأمل وجهه المستدير المليء بآثار بثور قديمة. بشرته بيضاء وعيناه خضراوان.

ـ أسكن مع أصدقاء.

ـ في بيت عربي.

ـ أجـل.

ـ هذا أفضل ما فعلت. كنت أسكن في بيت عربي. منذ تزوجت سكنت في شقة في عمارة. أسوأ شيء هنا أن يكون لك جيران.

لم أفهم ماذا يقصد، فراح يحكي لي حكاية صاحب البيت الذي يسكن في شقة تقابل شقته. صاحب البيت رجل تجاوز السبعين، له زوجة لم تتجاوز العشرين. الزوجة السادسة بعد خمس زوجات. منـذر في خروجه ودخوله يرى الزوجة الشابة أمام باب شقتها كاشفة وجهها. إنها جميلة جداً شقراء. من يرها يقل إنها تركية منسية في المملكة منذ عشرات السنين. إنه يخاف هذه المرأة الصغيرة. وسألته:

ـ هل أنت أردني يا منذر؟

لم أرتب للسؤال، ولم أدر ماذا قصدت منه. أنا أعرف أنه أردني. تساءل:

ـ هل يهمك هذا يا أستاذ؟

ـ أبداً. أريد فقط أن أسألك عن الأردن، يقول منصور إنها جميلة.

ضحك وقال:

ـ منصور! هذا مخبّل يا أستاذ، هذا له قصة عجيبة سأحكيها لك فيما بعد، أظن أن بيتك قريب الآن.

كنت قبل أن أركب وصفت له البيت. وكنا وصلنا فعلاً. ما كدت أفتح باب السيارة لأنزل حتى هتف:

ـ أستاذ. أنا لست أردنياً. أنا فلسطيني.

وكان ينظر إليّ بتحدٍ غريب.

٥

ـ لماذا لا تحب النزول معي إلى السوق؟

سألني سعيد فجأة وهو يغلق الطاولة. كنا نجلس في الردهة وكان الوقت يدخل في المساء. واستطرد

ـ أنت تلعب شارداً اليوم. لقد خسرت كثيراً.

لم أشأ أن أحدثه بشيء. ماذا يفيد القول بأني افكر في الصمت الذي يحاصرني في العمل منذ أيام؟ لا أعرف اي خطأ ارتكبته مع «أرشد» الذي إذا جاء ليطلب من عابد شيئاً وتصادف وجود عابد في حجرتي، تجاهلني ولم ينظر حتى اليّ. ينهي حديثه مع عابد بسرعة، وينصرف مطيعاً لكل ما يقول. لا يحتج ولا يغضب. وحين اذهب إليه لاتابع التمرين على القيادة يتعامل معي بجدية شديدة. يبدو دائماً يغلق كل طريق لحديث آخر. منذر لا يزال يدخل ويخرج بسرعة، لكنه صار ينظر اليّ في خروجه ودخوله بتحد غير مفهوم. يبدو لي متحفزاً للرد على أي شيء اقوله أو أفعله. حتى فيليب الذي توسط عم عبد الله له لدى السلطات، ومنع ترحيله أو عقابه، لم يعد يحدثني فيما يصعب عليه من القرآن. يبدو غير مستعد للحوار في شيء. يعرف اني إذا تكلمت سأسأله عن الذي دفعه للسرقة. وهو لا

يريد أن يخوض في ذلك. لكن هل يدعو الأمر حقاً لقطع كل كلام؟ لقد بدا لي في الأيام الأخيرة أني شخص لا يأمن الناس جانبه. هكذا بلا سبب اقترفته. وقليلاً ما تذكرت عهدي لنفسي أن لا أكون مشاركاً في شيء، وأن أظل مرآة لامعة تنزلق من فوقها حبات المطر. وشغلني الضيق الذي لا أعرف إلى أي وجهة أدفع به. حتى منصور الذي يبدو ضعيفاً أستطيع أن أزيح عليه بعضاً من غيظي، عاد واختفى. لم يعد أمامي في العمل غير عابد الذي لا يمضي من الوقت إلا القليل في المكتب، ودائماً في أعمال عم عبد الله الخاصة، ونبيل الذي قال لي منذ أيام: «لا تصدق ما حدثتك فيه بشأن الخازنة»، ثم انقطع عن كل كلام معي. يقدم القهوة في صمت ويمضي.

أنا واليمني العجوز فقط نتبادل الابتسام من بعيد قلت لسعيد:

- إنني فعلاً بحاجة للنزول معك الى السوق.

وقمنا نرتدي ثياب الخروج، كل في غرفته. اليوم جمعة. يوم يكون معظم العمل فيه عليّ، فسعيد يصحو متأخراً ويخرج الى الجامع، ويظل فيه حتى الصلاة، ووجيه عادة ما يمضي الليلة في المستشفى، ويأتي الى البيت صباح الجمعة لينام. يكون عليّ أنا الذي لا يصلي، ولا يعمل ليلاً، أن يعد طعام الغداء. طعامنا يوم الجمعة يكون مصرياً. سمك مقلي وسمك في الصلصة وباذنجان مقلي وبطاطس مقلية وفول وفلفل أخضر مقلي أيضاً وأرز بالخلطة وطبق كبير من السلاطة وعصير ليمون أو برتقال. لقد تعلمت عمل ذلك كله من سعيد.

يقوم وجيه بعد الصلاة ليتغدى معنا، ويخرج إلى المستشفى ولا يعود قبل العاشرة. نجلس أنا وسعيد نتفرج على التليفزيون، أو

نلعب الطاولة. نحرص دائماً أن نرى حديث الشيخ علي طنطاوي. شيخ تجاوز الخمسين له وجه أليف، مشرق البشرة، تحوطه لحية قصيرة بيضاء، يتحدث كأنه يجلس معك ويخاطبك أنت وحدك بألفة قديمة. يتحدث في أعمق المسائل الفقهية ببساطة نادرة تصل إلى كل عقل، لذلك فيما يبدو تقاسمه الناس. قالوا إنه في الأصل مصري، وقالوا إنه سوري، وقالوا إنه مغربي، وأردني وفلسطيني.

على أني لم أكن بحاجة الى النزول إلى السوق بسبب ما يحاصرني في العمل من صمت مفاجيء. هنا أيضاً نوع آخر من الصمت في البيت الذي أحببته وأحببت العودة اليه والبقاء فيه أطول وقت. بان لي أن حياتنا تمشي على ايقاع ثابت. انه لا شيء يربط بيننا غير اننا غرباء. نضحك كثيراً لكن على حكايات نحكيها عن غيرنا. لم يحدث أن خاض واحد منا في أمر خاص أمام زميليه. نلعب الطاولة فيكون جهدنا في الفوز. نتفرج على التليفزيون فنقارن بينه وبين التليفزيون المصري. ولأن كلاً من سعيد ووجيه يرتدي نظارة أثناء اللعب أو الفرجة، أحس دائماً أني جالس مع اثنين من العلماء. لا يبدو لي أن علاقتنا يمكن ان تمتد بعد أن نفترق. سنفترق. لا بد أن نفترق يوماً، لكن علاقتنا لا تحفر لها مجرى في القلوب. علاقة جديرة بالاحترام، لأن الاحترام المتبادل هو أساسها ولن تشهد يوماً خروجاً عن المألوف. حتى حين يبدو وجيه قلقاً من العودة الى مصر، ويقول إنه لن يستطيع أن يمارس الطب هناك أبداً، وإنه بعد عودته سيفتتح ورشة للنجارة، نضحك، ولكنه يبدو جاداً ويبدو الأمر لا يعني أحداً. أحياناً يقول سعيد: وصلتني اليوم رسالة من أمي. يتساءل وجيه: «كل شيء بخير؟ يرد سعيد: «كل شيء بخير» وينتهي الكلام. ووجيه لا يتحدث عن رسائل تصل إليه.

أنا أيضاً لا أفعل ليس عن قصد. ولا يبدو أنهما أيضاً يقصدان ذلك. لا بد أن كلامنا لا يزال مشدوداً إلى الطرف الآخر البعيد.. الوطن والأهل. حقيقة أننا سنعود يوماً، لا بد أن تفعل فعلها وتسد بيننا وبين ما حولنا. ولأن كلاً منا مطمئن إلى عودة ظافرة، لا يبدو أن للقلق أو للخوف منفذاً يتسرب منه إلينا. أي حياة هذه التي تبدو نظيفة مثل درس في قواعد اللغة. كل شيء حولي بارد. إذن وخروجي اليوم إلى السوق لا يزيد على ابتسامة باهتة.

* * * * *

ركبنا سيارة سعيد الداتسون. جُسْنا قليلاً في أزقة جانبية حتى دخلنا إلى الشارع العام. هل يصدق أحد أن هذه ثاني مرة أرى الشارع العام رغم مرور أكثر من شهر على وصولي. لا يزال الشارع مزدحماً كأني أراه أول مرة. كأني تركته منذ قليل وعدت إليه. لكننا ندخل في المساء. أضيئت المصابيح على الجانبين ورأيت القمر عالياً في السماء هلالاً صغيراً.

ـ المشي أفضل.

قال سعيد بعد أن جنح بسيارته إلى زقاق جانبي. كنا قطعنا نصف الشارع العام تقريباً. توقف وتركْنا السيارة وعدنا نمشي. رصيف الشارع العام ضيق بالمارة والبضائع. صمت بشري غريب ورطوبة عالية مفاجئة في الجو منذ أمس. يبدو أن الصيف يلفظ آخر أنفاسه. نحن في أكتوبر الآن، في منتصفه، وفي النصف الثاني من ذي القعدة. أسابيع قليلة ويهل علينا العيد الكبير والحج. لقد بدأ التليفزيون يبث برنامجاً خاصاً عن الحج وشعائره. لافتات «التوفوتيه» هي الأكثر شيوعاً في الشارع. فكرت أن أشتري شيئاً

لأمي وإخوتي وتراجعت. لا أعرف أحداً مسافراً إلى الاسكندرية لأرسلها معه. ولا أعرف أحداً يسافر في الوقت القريب.

الآن أرى السوق أفضل مما رأيته أول مرة. أمشي على مهل وسعيد لا يتعجلني في شيء، لكنني لا أشعر بأي غرابة. هل كان مشهد السوق غريباً أول مرة حقاً، أم مشهد عربة الشرطة والفتاة المسكينة فوقها؟ الآن لا أرى ما حولي يختلف كثيراً عن سوق المنشية بالاسكندرية، فقط لا أحد ينادي على بضائعه، وأشكال الناس هي التي تختلف.

ـ تستطيع أن تحول نقودك إلى مصر عن طريق بنك الراجحي. إنه أشهر بنك هنا.

قال سعيد حين رآني أتطلع إلى لافتة البنك. قلت:

ـ أنا فعلاً في حاجة لإرسال مائة جنيه لأمي.

ـ وأنا أريد أن أسأل عن سعر الجنيه الذهب.

وجذبني من يدي ندخل، وأضاف:

ـ وجيه سيسألني بالليل عن ذلك. إنه يحب أن يشتري بفلوسه ذهباً. يقول إن الذهب أفضل من الدولارات.

دخلنا من باب ضيق. زحام شديد ضاغط بالداخل. البنك صغير لا أعرف كيف اتسع لهذا العدد من الناس ولأنفاسهم وعرقهم. وقف سعيد أمام موظف باكستاني شاب يسأله عن سعر الجنيه الذهب. مائة وأربعة وتسعون ريالاً. سمعت الموظف يقول. ووقفت أنا أمام موظف آخر يفصلنا شباك من الحديد، وطلبت إليه أن يحرر لي شيكاً بما يساوي مائة جنيه مصري. أخذ مني خمسمائة ريال، وحرر لي الشيك الذي سأرسله لأمي بالبريد. أحسست وأنا

أقف أنتظر انتهائه من تحرير الشيك أن شعاعاً من الضوء يخترق خدي. شيء يشدني أن ألتفت إلى ركن بعيد في الزحام. أعرف أنه حين ينظر إليك أحد تشعر بنظراته وإن لم تره. يزداد شعورك حدة إذا كانت النظرة أكثر دقة وإمعاناً. لم أفطن إلى ذلك إلا بعد أن التفت ورأيته بعيداً في الزحام يصوب إلي عينيه كأنهما بقعتا ضوء في غرفة شديدة الظلام. إنه منصور ولا أحد غيره، رغم أنه لا يوجد قرد فوق كتفه هذه المرة. ارتبكت لا أعرف هل أتوجه إليه أم أتجاهله. جذبني سعيد وهو يقول:

- لماذا تقف جامداً هكذا؟

رأيت وجه منصور يتشكل بالغضب. رأيت عينيه تتسعان وتتألقان بشيء أشبه بالنذير، وأقبل نحونا كسهم حاد. توقعت أن يسيء إلي. لا أعرف لماذا أتوقع منه الإساءة دائماً، لكنه تجاوزنا بسرعة وخرج يشق له طريقاً بكتفيه.

- لماذا تقف. ألا تسمعني؟

هتف سعيد وهو يهزني. كان عرق غزير قد تفصد على عنقي ووجهي. أخذت الشيك الذي أعده الموظف الباكستاني، وتركت سعيداً يشدني من ذراعي للخروج.

* * * * *

- ما لك؟

لم أرد. مشينا نقابل أعداداً من الباكستانيين السمر والأفغان البيض حمر اللحى. باللحى فقط تميز الأفغان. وربما أيضاً بنظرة الذهول في عيونهم. ملابسهم لا تختلف عن ملابس الباكستانيين

القميص نفسه الطويل والسروال الفضفاض الذي قال عنه نبيل مرة وهو يضحك إنه صنع خصيصاً للطفو فوق مياه الفيضانات التي تتحدث عنها نشرات الأخبار كل يوم.

قابلتنا أيضاً جماعات من الكوريين يمشون مسرعين. وكلما قابلتنا امرأتان معاً يقول سعيد: «مصريات». يشرح لي كيف يمشين اثنتين اثنتين. نادراً ما تمشي امرأة وحدها. المرأة مع زوجها أو صديقتها. ورأيت أمام أحد المحلات عدداً من الأوروبيين، وربما الأمريكان، يشربون السفن آب، وبينهم فتاة ترتدي بنطلون جينز شقراء، لا تغطي وجهها ولا شعرها، وتضحك بجرأة. لم أر غيرها في طول الشارع.

أمام محل بقالة ضخم وقفنا. أقبل علينا العامل تاركاً بقية زبائنه. لاحظت أنه في نهاية المحل من الداخل يجلس رجل فوق الأرض مستنداً إلى حشايا صغيرة جوار الحائط، وقد مدّ ساقيه وراح يدخن النرجيلة. أعطى سعيد ورقة للعامل الذي صافحه مبتسماً.

- سنعود بعد ساعة.

قال سعيد، فرد العامل وهو يزداد ابتساماً:

- في أمان الله.

ومشينا. قال سعيد:

- الرجل الذي يدخن النرجيلة وهو صاحب المحل. العامل يمني اسمه محمد، يحب المصريين جداً ويحبه المصريون. ذكي ولمّاح. كل اليمنيين أذكياء. سنعود بعد ساعة، يكون جهّز لنا كل شيء.

وتابعنا المشي. رأيت اضاءة الشارع تقل، والزحام يخف، والمحلات تتباعد. ويظهر بعض المباني القديمة والخرابات، حتى وصلنا إلى مكان مظلم تماماً، ووقفنا نشم رائحة المخللات.

محل صغير به مصباح واهن، ورجل مسن محني الظهر، تقدم سعيد نحوه وتقدمت معه. طلب سعيد من الرجل ان يجهز لنا كيساً بخمسة ريالات، بينما رحت أتطلع إلى البراميل المصفوفة حتى سقف المحل، وإلى البراميل الصغيرة المكشوفة التي في بعضها بصل اصفر وأبيض يسبح في مياه حمراء، وفي الاخرى خيار متراكم في تراخٍ، تطفو بذوره فوق الماء، وفي غيرها قطع اللفت الحمراء والبيضاء وقرون الفلفل الأخضر. لم يكن هناك غيرنا والظلام، والهلال البعيد لا يضيء شيئاً وتخيلت البراميل مليئة بالديناميت الذي سينفجر في الحال. رحت انظر في الظلام إلى الجامع واضح المعالم أمامي. جامع كبير لكنه مغلق، ومنازل كثيرة بيضاء منخفضة خلفه.

ـ هذا جامع البلدة الرئيسي. أمامه تُقام الحدود. كل الحدود تقريباً فيما عدا قصّ الرقبة يتم في مكة. يقولون إن هذا الجامع اقامه في الأصل الرسول نفسه حين غزا تبوك. أعتقد انه صلى هنا فقط واقيم الجامع فيما بعد.

قلـت:

ـ هنا اذن يتم الجلد والرجم.

ـ في الغالب لا يوجد رجم. لم أره حتى الآن. يتم ترحيل الزانية من الغرباء. الزانية من أهل البلدة لم يكتشفها احد حتى الآن الجلد لا يزيد على ضرب بالخيزرانة، يسميه المصريون «تنفيض

هدوم». شيء مضحك. لو جئت في رمضان الماضي ربما رأيت الجلد صباح اول أيام العيد. ربما ترى ذلك العام القادم. إن اكبر عدد من المجلودين يتم جلدهم هنا في عيد الفطر. المفطر يتم سجنه بقية شهر رمضان ثم يجلد يوم العيد. الجلد الحقيقي يتم في الإمارة. ينفذه الأمير بنفسه. ليس بالخيزرانة ولا بالسوط، بالعقال على اللحم. وجيه يحدثك عن المنقولين للمستشفى مُشَرْحين من الإمارة.

اقشعر بدني وانا اصلاً لا احب الظلام. وأخذ سعيد الكيس البلاستيك الكبير الذي ملأه الرجل بالمخلل، وقبل ان نعود سألته عن البيوت خلف الجامع، قال:

ـ هذه منطقة أم درمان. كل سكانها سود. ربما سموها ام درمان لهذا السبب ـ وابتسم ـ وربما صار اهلها سوداً لأنهم يسكنون أم درمان. إنها منطقة مشهورة بالخمور وخلافه. معظم سكانها من المنشدين والمغنين والراقصين في الأفراح. الرجال والنساء. مثل عوالم شارع محمد علي في مصر، لكنهم لا يجلسون على المقاهي ولا أمام الأبواب. هل تعرف انه رغم مرور أربع سنوات على وجودي هنا، لم يحدث أن دَخَلْتُ هذه المنطقة؟ إنها خطرة جداً.

واستدار يعود في الشارع، فاستدرت معه تاركاً أم درمان خلفي والمسجد المغلق، وصوبت عيني إلى الأضواء البعيدة. لكن سعيداً قال:

ـ كلما أتيت هنا ورأيت الجامع، تذكرت غزوة تبوك، وتذكرت حكاية غريبة يتداولها الناس. يقولون إن إحدى القبائل التي مَرّ بها النبي، رفضت ان تقدم له ماء يشرب، وحالت بين جيشه وبين بئرهم، فدعا النبي عليهم أن ينقرض افراد هذه القبيلة، وتظل حتى

يوم القيامة لا يزيد عددها على عشرين. عشرون امرأة ورجل وطفل فقط. كلما ولد مولود مات أحد أفراد القبيلة. إنها اللعنة التي يتحدث عنها الناس هنا. هل تظن أن ذلك صحيح؟

وقبل أن أجيب أضاف:

ـ لا تتكلم.. إنها حكاية مرعبة لا أحب تذكرها.

ومشينا صامتين، لكنني تذكرت منذر حين قال عن البلدة إنها ملعونة يوم حاصرنا «العج». لا بد أن منذراً كان يقصد ذلك. أمر بشع بحق. لا أظن أن الرسول يفعل ذلك بأحد. لا أظن أن أحداً رأى أحداً من هذه القبيلة. هي قصة مرعبة اخترعها مجنون.. إلا أني أحسست بخوف حقيقي لم ينقذني منه إلا سماعي صوت أذان العشاء عالياً يصدر من جامع بعيد لا أراه. ورأيت المحلات تغلق أبوابها، والمارة يدخلون في الأزقة، ورجلين مسنين ذوي لحيتين بيضاوين طويلتين، يمشيان على الرصيف يحمل كل منهما في يده درّة يضرب بها من يقابله ضربة خفيفة ويقول بصوت عال: «صلّوا، صلّوا».

ـ هؤلاء أعضاء جماعة الأمر بالمعروف، يغلقون السوق ويدفعون الناس للصلاة.

قال سعيد ذلك وهو يجذبني لندخل زقاقاً جانبياً مظلماً نختبئ فيه قليلاً، فوجدنا عدداً من المصريين قد سبقونا إلى الزقاق، ووقفوا ينظرون إلينا ضاحكين.

انتهت الصلاة، وخرجنا وخرج الناس من أوكارهم، وارتفعت أبواب المحلات، وظهر الناس الذين اختبأوا خلفها، وراحت الحركة

تدب شيئاً فشيئاً في الشارع، وصارت الأضواء تزداد في عيني كلما تقدمنا، وقابلتني كثير من الوجوه التي رأيتها في قدومي عائدة، وانحرف بي سعيد إلى باحة واسعة خلف بنك الرياض، فوجدت سوقاً كبيراً للخضر والفاكهة واللحوم. اشترينا مانجو وبرتقالاً، وعدنا إلى الشارع لنلحق بمحل البقالة قبل أن يغلق. وسألني سعيد:

ـ هل نسيت حديثي معك منذ أيام؟

ـ أي حديث؟

ـ الدرس الخصوصي.

كان سعيد قد حدثني عن امكانية زيادة دخلي بإعطاء بعض الدروس الخصوصية. إن ممارسة عملين أمر ممنوع في المملكة، لكن الدروس الخصوصية ليست عملاً رسمياً. الدروس الخصوصية أيضاً ممنوعة، لكن على المدرسين فقط. أما من هم مثلي لا يعملون في التدريس فلا جناح عليهم. نسيت هذا الحديث ولم أهتم، لكنه فيما يبدو أخذ الأمر جاداً. دخل بي إلى محل أدوات مكتبية أنيق، استقبلنا فيه شاب صغير مبتسم، قدّمه لي سعيد باسم «خالد» وقدمني له.

صافحني الشاب بحرارة شديدة، وأخذنا إلى ركن بعيد في المحل، ثم فتح ثلاجة صغيرة، وأخرج منها علبتين من شراب «الفيمتو»، وعاد يحدث زبوناً كان يقف معه قبل دخولنا.

انتهينا من الشراب، وانتهى خالد من الزبون، وأقبل علينا هاشاً باسماً بسعادة فائقة. كان جلبابه الأبيض نظيفاً لامعاً، وكذلك غترته وعقاله الأسود، وبدا كل شيء فيه مبتهجاً. أخرج من جيب

الجلباب الأعلى ورقة قدمها لي وقال:

- هذا عنواننا يا أستاذ اسماعيل.

أمسكت بالورقة لا أدري بالضبط كيف أتصرف ولا ما هو المطلوب مني، وقال خالد:

لا تفكر بالمكافأة يا أستاذ. سنعطيك ما هو طيب. إن أختي تلميذة ذكية لا ينقصها إلا أشياء قليلة في اللغة الانكليزية.

إذن رتب سعيد كل شيء، واتفق مع هذا الشاب على أن أعطي دروساً لأخته. يا الهي! دروس لفتاة.. وهنا بالمملكة؟ ولا بد أن الدم ارتفع الى وجهي، ولم أدر إلا بخالد وقد انصرف من أمامي ليعود وفي يده علبة بها قلمان شيفرز مذهبان، وقدم لي العلبة الأنيقة قائلاً:

- هذه عربون محبة يا أستاذ. متى تحضر؟

- بعد اسبوع.

لا اعرف لماذا قلت ذلك. هذا ما حدث على أي حال. رأيت سحابة داكنة تطفو على وجه خالد، لكنه سرعان ما ابتسم وقال:

- إن شاء الله يا أستاذ.

قلـــت:

- في أمان الله.

ومددت يدي أصافحه، فأخذها بين يديه، وشد عليها بقوة. ثم صافح سعيداً. ما كدنا نلتفت لنخرج حتى هتف:

- أستـــاذ.

توقفت. اقترب مني. همس:

- أرجوك أن تحضر ولا تخذلني.

لم أدر كيف أرد. كنت أفكر كيف قبلت هديته بهذه السهولة. قلت:

- لا تقلق. سأحضر في الموعد.

شد عَلَى يدي من جديد بقوة الذي يعقد حلفاً، أو يقطع عهداً بالوفاء الى الأبد.

* * * * *

بعد العشاء رحنا نتفرج على التليفزيون في ردهة البيت.

سألني سعيد:

- ألن تحج؟

أجبت:

- نعــم.

قـــال:

- إذن ستمضي العيد وحدك.

وسكتنا قليلاً حتى قال:

- انا سأحج للمرة الثانية. وجيه سيحج للمرة الرابعة. أليس كذلك يا دكتور؟ أجاب وجيه:

- صحيح لكني هذه المرة سوف أحج لأمي.

ابتسمت وتساءلت:

- هل يمكن ذلك؟

أجاب سعيد:

- يمكن. ألم تر حديث الحج أمس في التليفزيون؟ المهم أن يحج

الانسان لنفسه أولاً.

ويضحك وقال:

ـ وجيه في الحقيقة سيحج لامه من باب التوفير. بدلاً من أن يرسل اليها تذكرة، ويستقبلها ويتحمل همها، يحج لها.

فوجئت بوجيه يقول ببرود:

ـ هذا حقيقي، لكن الحج الآن أيضاً صار شيئاً شاقاً. انا أوفر على أمي المشقة. هل تراني مخطئاً يا اسماعيل؟

ـ لا.. طالما أن الاسلام يرخّص ذلك فلا غبار على الفكرة.

قلت ذلك غير مقتنع بكلامه، لكن ما فائدة الجدل في المسألة برمتها، ووجيه من النوع الذي لا يتزحزح عن أفكاره، وقال يخاطب سعيد:

ـ هذا رجل لن يحج لكن يقول الحقيقة ولا يلجأ للغمز واللمز.

ضحك سعيد، وانشغل وجيه فجأة بكتابة رسالة على الضوء المنبعث من شاشة التليفزيون. وفكرت أنا في سعيد الذي حدثني اليوم لأول مرة عن خطيبته «وداد» التي تعمل مدرّسة في البلدة، وتعيش معها أمها كمحرم، وكيف إنه لا يستطيع أن يزورها أو يراها إلا في السوق، وصدفة وبسرعة.

لم يكن من السهل أن أصدق ذلك، لكن لماذا يكذب. قلت لنفسي ونحن عائدان من السوق، وكان لا يزال يتحدث. قال إنه سيعود في نهاية هذا العام الدراسي عودة نهائية. كل عمري هنا ضاع هناك. قال بلا مبالاة. لقد حجز لنفسه شقة انيقة بمصر الجديدة في عمارة ضخمة انهارت بعد بنائها. انه يحمد الله لأنه لم يسكنها قبل الانهيار، ويحمد الله أن خطيبته وداد تفهمت ظروفه. اشترت هي

شقة بمدخراتها، واقنعته ان يكون هذا عامهما الأخير. «قبض ريح يا صاحبي. كل شيء هنا قبض ريح». كان يقول ويضحك وهو يقود السيارة، لكنني كنت ادرك عذابه. «أي أيام للخطوبة تضيع هنا بلا لقاء حميم». كان يقول أكثر من مرة. وفي اللحظة التي تنبهت فيها إلى أن خالداً الذي قابلناه اليوم في السوق، قد يكون أخاً لواضحة بنت سليمان بن سبيل، إذ حدثني سعيد من قبل انه يعرف اخاها، وان له مكتبة بالشارع العام، في هذه اللحظة التي فكرت فيها أن الفتاة التي اختار سعيد لي ان أعطيها درساً قد تكون واضحة نفسها، في اللحظة التي كدت فيها اندفع اسأله، بدأ المذيع يتلو نشرة الأخبار الأخيرة بصوت عالٍ نافذ. قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

ولكم في الحياة قصاص يا أولي الألباب..

«وافق اليوم مفتي مكة، على إقامة الحد بالسيف، على مالك بن عبد الله بن مالك، الذي قام في رمضان المعظم الماضي، بخطف فتاة كانت ترعى الغنم في تخوم مكة، وهرب بها إلى الطائف، وهناك أقام والشيطان خيمة بين الجبال، وأخذ يعاشر الفتاة بالقوة معاشرة الأزواج. لقد تم اكتشاف وكر الزنديق هذا الاسبوع، وهاجمته قوة من الشرطة، لكنه كان مسلحاً برشاش استطاع به أن يقتل أحد أفراد القوة المهاجمة، التي مكّنها الله عز وجل من القبض عليه حياً...»

ـ هل سبق لك أن رأيت تنفيذ الاعدام بالسيف؟

سألني وجيه ببرود. أجبت:

ـ لا.

وتحسست عنقي..

٦

زحام شديد من الأوتوبيسات الكبيرة والصغيرة، وسيارات البيجو والمرسيدس والشيفروليه والتويوتا والداتسون والهوندا والفيات وماركات أخرى لا أعرفها، يشغل الطريق القادم من الشمال، طريق المطار، المتجه الى الجنوب.

تبوك أول البلاد الكبيرة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة. هنا يبيت الحجاج ليلة أو ليلتين في الخلاء جوار السيارات. الوصول إلى تبوك معناه الاطمئنان.

الرحلة بعد ذلك سهلة وفي أرض مقدسة. في تبوك يقوم المستشفى بدور الحجر الصحي، فيتم الكشف على الحجاج القادمين من الشمال، من الشام وتركيا.

في طريقي إلى العمل كل صباح أرى هذا الزحام، وأرى النساء والرجال وقليلاً من الأطفال، وقد جلسوا على الأرض جوار سياراتهم يتناولون فطورهم في صمت، والسيارات والأوتوبيسات واقفة تشغل جانبي الطريق.

قوافل الحجاج الأتراك هي التي تفقأ عيني في ذهابي وعودتي

من العسل. فقراء شبه عراة، حفاة، بيض اللحى، حمر الوجوه، مسنّون في أغلبهم. على وجوههم صمت وانتظار. إنهم بعيدون دائماً عن السيارات. لقد جاءوا مشياً على الأقدام، وسيستمرون كذلك حتى يصلوا إلى مكة. ينامون في الخلاء، يساعدهم أن البرد لم يشتد بعد، ومعهم أمتعة قليلة ربما لا تزيد على أغطية من الصوف الخشن.

لم تدهشني أعداد السيارات والاوتوبيسات. ادهشني أولئك القادمون على الأقدام. وكأننا بعد لم تفارق العصور القديمة التي قرأنا فيها عن قوافل الحجاج القادمة مشياً من المغرب والأندلس، أو على ظهور الجمال، والخارجة من مصر تحرسها قوات من المماليك لتصد عنها غارات الأعراب. كل الحكام المماليك كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج من غارات البدو، حتى جاء محمد علي الكبير الذي احتل أرض الحجاز نفسها فأمّن الطريق نهائياً. كل الحكام القدامى كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج الا، يا الهي، اسرائيل. مشت على طريق الحج القديم وهي تطوق سيناء من الجنوب عام ١٩٦٧. بالضبط كما مشت على طريق الساحل الشمالي حيث مشى سيدنا ابراهيم، ودخلت العريش حيث عرّش هو لأول مرة وبالضبط كما اندفعت من الوسط فوق هضبة التيه، حيث شق بنوها يوماً عصا الطاعة على موسى الكليم. ولم يضلوا هذه المرة. لقد حفظوا الطريق. مشت اسرائيل وداست على كل الطرق المقدسة ! أمان لم يحدث لأحد، وقالت: الأرض أرضنا نعرفها والأنبياء انبياؤنا ولا فرعون يستطيع أن يجبر أحداً منا على الكذب ولا الخروج. أبونا ابراهيم كان طيباً كذب لينجو من فرعون بامرأته واخونا موسى كان طيباً لأنه اقنعنا بالفرار. اليوم عدنا وها هن بنات

ابراهيم يسبحن أمامكم في المياه فمن منكم بقادر على منعهن؟ لقد جاء فرعون أخيراً الينا يطلب الغفران، وسنعطيه ما أخذنا منكم بشرط أن تتنزه بنات ابراهيم في أسواقكم، ولن يكذب رجالنا بعد اليوم.

ستترك اسرائيل طريق الحج في سيناء، لكن لا أحد يمشي عليه الآن. الحج بالسفن والطائرات. لا أحد يأتي مشياً إلا هؤلاء الأتراك المتعبون. لكن الحج هنا صامت صامت. لا صوت ليلى مراد ينشد «يا رايحين للنبي الغالي»، ولا محمد الكحلاوي يملأ الفضاء بـ «لأجل النبي»، ولا أعلام بيضاء مرفوعة فوق السيارات، ولا زغاريد تنطلق، ولا أظن أن الناس هنا تعرف شيئاً عن الحركة الوهابية والتقاليد التي ارستها. الحجاج القادمون بالسيارات وعلى الأقدام متعبون، مشغولون باستكمال الطريق والتزود بالطعام، ينزلون إلى السوق ويجوسون في البلدة، لكن لا تستطيع أن تميزهم. غرباء في بلد مليئة بالغرباء. لا أحد يُحْرِمُ من هنا. فلا ترى أحداً بملابس الإحرام. لا تستطيع أن تعرف الحجاج، إلا خارج البلدة، حيث يدور حولها الطريق الشمالي، ويعبرها بسرعة الى الجنوب ماراً بالمستشفى، ثم داخلاً في الرمال، لكن حديث الحج هو حديث الناس هذه الأيام.

* * * * *

دخل أرشد إلى غرفتي، وقال إن الباكستانيين نظموا انفسهم للذهاب الى الحج، ويريدون أن اتدخل لدى عم عبد الله ليعطيهم عربة نقل كبيرة.

ابتسمت. ها هو أرشد يكلمني. لقد انتهى تدريبي على القيادة،

وتسلمت أمس سيارة صغيرة نصف نقل قديمة لاتنقل بها، ولم يجدّ أرشد عن جديته في التدريب. اليوم يتحدث في شيء آخر. سألته:

ـ ستسافرون بسيارة نقل؟

ـ أجل. سيركب الزملاء في صندوقها ونتبادل قيادتها أنا ورماح.

ـ لكن هذا صعب. لماذا لا تستأجرون أوتوبيس؟

ـ يكلف كثيراً مستر اسماعيل.

كنت أعرف أنه بتقسيم سعر إيجار الاوتوبيس لا تكون التكلفة كبيرة، لكن الباكستانيين لدينا عمال نظافة أو فنيون بسطاء، ولا بد أنهم يحرصون على كل قرش.

ـ هل ستتحدث مع مستر عبد الله مستر اسماعيل؟

عاد أرشد يسألني والقلق باد على وجهه. طلبت منه أن يجلس فجلس. طلبت له قهوة فشربها. كنت أريده أن يتحدث كثيراً وتحدث. قال إنه متخرج من معهد عال للفنون، وإنه فنان تشكيلي لديه لوحات صغيرة يرسمها في غرفته في الكامب، لكن لا يطلع احداً عليها. وقال لي أن لا أندهش. لقد علمه أبوه قيادة السيارات وعلمه الميكانيكا منذ صغره. أبوه كان سائقاً. ولما كان في احتياج إلى السفر، اضطر الى استخراج جواز سفر بمهنة ميكانيكي حتى يحصل بسهولة على عقد عمل، «لا مجال هنا للفنانين مستر اسماعيل». قال وهو يبتسم ثم سألني:

ـ ألا يحدث ذلك في مصر؟

قلـت:

ـ يحدث.

لكن دهشتي لم تنته. لم أصدق القصة ولم أشأ الاستفسار

عما أراه غامضاً فيها. وقال أرشد إنه متزوج، ولديه طفلة جميلة اسمها زينب، يرسمها دائماً في غرفته، وقال إنه من «بيشاور». وماذا تعني بيشاور يا أرشد؟ أليست بلدة مثل سائر البلدان؟ لا مستر اسماعيل. بيشاور أكثر البلدان فقراً. كل العاملين هنا من عمال النظافة تقريباً من بيشاور. إنهم لا يقومون بإجازاتهم السنوية. يعملون فيها لتحسب لهم أجراً مضاعفاً. لا يعودون الى بيشاور إلا بعد أربع أو خمس سنوات. مع نهاية التعاقد. قلت:

ـ لكن هذا صعب جداً.

قـال:

ـ أصعب منه أن تذهب الى بيشاور ثم تعود الى هنا.

وسكت قليلاً ثم قال فجأة:

ـ باكستان بلد منكوب.

لم افهم ماذا يقصد. قال:

ـ ضياء الحق شرير جداً مستر اسماعيل. ألا ترى عينيه؟ إن بوتو افضل منه.

ـ هل تعرف بوتو؟

ـ أعرف انه مسجون الآن.

ـ سيقتلونه مستر اسماعيل. بوتو هو الذي صنع ضياء الحق. ضياء الحق انقلب على بوتو. ضياء الحق مثل السادات مستر اسماعيل

أربكني ارشد بحق، واستمر يتحدث بعفوية شديدة. وسألني:

ـ انت تكره السادات. أليس كذلك مستر اسماعيل؟

لم أرد. ضاع مني الكلام، ورأيته يتحدث كطفل بريء للغاية. قال:

- ذلك واجب مستر اسماعيل. واجب أن نكرههم جميعاً. انني اعرف الكثير عن مصر. عن مظاهرات يناير العام الماضي. مظاهرات الفقراء. في باكستان نحتاج مثلها لكن العسكريين أغبياء يطلقون الرصـاص على الناس.. إنهم جميعاً ضدنا مستر اسماعيل. كل هؤلاء الرؤساء ضدنا. اننا بحق تعساء جداً.

وسكتنا طويلاً. ها هو ارشد الصامت ينفتح كشلال. كيف فتح لي قلبه، هذا الذي كان يبدو شديد الخوف مني؟ لقد نهض واقفاً يسألني:

- هل ستتوسط لدى مستر عبد الله؟
- اطمئن أرشد، وسيوافق.
- اشكرك مستر اسماعيل. الن تحج معنا؟
- لن أحج هذا العام.
- إذن ستمضي العيد وحدك مستر اسماعيل..

وتركني وخرج.

* * * * *

- الن تحج مستر اسماعيل؟
- نعـم.
- إذن ستمضي العيد وحدك.

ادهشني فيليب سوساي بيليا وهو يقول لي ذلك ايضاً. حدثني اليـوم. وجد نفسه وجهاً لوجه امامي، وكان عليه ان ينتظر معي بعض الوقت. لقـد انصرف عابـد لأمـر من أمـور عم عبـد الله الخاصة، وانتقلت اجلس في غرفته. لم تكن ساعة مضت على حديثي

ارشد معي، وكنت لا زلت افكر كيف فتح لي قلبه بهذه السهولة. اي سر وراء اندفاعه في الحديث على ذلك النحو! اتراه كان معذباً به أم شاء ان يعذبني؟ كلمني على كل حال، واشاع كلامه في نفسي نوعاً من البهجة الغامضة. أرشد لا يخشاني، ولا أنا شخص يثير خوف أحد. سألني فيليب عن عابد قلت إنه في البلدة. نظر إلى ساعته متضايقاً، وقال:

- لقد طلب مني الحضور في الثانية عشرة.

نظرت إلى ساعـة الحائط فوجدتها الثانية عشرة. وجدت نفسي اتركه واقفاً بالغرفة، واخرج أطل على الباحة علّني ارى اليمني وهو داخـل اليها. وجدته جالساً في مكانه يدير السواك في فمه. رآني فابتسم. ابتسمت وعدت الى الحجرة. جلست خلف المكتب وجلس فيليب على أحد المقاعد، وشملنا الصمت للحظات. فسألته:

- هل يحتاجك عابد لأمر هام؟

أجاب في ضيق:

- هو قال ذلك.

تأملت وجهه البارز عظام الوجنتين. وجه قوي رغم ما بلغه فيليب من عمر. صار يضع نظارة طبية الآن. لم اره يضعها من قبل. قلت دون ترتيب:

- هل كنت تعرف أن مستر عبد الله سيخلصك من الشرطة؟

واحسست بالاسف. مضى وقت على حادث السرقة، وما كان علي ان اذكّره به. يبـدو أن رغبتي في معرفة دوافعه كانت اقوى من قدرتي على الصمت. قال:

- لا.

وابتسم فابتسمتُ وتشجعتُ. سألته:

ـ ألا تعرف قانون هذه البلاد فيليب؟

ـ أعرف مستر اسماعيل.

ـ إذن كيف فعلت ذلك؟

ـ إنه راديو غريب مستر اسماعيل. راديو بسبع موجات.

ـ لكنه كان سيكلفك الكثير. كان يمكن أن تشتريه.

ـ ثمنه ألف وخمسمائة ريال. راديو فخم جداً. أحببت أن أستمع إلى إذاعة كولومبو هل رأيت من قبل راديو بسبع موجات؟

ـ لا.

ـ خلاص.

قال ذلك باللغة العربية فجأة، لكني لا أعرف كيف ركبني الشيطان، فقلت:

ـ أنت تستعد لإشهار إسلامك مستر فيليب والسرقة حرام الاسلام.

ـ أعرف. لكن ليس في القرآن نص على عدم سرقة راديو بسبع موجات.

انطلقت أضحك، وابتسم هو ابتسامة واسعة مشوبة بالضيق الذي لا بد أن سببه له ضحكي حتى أن وجهه الأسمر احمرّ قليلاً.

ـ عليك الآن أن تعجّل بإشهار الاسلام حتى ينسى الناس حدث.

ـ سأفعل ذلك قريباً مستر اسماعيل.. لكن قل لي، ألن تحجّ هذا العام؟

فاجأني فيليب، وتوقفت سيارة عابد أمامنا في الباحة. لم ينزل منها، لكنه أشار إلى فيليب فتوجه نحوه، وركب السيارة معه، وانطلق عابد به دون أن يكلمني. صار عليّ أن أظل في غرفته وقتاً آخر.

* * * * *

توقعت حين دخل نبيل الغرفة، ووقف ينظر إليّ ولا يتكلم للحظة، أنه سيسألني بدوره ما إذا كنت سأحج هذا العام أم لا. بدأت أشعر بالضيق من تكرار السؤال. كيف أشرح المسألة. لم يمض شهران على عملي هنا، وفوجئت بعيد الأضحى يقفز أمامي. الواحد حين يأتي هنا لا يفكر إلا بالعمل. لا يدرك إلا متأخراً أنه في أي مكان من بلاد الدنيا لا يختلف الزمان، فلعيد الأضحى وقت معلوم حتى لو كنت في الصين أو اليابان. لكني حقيقة فوجئت بعيد الأضحى، وفوجئت أيضاً بمسألة الحج. الحج مرتبط في ذهني بكبار السن من الرجال والنساء. أنا لم أر حجاجاً غير هؤلاء في مصر. والحج في ذهني تسبقه طقوس كثيرة أراها تتكرر كل عام في الحي الذي أسكن فيه بالاسكندرية. زينات وذبائح، وأطفال يغمسون أكفهم في الدم، ثم يطبعونها على الحائط خمسة وخميسة، في عين الحسود، وشباب يرسمون جَملاً يركبه شيخ ويسحبه صبي، وجامع بعيد ونخل في الطريق، ورجال تأتي تصافح الحاج قبل سفره، وسيارات تجري في الطرقات مزينة بالأعلام والورود، وشيوخ تقرأ القرآن في سرادقات صغيرة، وولائم للفقراء.. لم أفكر أبداً أن شاباً مثلي يمكن أن يحج في هذه السن المبكرة. دهشني أنه هنا يمكن أن تركب سيارة قبل مراسم الحج بيوم واحد

وتذهب لتحج وتعود. هذه هي المسألة التي لن يفهمها أحد. ولم أحدّث بها أحداً حتى الآن. لكن نبيلاً لم يتحدث في الحج. جلس وقال أن استمع اليه جيداً. قلت:

ـ خيـــراً.

قـــال.

ـ ليس بخـير.

ابتسمت. لقد بتّ أحفظ طريقته في الكلام. قلت

ـ ليكن. نعـم.

قـــال:

ـ أنت تعرف أني خاطب.

ـ أرى في إصبعك دبلة

ـ أنا في حيرة شديدة. هل استمر في الخطوبة أم افسخها؟

ولم ينتظر رداً. ولم يكن لديَّ رد بالطبع. استمر يتحدث:

ـ أنا أتقاضى راتباً ألف ومائتي ريال. يعني ما يساوي مائتين واربعين جنيهاً مصرياً. ارسل لخطيبتي مائة ولأمي خمسين واعيش بالباقي فلا أوفر شيئاً. لقد فَتَحَتْ خطيبتي لنفسها حساباً ببنك مصر. لا. في سيتي بنك. بنك اجنبي. اخبرتني بذلك منذ أسبوع وطَلَبَتْ أن احول لها ما ارسله على حسابها، ولا ارسل إليها شيكات أو حوالات لان ذلك يستغرق وقتاً في صرفه. زحام شديد. وكثيراً ما لا تجد دولارات بالبنك فيعطونها نقوداً مصرية. يحولون الدولار بالسعر الرسمي فتخسر كثيراً. هي تقول ذلك في الخطاب. يصرفون لهـا الدولار بثمـانيـة وستـين قرشاً. مع أنه في السوق السوداء بثمانين. فضلاً طبعاً عن ما في إرسال الشيكات من مخاطر. موظفو

البـريد يفتحون الخطابات ويأخذون الشيكات لأنفسهم. موظفو البريد في مصر فقراء جداً كما تعرف. ولا بد أنك تذكر أشكالهم

ضحكت. تساءلت:

ـ حتى لو كان الشيك للمستفيد الأول فقط؟

قـــال:

ـ لا شيء يستعصي على موظفي البريد في مصر

ضحكت بشدة واستمر هو يتحدث:

ـ امي ارسلت لي أمس خطاباً تنصح لي ان أكف عن إرسال نقود لخطيبتي لأنها تمشي مع سائق من الحي. من الكيت كات. لا. ليس الكيت كات. من سوق الجمال في امبابه.

قلت ضاحكاً:

ـ ليس مهمـاً أن أعرف المكان. أنا من الاسكندرية إذا كنت نسيت ولا أعرف القاهرة جيداً.

سكت قليلاً وقال بهدوء شديد:

ـ لكن ما أكلمك عنه ليس بالقاهرة، إنه بالجيزة.

انطلقت اضحك من جديد وابتسم هو وقال:

ـ ما رأيـــك؟

ـ في اي شـــيء؟

ـ أفسخ الخطوبة أم لا؟

فكرت قليلاً. قررت أن آخذ الأمر جاداً حتى لو كان هو يهزل.

قلت:

ـ امتنع عن إرسال نقود لخطيبتك وانتظر. ستعرف ما إذا كانت تحبك أم لا.

سكت قليلاً ثم قال:

- إذا كانت تحبني سأحزن جداً على قطعي للنقود، وإذا كانت تحب غيري ستتركني هي، وليس من المعقول أن ينتظر الرجل حتى تتركه امرأة.

وجدت الموقف محيراً حقاً. قلت:

- إذن سافر وتحرّ الأمر بنفسك.

- انت تعقّد المسألة. أنا لا أستطيع السفر. سأفعل كالباكستانيين وامضي اجازتي السنوية في العمل. أنا محتاج لكل مليم.

سكتنا وفكرت في هذا المحتاج لكل مليم كيف يرسل كل مرتبه تقريباً. وقال كأنه يحدث نفسه:

- المشكلة اني احبها بنت اللئيمة. إنها تقرأ المجلات والصحف.

وظللت أتأمله وقد شرد عني بذهنه للحظات ثم قال

- هل تنصح لي أن أسأل عابد أيضاً؟

قلت يائساً من الأمر كله:

- لا أحد يستطيع أن يفيدك. أنا لا أفهم ماذا تقصد بالضبط الرأي الصحيح أن توفر ما ترسله لنفسك حتى إذا عدت إلى مصر تحصل على شقة تتزوج فيها. هل ستتزوج بدون شقة؟

لكنه عاد يشرد بذهنه. لم يبدُ انه استوعب كلامي. ثم قام وهو يقول:

- الأفضل أن أحج ثم أفكر بعد الحج.

وما كاد يتقدم خطوة نحو الباب حتى التفت إليّ وقال:

- هل صحيح ان الاسلام يبيح للإنسان أن يحج لغيره؟ لقد سمعت شيئاً كهذا في التليفزيون.

تذكرت حديث وجيه وأجبت:

- الاسلام يبيح ذلك بشرط ان يحج الشخص لنفسه أولاً.

بانت الدهشة على وجهه وفي عينيه وقال:

- طيب إذا كانت امي مريضة وشبه مشلولة، وأنا لا اضمن أن تعيش عاماً آخر. وأريد أن احج لها هذا العام، هل يرفض الله الحجة لأني لم أحج لنفسي؟ لا اظن..

وخرج وقلبي ينتفض خوفاً من ان يسألني ما إذا كنت سأحج أم لا. لم يسأل.. ولا سألني أحد آخر لم يتحدث أحد معي بقية اليوم.

٧

ـ لماذا تسرع هكذا؟

ـ ولماذا أبطيء؟

تساءلت وأجاب الدكتور وجيه. دعاني لقضاء سهرة معه في المستشفى. قال: «غداً الجمعة وتستطيع أن تسهر معي حتى الصباح».

لم أتردد. قلت: هذه فرصة أخرى للخروج من رتابة الإيقاع الثابت لحياتنا. خرجت مرة في صحبة سعيد إلى السوق، والليلة سأقضيها في صحبة وجيه في المستشفى.

وجيه يتحدث كثيراً عن مشقة العمل هذه الأيام، الزحام الشديد في المستشفى بسبب موسم الحج، مفاجآت الحجاج وحوادث الطريق، أول أمس حدثنا عن دهشة الحجاج الذين يجدون أنه من اللازم فحصهم للتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية. من الكوليرا بالذات. الكوليرا هي مجيء الموسم. يكون على الحجاج أن يكشفوا مؤخراتهم لخدم المستشفى. الرجال للرجال والنساء للنساء. يقوم الخدم بكشط الشرج بملاعق طبية، يتم بسرعة تحليل ما علق بها. أول أمس رفض ركاب أوتوبيس كامل أن يكشفوا مؤخراتهم.

بصعوبة شديدة انصاع الرجال للأمر. لكن حين جاء دور النساء احتج الجميع. الرجال والنساء معاً. لم يعد ممكناً الحوار معهم ارتفعت صيحات احتجاجهم، وتاهت معاني الكلمات في اللهجة الشامية الغاضبة. الركاب جميعاً سوريون، ويحجون لأول مرة عن طريق البر. لقد عادوا بعد أن اقسموا ان لا يأتوا للحج ابداً بعد ذلك. إن اجراءات الحجر الصحي معروفة. لكن دائماً يفاجأ بها الحجاج. وسألته:

ـ ألا يتم ذلك في بلادهم؟

ـ حتى لو تم في بلادهم لا نأخذ به. لا بد من الفحص هنا.

ـ ألا توجد طريقة أخرى للكشف عن الكوليرا غير الكشط بالملاعق؟

توجد طبعاً. تحليل البراز. لكن أين الوقت الكافي ليحضر لك كل هؤلاء الحجاج عينات من برازهم؟ ليس أمامنا إلا وضعهم في صفوف ثم ينحنون كاشفين مؤخراتهم، ويمر الخدم بالملاعق لكشطها.

ـ انها مسألة مربكة حقاً.

قلت وضحكت. وربما بسبب هذه الطرائف ذهبت معه اليوم.

* * * * *

في الطريق نبّهني وجيه إلى أن المستشفى صغير. مجرد مبنى من دورين به أربعة اقسام صغيرة. الجراحة والباطنة والولادة والأطفال، ولا يزيد القسم على غرفتين بكل غرفة اربعة اسرة. قال إنهم يبنون الآن مستشفى ضخماً. لكن العمل لن ينتهي فيه قبل

ثلاث سنوات، وقال إن هناك مستشفى عسكرياً كبيراً بالقاعدة العسكرية اسمه «ويتكر»، مستشفى أميكي لا يعمل فيه أحد من العرب، وفيه يصل راتب الممرضة الاجنبية أضعاف راتب الطبيب المصري في اي مستشفى آخر.

وصلنا الى المستشفى، ولاحظت حركة لا تنقطع في الردهة الواسعة التي تشغل مساحة كبيرة من الدور الأرضي. رجال ونساء داخلون خارجون في صمت وسرعة. لم يكن الجو حاراً. بدأ الصيف يفسح الطريق بطيئاً للشتاء. دخلنا في نوفمبر. انتهينا من ذي القعدة ولم يبق على الحج غير أيام ثلاثة.

صعدنا إلى الدور الثاني، وإلى حجرة ليست نظيفة كما ينبغي، أخذني وجيه. جلس هو خلف مكتب خشبي صغير وقديم، وجلست أنا إلى جانب المكتب. بالغرفة مقعد آخر ودولاب زجاجي به بعض معدات طبية بيضاء منطفئة اللمعان. لاحظت أن دهان الجدران متساقط في أكثر من موضع، ورأيت خلف البارافان البلاستيك طرَف منضدة الكشف فوقه ملاءة حائل بياضها.

دخلتْ بمجرد جلوسنا ممرضة قدمها لي باسم عايدة. ابتسمت ابتسامة خافتة لم تُخفِ مظاهر الجدية على وجهها. بدت متحفزة لا أدري لماذا. في الحقيقة راعني اتساع عينيها السوداوين وائتلاق بياضهما في غبشة ضوء الحجرة. قلت لنفسي: هذا أول وجه نسائي أراه هنا. وقالت هي لوجيه إن جميع الحالات على ما يرام. تساءل:

ـ والحجاج؟

ـ لم تصلنا وفود جديدة الليلة. يقولون إن النهار كان مليئاً بالعمل.

- هذا من حسن حظنا، مع أني كنت أريد للأستاذ اسماعيل أن يتفرج.

نظرت إليّ مبتسمة وقالت:

- وماذا سيرى أكثر مما هو في مصر. ألم تدخل مستشفى في مصر؟

سألتني، وأجبت على الفور:

- دخلت مرة لإجراء عملية فتق.

لا أعرف لماذا أجبت بهذه السرعة. لقد رأيتها تكتم ضحكتها وتساءل وجيه:

- ما لك يا سستر. هل قال الرجل شيئاً مضحكاً؟

- أبداً. لكن يبدو صغيراً على الفتق.

وبدت مرتبكة جداً، واحمر وجهها، وأطرقت أنا خجلاً، وسمعتها تقول:

- آسفة. آسفة جداً.

وانصرفت بسرعة. نظر وجيه إليّ، ومطَّ شفتيه، وقال:

- الواحدة في مصر لا قيمة لها. هنا أحياناً يتجاوز راتبها راتب الطبيب المتبدىء.

قلت لنفسي: ها هو يعود ويتحدث عن القيمة المادية للأشياء، ودخل من الباب رجل متوسط العمر، ووقف صامتاً، وخلفه شرطي صغير الحجم. وقف وجيه بسرعة ودار حول المكتب ليصافح الرجل بحفاوة.

- أهلاً يا دكتور. أهلاً. تفضل.

وقدم له المقعد الخالي، لكن الشرطي قال في غضب:

- لا تجلس.. هيا انتبه.

وقف وجيه صامتاً، وتأملت أنا الرجل الذي منعه الشرطي من الجلوس. له لحية طليقة لا يعتني بها، وفي عينيه انكسار، وملابسه متسخة غير مهندمة. عاد وجيه إلى المكتب بسرعة، وأخرج من أحد أدراجه مظروفاً مغلقاً قدّمه له. أخذه الرجل بيد مرتعشة ولم يتكلم. استدار ينصرف، ولم يتردد الشرطي في إمساكه من ذراعه والإسراع به. رأيتهما في الطرقة الطويلة الممتدة أمام الباب. الشرطي يسرع والرجل يسرع جواره يكاد يتعثر. بان لي الرجل من بعيد أقصر مما رأيته داخل الغرفة. وجلس وجيه محزوناً، وضع رأسه بين كفيه، وأطرق ناظراً إلى المكتب. ظهر بالباب رجل آخر، أسود، يرتدي جلباباً وغترة قديمة وعقالاً ممزقاً، وقال:

- أرسلتني الست عايدة يا دكتور.

قال وجيه دون أن يرفع رأسه:

- سوِّ لنا شاياً يا نعمان. معنا ضيف عزيز.

قلت لنفسي: هذا إذن الخادم أرسلته عايدة لتخفف من أثر ما حدث منها، ولم أنس الرجل الأول الذي دخل مع الشرطي، المصري الذي يرتدي بدلة قديمة وخاطبه وجيه «بالدكتور».

قلـت:

- ما الحكاية بالضبط؟ من الذي دخل مع الشرطي؟

تنهد وجيه وقال:

- إنها قصة غريبة. هذا طبيب مصري له هنا خمس سنوات. منذ عام ارتكب خطأً فظيعاً. حضر إليه شاب سعودي ومعه فتاة قال إنها زوجته، وطلب إليه أن يقوم بإجراء عملية إجهاض لها. لا تعرف

كيف اخطأ الدكتور الغريب. اسمه هكذا «سيد علي الغريب». كان عليه ان يحتاط. الإجهاض ممنوع أصلاً إلا لدواعٍ طبية. إن أي طبيب يمكن أن يخالف ضميره ويختلق الأسباب الطبية للاجهاض لكن هذا لا يحدث. دكتور سيد الغريب فعلها. كتب تقريراً بضرورة الاجهاض. لماذا فعل ذلك؟ لا أحد يعرف. لا أظن أن الشاب السعودي أغراه بالمال. دكتور سيد قديم هنا ولابد أنه كسب كثيراً كان يمكن للمسألة ان تمر لكن الفتاة ماتت أثناء العملية، والأبشع أن الشاب اختفى، وظهر انه ليس زوجها ولا يمت لها بصلة. منذ هذا اليوم تمّ تحديد اقامة الدكتور سيد الغريب. منع عنه راتبه حتى تفصل المحكمة في أمره. المحكمة لم تفصل حتى الآن. صادروا ما معه من نقود ووضعوه في بيت جميل جداً. تصور! البيت الوحيد الذي له حديقة بها نخيل واشجار ليمون. عام كامل مضى وهو على هذا الوضع. كل شهر يسمحون له بالخروج مرة مع الشرطي ليأتي إلى المستشفى يأخذ ما نساعده به. إننا نجمع له كل شهر بعض النقود. نشترك نحن الاطباء المصريين والمرضات في ذلك. أهله في مصر لا يرسلون له أي شيء منذ وقت الحادثة. ولو لم نساعده سيموت من الجوع.

وسكت لحظات ثم قام فجأة وهو يقول:

ـ لم أكن أحب لك أن ترى ذلك. هذا ما حدث على اي حال سأقوم بجولة سريعة وإذا جاء نعمان بالشاي فلا تنتظرني.

* * * * *

لم يكن من السهل نسيان شخص مثل الدكتور سيد علي

الغريب. لقد نظر الي نظرة طويلة في اللحظات التي انشغل فيها وجيه بإخراج المظروف من المكتب كأنه كان يودّ أن لا أراه.

انا في النهاية مصري مثله لم يكن يحب أن أرى مأساته. لا بد انه يعرف أن مأساته شائعة بين الجميع، ولكن لا بد أن يأمل أن لا تتسع الدائرة. وتاقت نفسي إلى رؤيته مرة أخرى.. لا أعرف لماذا. وأحسست بضيق شديد، اكتشفت ان نعمان قد جاء ووضع كوبَيْ الشاي على المكتب، وانهما صارتا باردتين لا يمكن شرب أي منهما، وعاد وجيه الى الغرفة وخلفه رجلان من أهل البلدة. قال بمجرد دخوله:

ـ ما لك اكتأبت هكذا؟ تفكر في الدكتور الغريب؟ لقد تعوّدنا وتعوّد.

لم اردّ. والتفت هو إلى الرجلين اللذين كان احدهما متوسط العمر بينما كان الثاني مسناً، محني الظهر، وخاطب متوسط العمر:

ـ ما للشيبة؟

راعني اتساخ جلبابيهما وتمزقهما في أكثر من موضع. لم يكن على رأس متوسط العمر غترة ولا عقال، وكانت على رأس المسن غترة قديمة جداً عَقَدَها فوق رأسه بلا عقال، وكان يرتدي سترة قديمة سوداء فوق الجلباب.

قال متوسط العمر:

ـ يشتكي من المعدة يا دكتور.

أشار وجيه إلى منضدة الكشف خلف البارافان، فاختفى الرجلان، وتبعهما وجيه الذي رحت أسمعه يقول «هنا الأذى»

وأسمع صوت الرجل المسن واهناً غير واضح الكلمات، مجرد غمغمة غير مفهومة، وأسمع وجيه «هنا يا رجّال؟» ويتردد الصوت الواهن كأنه مواء معذب. ثم ظهر وجيه، وجلس الى المكتب، وظهر بعده متوسط العمر. قال وجيه:

ـ سأكتب له على حبوب تقويه وتشفيه.

ـ اكتب له على إبر. الله يرضى عليك. الإبر تدخل في الدم وتغذيه.

نظر اليّ وجيه كأنه يُشهدني على هذا التدخل الغريب في عمله وظَهر المسن محنياً لا يكاد يقف فأسنده متوسط العمر على ذراعه وقال وجيه:

ـ الشيبة لا يتحمل الإبر.

ـ اكتبها ـ الله يرضى عليك يا دكتور.

ردّ متوسط العمر، فسكت وجيه، وفتح درجاً من المكتب، وأخرج منه بعض عيدان خشبية ناولها له، وقال:

ـ لا إبر ولا حبوب. خذ هذه.. يغليها ويشرب ماءها في الصباح كل يوم.

اختطفها متوسط العمر وهو يقول: «هذه أفضل. الله يرضى عليك يا مصري»، واستدار بالمسن، وانصرفا على مهل. قلت:

ـ يبدو أنه لا زالت للطب العربي سطوته.

سكت وجيه قليلاً وقال:

ـ هذه حالات ميئوس منها.

تساءلت:

ـ هل مسموح باستخدام الأعشاب هنا؟

اجـاب:

ـ هذه مجرد عيدان قديمة وجدتها في الطريق. هم يقتنعون بطريقتي وأنا أوفر مال الدولة.

* * * * *

عاد نعمان فطلب إليه وجيه أن يعد لنا كوبين جديدين من الشاي. وأنا رحت أنظر إلى ساعتي، فوجدتها تزحف الى منتصف الليل، وراودتني رغبة في الانصراف. اكتشفتُ اليوم في وجيه جانباً لم أكن أحب أن أعرفه، ثم انني لم أر شيئاً طريفاً. رأيت سجيناً مصرياً ورجلين من اهل البلدة أشد فقراً من فقراء بلادنا. في هذه البلاد ألغاز لا أفهمها. ولم يكن من السهل الانصراف، فوجيه يتحدث ولا يكف عن الكلام.

قال إن ما يحيّره هنا ليس كثرة الحوادث، فهذا شيء وارد في كل البلاد العربية حيث يقودون السيارات برعونة فائقة، لكن تحيّره الحوادث التي لا تنقطع عند بلدة «قليبة» الواقعة على الطريق المؤدي الى المدينة المنورة.

في كل ليلة يعمل فيها نوبتجياً للصباح، يتوقع حادثة أو اكثر عند قليبة، ويظل طول الليل يرهف أذنيه ليسمع صوت سيارة الاسعاف وهي قادمة الى المستشفى. الليلة يرجو أن لا ترد من قليبة أي حادثة. وجودي معه يقلل من حجم القلق الذي يشعر به دائماً حين يمضي الليل وحده هنا.. سألته:

ـ ألا يوجد مستشفى في قليبة؟

اجـاب:

ـ إنها قرية صغيرة. لاحظ اسمها الذي لا بد أخذته من انقلاب السيارات. بها مستوصف صغير يعمل بالنهار ولا يتحمل حالات الحوادث ـ وابتسم ـ لا شك أنك تتذكر الدكتور رأفت الذي زارنا منذ أسابيع ليودعنا قبل عودته.

ـ أذكره بالطبع.

ـ حين جاء هنا لأول مرة تم توزيعه على مستوصف قليبة. هناك لا يوجد مخبز ولا محل يبيع الخبز. استمر رأفت يعمل هناك سنة، وتعود كل اسبوع أن يأخذ ما يكفيه من خبز من هنا. لا تعرف كيف نَفِد الخبز دون أن يدري. كان الجو شتاءً بارداً زمهريراً. وهو مسكين مصاب بسكر لا يستطيع أن يتحمل الجوع. كان معه خمسون الف ريال. ظل طول الليل ينظر اليها ويتلوى. كان مستعداً أن يدفع الخمسين الف ريال لمن يعطيه رغيفاً واحداً. ومن سوء حظه انقطعت سيارة الاسعاف عن الذهاب ثلاثة أيام بعد ذلك. كاد يأكل نفسه. لقد اكتشف أنه يعضّ ذراعه بالفعل. وحين وصلت سيارة الاسعاف كان هو على مشارف الهلاك. ركبها وجاء الى هنا، ووقف أمام صاحب المخبز اللبناني يطلب أن يبيع له خبزاً بألف ريال. لقد صعق الرجل وظنه مجنوناً. لا أحد يشتري أبداً بهذا المبلغ، ولكن رأفت وقف يصرخ طالباً أن يبيع له الرجل بألف ريال خبزاً. باع له الرجل كل الخبز الموجود عنده، ووضعه رأفت في الاسعاف، لكنه في اليوم نفسه لم يعد إلى قليبة. صدر قرار بنقله إلى هنا. لقد وَزَّعَ الخبز علينا وصرنا نضحك.

لكني لم أضحك. ما زلت أشعر بالضيق والرغبة في الانصراف ودخلت عايدة الى الحجرة، فأحسست براحة خفية. كان خلفها رجل

من أهل البلدة. قالت لوجيه وهي تبتسم:

ـ عنده خرّاج.

كنا تجاوزنا منتصف الليل. وقال وجيه مستنكراً:

ـ وهل هذا وقت مناسب؟

قالت باسمة:

ـ لقد جاء. نحجزه حتى الصباح؟

لكن وجيه خاطب الرجل الصامت:

ـ وين الأذى؟

مد له الرجل يده اليمنى. خرّاج عجيب ركب على اصبعه السبابة قبل الظفر مباشرة. نظر وجيه إليّ والاستنكار لا يزال على وجهه وقال للرجل

ـ ضع يدك فوق «الماصة».

وضعها الرجل على المكتب. ورأيت وجه عايدة يمتقع وعيناها تكادان تقفزان. تريد أن تتكلم ولا تستطيع. كان وجيه يقترب بوجهه من يد الرجل، ويده تعبث في احد ادراج المكتب تخرج شيئاً، ووقف وجيه فجأة، وامسك بذراع الرجل من عند الرسغ بيده اليسرى، وبيده اليمنى التي كانت تعبث في الدرج طعن الرجل بمشرط في الخراج مباشرة فصرخ الرجل، وانفجر الدم والصديد فوق يده. وصرخ وجيه: (قطن يا سستر). وجرت عايدة إلى الدولاب تحضر قطناً. وانا وقفت كمن لدغه عقرب، وتباعدتُ إلى الحائط. خُيّل الي أن الدم والصديد سيندفعان الى وجهي. ورأيت الرجل يغيض الدم من وجهه، ويكاد يتهاوى، حتى أن عايدة ألقت بالقطن على المكتب، ووضعت بسرعة مقعداً خلفه تهاوى بالفعل فوقه غائباً عن

الوعي، ووجيه الذي ترك المشرط راح بيده اليمنى يضغط على الخراج بالقطن ولا يترك رسغ الرجل الذي أحكم القبض عليه، وعايدة تنظر إلى وجيه باستنكار شديد، وطلب إليها شاشاً ودهانا للجرح، ثم راح يضمده. ترك يد الرجل فسقط من فوق الكرسي على الارض.

ـ شيلـــوه..

قال وهو يخرج من خلف المكتب ويغادر الحجرة. كان نعمان قد جاء وانحنى يحمل الرجل ويمضي، ورأيت عايدة تمشي خلفه والدموع في عينيها.

عاد وجيه وأنا بعدُ واقف لم أجلس. لقد خرج يغسل يديه، وهو الآن يطهرهما بالسافلون ثم يجففهما بالقطن.

ـ لماذا لا تجلس؟

لم أكن قادراً على الجلوس. تذكرت أفلام الغابات والمكتشفين البيض الذين يمشون، في أيديهم سيوف قصيرة، يقطعون بها الاشجار الكثيفة التي تعوق الطريق. وعادت عايدة، ووقفت بالباب، وقالت لوجيه:

ـ كــده؟

ـ هل جرى شيء؟

ـ كان يمكن أن يدخل في صدمة.

ـ هذا عملي يا مستر..

ـ انت مفتري يا دكتور..

ـ مستر الزمي حدودك.

كانت عيناها لا تزالان نديتين بالدمع، وبان على وجهها غضب شديد، وانصرفت. تقدمت انا أجلس من جديد مدهوشاً من تخاذل وجيه أمام عايدة، وخيم علينا الصمت للحظات ثم قال:

ـ لا يمكن أن افتح الخراج بالبنج. يخافون العمليات. سوف يفيق ويشكرني وسترى.

ولم أكن مستعداً ان ارى. أسعدني الحظ وسمعنا صوت سيارة الاسعاف قادمة من الخارج، ودخلت عايدة بعد لحظات فزعةً تقول:

ـ حادث فظيع. ستة جرحى انقلبت سيارتهم في قليبة.

وجرت من امامنا واسرع وجيه خلفها. قمت بهدوء ونزلت إلى الدور الاول. وجدت حركة كبيرة من خدم المستشفى حول الاسعاف. حملوا الجرحى، واسرع خلفهم وجيه وعايدة وعدد آخر من الأطباء الشباب ومن الممرضات لم أرهم من قبل. وقفت وحدي في ردهة المستشفى، أنظر الى سائق الاسعاف الذي لم يغادر مكانه وتقدمت منه:

ـ أنا صديق الدكتور وجيه كنت معه هنا واريد العودة إلى البيت..

ابتسم لي، فرأيت سناً ذهبية تلمع في مقدمة فمه. قال:

ـ اصعـــد.

صعدت الى جواره، وادار محرك الاسعاف. شاب صغير من أهل البلدة، نظيف الثياب، لم يتكلم الا في منتصف الطريق. قال:

ـ الدوران الذي تقع عنده الحوادث في قليبة يستطيع اي سائق

ان يقطعه بسهولة، لماذا إذن تحدث الحوادث؟ سِحْر هذا والله العظيم..

لم ارد ولم يعد إلى الكلام ارشدته فقط الى بيتي.

* * * * *

٨

لماذا أنا هنا؟

سؤال صعب يا واضحة. اصعب منه ان اراك وجهاً لوجه.. وكأني كنت أعرف. من يوم رأيتك تحت الشمس ووسط الضوء الأبيض وتاقت نفسي أن أرى جسدك يختلج وانا أعرف أني سأقابلك.. سِحرٌ كالذي يقلب السيارات في قليبة كما قال السائق ذو السنة المذهبة. لكن هل انا مُيَسَّرلك؟ لا اظن أن احداً منا ميسر للآخر. لماذا إذن تضعك الاقدار في طريقي؟ ألانها بلدة صغيرة؟ لو كانت القاهرة ما تغير شيء. أنت الثانية التي رأيت وجهها.. التي كلمتها. بالامس فقط رأيت أول وجه نسائي. رأيت عابدة. اليوم رأيتك. ما الذي جعلني اذهب لأعطيك الدرس؟ كنت نسيت موعدي، ومضى على الاسبوع أسبوع آخر. ليتني ما أخذت طاقم أقلام الشيفرز رأيته فتذكرت أنني نسيت. لم أكن نسيت. سعيد ذكرني أكثر من مرة. إنك لا تعرفينه. أخوك يعرفه. وفي كل مرة قلت له اني اذكر الموعد، ويراني لا اذهب، وأقول سوف يفهم أني لا أريد ويكف عني، ولم يكف ولم آت. رأيت هدية أخيك فأحاطتني بشعور بالذنب وجئتك خائفاً.

اعرف انه لا أحد رأى جسدك يختلج غيري. انا والشمس. لا بد

أن الشمس رأته. هي التي كانت تسكب أشعتها على الكون ببراءة اللبن الحليب. سأرى جسدك الآن أمامي. هل يختلج أم يختلج جسدي أنا هذه المرة؟

*****

استقبلني خالد بفرح طفولي غامر. قادني إلى غرفة واسعة مفروشة بالبُسُط الحمراء الوثيرة، وعلى جوانبها حشايا صغيرة خضراء. رأيت مكتباً في ركن بعيد وحوله مقعدان. مكتباً صغيراً يبدو نشازاً في غرفة عربية التصميم، فقلت لا بد انه أُعِدَّ للدرس على عجل. لم يسألني خالد عن سبب تأخري عن الموعد الذي ضربته له. خالد يبدو شخصاً شديد النبل حقاً. شغل الوقت بأن راح يحدثني عن نفسه. قال إنه متخرج من كلية التجارة في جدة، وانه كان يتمنى لو التحق بالجامعة المصرية في القاهرة، وقال إن جده لأمه مصري جاء هنا في الثلاثينات ليحج ولم يعد، وإنه لا يزال يعيش، وان العائلة كلها تحب مصر والمصريين، وقال إنه رفض استكمال دراسته في اميركا، ذهب عاماً وقطع الدراسة وعاد. لم يتخلص بعد من شعوره بأنه العربي الذي ما كان عليه هكذا فجأة أن ينتقل من الخيمة الى حوائط الاسمنت العالية. وضحك. كيف تعيش في بلاد لا تسمع فيها حكايات أجدادك؟ وغضب، وقال إن أفضل وقت هو الذي يمضيه في الخيمة المنصوبة في باحة البيت الخلفية التي يعيش فيها جَدّاه، جده لأمه وجده لأبيه. جده لأبيه حارب مع الملك عبد العزيز في العشرينات ولا يزال لا يتكلم الا عن ابن سعود وأفعاله الاسطورية. هذا اذا تحدث. وضحك خالد كثيراً وهو يقول إن جده لأبيه لم يكف يوماً عن تلاوة القصة الغريبة التي

راجت عن ابن سعود، والتي قيل فيها انه جُرح في بطنه جرحاً كبيراً وشاع بين الجنود قرب وفاته فكادت قواته تندحر حتى فاجأ الجميع بدخوله على زوجة جديدة. وقال خالد إن جده كان يهلل فرحاً وهو يصور جنون الجنود بعد ذلك بقائدهم الفريد الذي لا يؤثر فيه سيف ولا رصاص بل يتزوج وبطنه مفتوح. لكن الجد غاضب الآن لا يتكلم منذ زمن طويل. وسكت خالد لحظات طويلة ثم قال «أختي هي واضحة بنت سليمان بن سبيل». قلت: «أعرف». ببساطة تحدثت. قال: «اكتفوا بأن لا تذهب إلى المدرسة وتؤدي الامتحانات من الخارج» وسكتنا طويلاً حتى قال: «أنت يا استاذ اسماعيل مصري ولدينا من مصر دم يجري من عروقنا».

*****

دخلت واضحة يسبقها عطر غامض. صافحتني بيد صغيرة ارتعشت في يدي. لماذا؟ وقدم خالد كلاً منا للآخر. ما كنا نحتاج الى تقديم. هكذا فكرت. اخال أني كما رأيتها في الضوء الابيض الرائق رأتني رغم اني لم أر وجهها، ولا كان يمكن ان يُرى بوضوح من خلف نقاب ثقيل. وخرج خالد وتركنا معاً وأنا في غاية الدهشة. أنا وفتاة وحدنا في الغرفة الواسعة الرطبة في البيت الكبير الصامت وسط الصحراء المترامية في البلاد شاسعة الأرجاء.

ولم أعد مهيأً للدرس . وأحسست أن واضحة ادركت ذلك. لم أعد منتظم الذهن. وددت الانتهاء بسرعة، ووددت الفرار. اكتفيت بسماعها تتحدث عن الصعوبات التي تقابلها في اللغة الانكليزية، ووعدتها بتيسير كل شيء.

قلت فجأة:

- اكشفي وجهك.

كانت لحظة أحسست فيها بضرورة ان ارى عينيها تستقبلان كلامي. ما دمت لا أرى وجهها جيداً فلا يمكن ان ترى وجهي، فكيف اذن يعرف احدنا الآخر وكيف يتذكره؟ وكدت اعتذر لولا أنها تعجلت في تلبية الطلب.

فم صغير وأسنان ندية وعينان عسليتان ناعستان وأهداب طويلة وبشرة خمرية مفاجئة، وقوس الشعر الأسود فوق الجبين وتحت رباط الرأس الاخضر ينبىء بشعر غزير خلفه.

- ما الذي يضايقك في اللغة غير القواعد؟
- القصة طويلة.
- لكنها ممتعة.
- اقرأها معي.

- سنقرأها ونعيد ترتيب كل شيء، ونضحك كثيراً مما سيفعله الخادم باسبار توت وهو يطوف العالم مع سيده المقامر.

وصرت فجأة أشم أنفاسها الزكية، وعطرها الغامض كثُف وانتشر، وطال الدرس أكثر من ساعتين، وكلما نظرت اليها أرخت أهدابها، وكلما ناولتني الكتاب تلامست انامانا فارتعشت أصابعها. لا بد انها لم تكن تنصت في طول الدرس. لقد ابعدت الكتاب جانباً، وسألتني:

- مصر جميلة يا أستاذ؟
- جداً

ونظرتُ اليها وطالت نظرتها إلي.

- اذن لماذا انت هنا؟

* * * * *

أربكتني يا واضحة ولم اجد كلاماً اقوله. انا هنا لأن هناك من يسعدهم ذلك. هُراء. أنا هنا لأن المصريين جميعاً هنا. هُراء. لست أنا آخرهم ولا جدّك المصري اولهم. هُراء. انا لم أكن أحس الا بعطرك الغامض فلماذا جعلتني أنهي الدرس الذي طال وكنت لا أريد ان انهيه؟ رغم ذلك صرت ملهوفاً للقائك فجئتك في اليوم التالي. وجئتني بلا رباط رأس. شعرك الأسود الغزير منسدل على ظهرك كبحر عميق بليل مليء بالأسرار. «عطر جميل» قلت ولم أكن أجاملك فإذا بك تقدمين لي زجاجة عطر.

- لي أنا؟
- لخطيبتك في مصر

ولم أستطع أن أقول إني غير خاطب ولا متزوج. كيف لم تدركي ذلك وحدك ويداي أمامك طول الوقت؟ انك صغيرة تلعبين معي لعبة التلميذة والاستاذ. لكن سؤالك ليس صغيراً، ولا شيء ينقذني الآن من شعرك الغزير المغري بالسباحة. لكن هل أستطيع؟

- هل ستأتي في العيد؟
- لا.

قلت لأني تعودت ان تكون الإجازات في الاعياد. ويا لخيبتي!

- هل ستحج؟
- لا.

إذن ستمضي العيد وحدك.

ولم استطع التراجع. وحاصرني الضيق.. نسيت أنني رأيت في يومين وجهين جميلين. وجه تندّت فيه العينان بالدمع، ووجه رفع النقاب.

٩

لم توقظني امي اليوم على صوت الراديو والتهليل والتكبير وأصوات الاولاد في الشارع ولا أغنيات الصباح المبتهجة بالعيد. ليس عليّ اليوم استقبال اختي المتزوجة وزوجها وولديها، ولا أختي المطلقة وبنتيها. ولن تطلب أختي المشاكسة الطالبة في الجامعة ان يفسحوا لها مكاناً لتجلس جواري، ولن يبدو على أخي الطالب بالجامعة أيضاً شيء من القلق لكبر حجمه ومد يده لي يأخذ ما أعطيه له من نقود.

أي شخص مكاني الآن قد يبكي من بيت كبير واسع عليه أن يتناول فيه إفطاره وحيداً في يوم عيد، لكنني رفعت صوت الراديو إلى آخره وابتسمت.

لم اذهب للصلاة. منذ سنوات لا أصلي العيد. قمت مبكراً حقاً، ولكني شُغلت باعداد الافطار. لحم مسلوق وشوربة بالهيل وفتة ولا أحد يجلس حولي.

شجار مفاجيء لا نعرف كيف بدأ. لقد عاد أبي في الحال من الصلاة وأوشكت امي أن تفرغ من اعداد الفطور الساخن ولا نعرف سبب الشجار.

ارتفعت الأصوات أيضاً في الشقق المجاورة، والتي فوقنا، والتي تحتنا، واختلطت أصوات الرجال بأصوات النساء بنحيب الأطفال بخوفنا، لكن أبي يتراجع: «حقك عليّ يا أم اسماعيل.. كل سنة وأنت طيبة». وسكت الجميع. حط على الدنيا صمت وارتفعت الضحكات في كل الشقق وفُتحت الأبواب للمرح. لماذا كان يحدث ذلك حقاً، لا أعرف حتى الآن. لماذا انتهى؟ ربما لأن الأطفال في كل الشقق كبروا مثلي، وربما لأن الآباء ماتوا مثل أبي. والأمهات مرضن مثل أمي كثيراً، أو متن.. يا الله! هل يمكن أن تموت أمي وأنا هنا؟ ورحت آكل بشهية عظيمة غير مبال بما يقفز إلى ذهني من ذكريات، أو أفكار خبيثة.

* * * * *

خرجت الى الشارع. لا حاجة بي للسيارة. سأمشي وأرى هل البلد خالية حقاً. لا أستطيع أن أمضي العيد وحدي في البيت.

كل الأغنياء يسافرون في العيد الى الشام وأوروبا.

كل الفقراء يسافرون إلى مصر.

النساء والأطفال لا يتركون التليفزيون والفيديو.

الغرباء يحجون.

الغرباء من غير المسلمين لا يغادرون بيوتهم.

يا إلهي! هل يكون هذا حقيقياً؟

ومشيت...

أرض مترية بين بيوت منخفضة أقطعها لأصل إلى الشارع العام. لا أرى غير بعض عنزات صغيرة تتقافز فوق السيارات المركونة أمام أبواب مغلقة لبيوت مغلقة النوافذ أيضاً. وأمشي..

باب ينفتح فجأة، يخرج منه رجل وامرأة مغطاة بالسواد، وأطفال يركبون سيارة فارهة وأسمع ضجة كلامهم، لا أفهم منها شيئاً، وتتحرك السيارة على مهل وتختفي وأمشي...

أدخل الشارع العام. لا سوق اليوم. أبواب المحلات كلها موصدة تذكرني بأبواب محلات شارع الكس بالأسكندرية بالليل. أرض الشارع مليئة بالأوراق المهملة والكراتين الفارغة تشغل الرصيفين، وعلب «البارد» الفارغة في كل مكان، والجو صحو، والفضاء بديع، وأقرأ اللافتات. هنا محل ساعات، وهنا عطور، وهنا مكتبة، وهنا بقالة، وهنا جواهرجي، وهنا شرائط كاسيت وهنا أدوات كهربائية، وهنا بنك الراجحي الذي رأيت فيه منصور غاضباً وأمامه بنك الرياض وخلفه سوق الخضار المغلق اليوم أيضاً. الشارع ليس طويلاً كما رأيته من قبل. وها أنذا أحصي عواميد النور، فأجدها حوالي مائة عن ناحية واحدة. اذن هي مائتان على الناحيتين ولا داعي لإحصاء الجانب الآخر. أكاد أنتهي من الشارع، وتقابلني خرابات ومساحات غير مبنية، وبيوت مهدمة جدرانها، وبيوت يعاد بناؤها. وأرى قططاً ضخمة كأنها نمور أو شياه تتجمع في الخرابات حول أشياء لا أراها. لا بد أنها بقايا طعام. الشمس تعلو في السماء والفضاء يتسع. ما أجمل الفضاء حين تكتشف وجوده وأنت بين الزحام! ما أتعسه حين لا يكون معك إلا هو في بلد بعيد في يوم عيد! ما أتعسني وفضائي! هنا لا يقتلون القطط. لقد باركها النبي. هكذا يقولون. لكن هيهات للكلاب أن تنجو من أحد. يا إلهي: ما هذا الكلب الأبيض السارح في الشارع ضخماً مثل حمار شارد؟ إنه حتى لا يلتفت حوله. في حجم الكلب الذي رأيته من قبل في الصحراء. هذا كلب آخر وربما هو الشارد

في الرمال أسرّ اليه احد بأن اليوم تكون البلدة صحراء.. إنه يقف وينظر إليّ اداعبه بيدي من بعيد. اشير الى القطط حتى يهاجمها لكنه يلتفت ويبتعد على مهل وامشي حتى أصل الجامع مع آخر الشارع فأجده مفتوحاً وخالياً وأمامه محل المظللات مغلق.

* * * * *

هل أجوس في طرقات أم درمان؟ لا نافذة مفتوحة ولا أبواب. منازل واطئة من قرميد أبيض ضخم وسيارات قليلة مبعثرة على أرض مترية لشوارع ضيقة واكوام قمامة لا قطط حولها ولا كلاب ورائحة مكتومة في الفضاء والشمس تمشي معي. أين ذهب أهل المغنى والطرب والحظ ولا افراح اليوم ولا زينات. هيك هيك هيك. ضحكة داعرة ممتدة كسكين بارقة تعكس اشعة الشمس وضحكة رجل عريضة قوية بعدها. حقيقة أم خيال؟ لا ادري. لكنني سمعت ورايت رجلاً يمرق جارياً عبر الشارع الذي أمشي فيه الهوينا ويختفي في زقاق، ويمرق بعده رجل آخر تكاد عمته تنزلق من فوق رأسه، إذ وضع يده فوقها واختفى بدوره ولا أحد يظهر بعد ذلك ولا قط يمشي جواري ولا كلب خلفي. يا الله! أتقدم أم أتراجع؟ لا خوف من الضلال فالمنطقة كلها تحتويها العين، والبلدة كلها يحتويها النظر إذا صعدتُ فوق مقعد فقط. فلأمشِ.

ميدان واسع في مدينة مهدمة. وكل البيوت حول الميدان تشتعل فيها حرائق وينطلق من نوافذها دخان وجندي يصحو من بين القتلى يتلفت حوله في فزع مصوباً بندقيته الى لاشيء أو اي شيء يمكن أن يظهر بغتة. يمشي الجندي بين دخان الحرائق المشتعلة في السيارات والدبابات التي فوقها جثث محنية الهامات، ويدور حول

نفسه كالحلزون متوقعاً في كل لحظة عدواً. يرى امرأة مضطربة الوجه امام باب بيت تحترق نوافذه. الشمس تسقط على وجهها الأبيض الملفوف بشال أسود. فيسطع الوجه مبهراً جذاباً ويتحدد الجسد المشوق في الثوب الأسود أيضاً وتنزل الكاميرا إلى حذائها الأسود وربلتي ساقيها اللامعتين، وهي تعدو مسرعة تتّابع دقات حذائها عبر الميدان ذي البلاط الأسود المربع الكبير وتدخل في زقاق ضيق قذر.

شُرفات نوافذ البيوت في الزقاق امامها غسيل معلّق في حبال مقطوعة. الجندي يتردد لحظة قبل أن يعدو متابعاً المرأة. يدخل الزقاق الضيق فيراها تختفي في أحد الأبواب فيهرول. أرى ربلتي ساقيها وحذاءها الأسود وهي تصعد السلم الحديدي بإيقاع سريع، حتى إذا ما بلغت السطح رايت الجندي في بئر السلم يتطلع إلى أعلى فيرى قدميها ويصعد مسرعاً. تقطع السطح في سرعة بين بط ودجاج يقفز فزعاً ويصرخ وتدخل من باب غرفة ويكون هو على السطح واقفاً يرى الباب وهو ينغلق، فيتقدم ببطء ويدفع الباب ويقفان وجهاً لوجه. تشهق خائفة وتتراجع ويدها على فمها وهو ينظر اليها بعينين نهمتين ووجه تحوطه لحية مغبرة ويتقدم تاركاً البندقية من يده تسقط على الأرض، وتصطدم هي في تراجعها بالسرير النحاسي ذي الأعمدة العالية خلفها والناموسية البيضاء الدانتيلا حول الأعمدة من أعلى ويقترب منها. تتقابل العيون في معنى غامض ويمد يده إلى عنقها وتترقرق عيناها بالدمع. يزيح الشعر عن جانب العنق فتميل برأسها على يده. بهدوء يمد يده الأخرى يزيح طوق جلبابها عن كتفها فيبرز ممتلئاً وردياً ويتسع طوق صدرها وترتعش شفتاها في نداء موعود وتسبل أهدابها ويصرخ

طائر فوق السطح وتمرق طائرة تلقي بقنبلة فوق المدينة فتندفع إلى أحضان الجندي المسكين المتعب، وفي جبهة القتال البعيدة تنطلق المدافع متتابعة وأرى الجندي بعد ذلك فوق السرير يدخن سيجارة عارياً نصفه الأعلى ويغطي نصفه الأسفل ملاءة بيضاء وهي نائمة فوق صدره عار ظهرها فوق الملاءة، وعلى كتفها الأيمن خال صغير وتعبث بأناملها في شعر صدره، وما زلت أجوس بين المنازل الصامتة لأم درمان. نوافذ موصدة وأبواب مغلقة ولا أحد يجري أمامي. أي سر في هذه المنطقة يكاد يميت أهل المغنى والطرب في يوم عيد؟ لا وجه أسود أو أبيض يلوح لي فهل أطرق الأبواب؟ يا الهي! إنني أسمع صوتاً يغني. صوتاً كأنه أنين قادم من كهف بعيد. وأتقدم ويزداد ارتفاع الصوت وعمقه وتتضح نبرات الأسى في ترجيعه. إنه صوت أنثى أكاد أرى دمعها يصاحبه عزف عود باك.

جعلت لعراف اليمامة حكمة
وعراف نجد إن هما شفياني

فما تركا لي رُقية يعرفانها
ولا سقية إلاّ وقد سقياني

فقالا شفاك الله والله مالنا
بما ضمنت منك الضلوع يدان

وساد صمت وأنا صرت أقف تحت النافذة وعاد الصوت ممزوجاً بنحيب يردد الغناء، وساد صمت ثم علا النحيب وحده فوجدت نفسي أمشي. ذهلت عن البيوت حولي حتى وجدت نفسي قد خرجت إلى الشارع الذي يفصل أم درمان والعزيزية معاً عن السليمانية بالمنطقة الغربية للبلدة حيث أسكن. أسرعت بالعودة إلى البيت وأنا

أشعر أن شيئاً لا أدركه كان معي وسقط مني.

* * * * *

استلقيت على السرير وضحكت حتى اهتز جسمي. منذ جئت هنا نادراً ما جلست في حجرتي على مقعد. اكتشفت ذلك الآن. صعب أن يكون بالحجرة سرير وتجلس على مقعد. قمت وأشعلت التليفزيون. ماذا أفعل؟ صورة للحُجاج في «منى». زحام هائل من اللون الأبيض. بشر وخيام. ابتسمت من فكرة أنني قد أرى أحداً ممن أعرفهم وسط الزحام. لا بد أنه قد أذّن للظهر لأن الصورة للحجاج يصلّون في الخلاء. سيرك لمدة ساعتين ونصف. الفتاة التي تلعب الاكروبات فوق الحصان لها ساقان طويلتان. كل فتيات السيرك لهن سيقان طويلة. ساعة مع الغناء الذي لم أنتبه اليه. فيلم أمريكي مثير لبيرت لانكستر وصوفيا لورين وآفا غاردنر عن قطار انتشر فيه الوباء. ضاع مني اسم الفيلم. بدأ ولا أدري. الممثلون أعرفهم جيداً. فقط ظننت آفا غاردنر اليزابيث تايلور. كبرت آفا غاردنر ولا يزال في وجهها شيء من توحشه الجميل القديم. أحس الآن بالهواء الراكد القديم في أزقة حينا «بالمتراس» بالاسكندرية وبرائحة سينمات الدرجة الثالثة حين كنا نجري بلا ملل خلف «الكونتيسة الحافية» أينما عُرض وأرى «كمال الفار» وهو يصرخ بنا. الكونتيسة الحافية في سينما «كونكورديا». الكونتيسة الحافية في سينما «كليوباترا». الكونتيسة الحافية في سينما «ليلي». في كل أحياء الاسكندرية البعيدة كان يتابع آفا جاردنر ويسوقنا أمامه نضحك. لماذا كنا نفعل ذلك حقاً؟ أخذ «السُّل» كمال من بيتنا في وقت مبكر ولم يحدث أن شاهدت «الكونتيسة الحافية» بعد ذلك

ولا رأيت شفتي آفا غاردنر المكتنزتين. ولا قوامها الذي يدعوك ان تحوطه إلا اليوم. لم يعد يدعوك لشيء.. مضت عشرون سنة على تلك الأيام..

ورحت أتقلب على بطني ثم ظهري. انتهى الفيلم وأطفأت التليفزيون وكان المساء. اتغدى الآن في موعد العشاء. ليس من السهل أن تأكل لحماً مرتين في يوم واحد لكنه عيد. ما بين الحجرة والمطبخ، في المسافة القصيرة للردهة المكشوفة أحسست بالبرد، هذه بشائر شتاء قاس. وعدت بصينية كبيرة عليها سلطانية شوربة وطبق من اللحم وآخر من الفتة. كل شيء ساخن وأرفع الصينية ليصل البخار الى وجهي حتى ادخل الغرفة. انني جائع بحق.

وسط الاكل ادركت ان السكون حولي أكثر مما ينبغي. سكون جاثم كأنه شخص أخرس وأعمى يجلس معك. أشعلت التليفزيون وقمت اغلق باب الحجرة الذي كان يضيء لي الظلام الكبير في الخارج. ولأن في حجرتي مصباحين كهربائيين أشعلت الثاني، أريد ضوءاً باهراً. انتهيت من الأكل. ورفعت صوت التليفزيون اكثر، ودخلت تحت الغطاء محدداً فوق السرير، ورحت أتابع حلقة جديدة من «الرجل الأخضر». رجل يعرف سر الرجل الأخضر فيحوّل نفسه إلى رجل أخضر آخر. رجل أخضر شديد الإخضرار. ويستخدم قوته في الشر فيكون على الرجل الأخضر الأول، الأصلي، العالم المسكين الذي أصابته خطأ كمية من الإشعاع وهو يُجري تجاربه، يكون عليه أن يهزم الرجل الشرير شديد الاخضرار. ويالها من معركة رهيبة بين تيتان ينتصر فيها الرجل الأخضر الأصلي الخيّر على القاتم الشرير. لكن المصباحين بدآ يهتزان. وأحسست

بطعم تراب ناعم في فمي. ثار العج في الخارج إذن ويتسلل الغبار من تحت باب الحجرة ومن شيش النافذة. ماذا أفعل؟ ليس عليّ إلا الانتظار. لا استطيع ان افتح باباً ولا شباكاً. لكن كيف يهتز المصباحان حقاً؟.. ورأيت زجاجة الكولونيا الموضوعة فوق التليفزيون بارزة أمام عيني. هنا يشربون الكولونيا، ويقفون بالليل سكارى تحت أعمدة النور. لم أكن مستعداً للخروج مرة أخرى. ثقل الطعام على جسمي، وشدني النوم من ساقيّ.

* * * * *

انتهى اليوم الأول بنهاره وليله. كان لا بد ان ينتهي. أعرف ذلك. وخرجت في ضحى اليوم التالي أمشي. اريد ان ارى البلدة وهي تعود الى الحياة شيئاً فشيئاً.

وجدت محلاً للبقالة قريباً من البيت فتَحَ أبوابه ولا أحد يشتري ولا أحد يقف فيه ليبيع. صاحبه يسكن في بيت خلف المحل. لا بد أنه سيخرج من بيته بعد قليل. أرجأت شرائي للسجائر حتى عودتي، ومشيت حتى وصلت الى المخبز اللبناني بأول العزيزية، ونظرت إلى وجه صاحبه الأحمر. ارجأت شرائي للخبز حتى عودتي ومشيت. حدْس باليقين بأنني لن ارى في البلدة أكثر مما رأيت لكني مشيت.. قلت ألعب مع نفسي. أمس جست في شوارع العزيزية وأم درمان. اليوم انحرف يسار الشارع العام في اتجاه الإمارة. لا فارق هنا بين حي وحي في شيء إلا الاسم. البيوت متشابهة. قصيرة بيضاء وصفراء لها بوابات حديدية، والعمارات منها لا ترتفع عن ثلاثة أدوار. لكن ماذا يمنع أن أمشي في مكان لم أمش فيه. يا إلهي! هذه الطريق تصل الى بيت واضحة القريب من الإمارة. لا

يمكن أن أقصد ذلك. لأمشِ كيفما اتفق. لأختلق لنفسي شيئاً أفكر فيه وأشرد عن الطريق، فإذا أخذتني قدماي لواضحة اطرق الباب وأسأل عن خالد اقابله لأقول له: «مبروك العيد» كما يقولون هنا، ولا بد أن واضحة ستأتي لتقول لي ذلك أيضاً. إذا لم تأخذني قدماي إلى واضحة أعود. فكرت في شيء اشغل فيه ذهني فلم أجد. ربما لأني فكرت في ذلك. لكن الحقيقة أذهلتني. فأنا اشعر برأسي خاوياً يصفر فيه الهواء كأنما نزعوا من تحت عظام الجمجمة كل شيء. ورحت أردد بصوت خفيض، جعلت لعراف اليمامة حكمة.. وسمعت صوت المرأة يأتي واهناً من بعيد يخالطه النشيج.

ـ لماذا تقف؟ فيم تنظر؟

سألني الشرطي الواقف امام الباب. ارتبكتُ. انني أقف بحق اتطلع الى البيت. بيت صغير له حديقة نخيل وشجر ليمون. وعلى بابه يقف جندي صغير السن يحمل بندقية، وفي شرفة صغيرة بالدور الأرضي يجلس الدكتور سيد الغريب بلحيته الطويلة المهوّشة ينظر إليّ بتركيز شديد. كلانا ينظر إلى الآخر منذ لحظات إذن.

ـ آسف. لا أقصد شيئاً..

قلت للجندي ومشيت. وجدت نفسي أسرع الخطى عائداً الى البيت. لم أشتر خبزاً ولا سجائر في عودتي. لديّ ما يكفي على أي حال.

*****

في الغرفة وجدت التليفزيون مشتعلاً. انا الذي أشعلته، ولما لم

أجد الإرسال قد بدأ تركته «يوش» وخرجت. ها هو يبث برنامجاً عن مباريات «تلي ماتش». غريب صوت هذا المذيع الذي يتابع المباريات الالمانية بلغة عربية فصحى. هذا شيء لم أتعوده من قبل. وكان عليّ أن آكل مما أكلت منه أمس. لم أتناول افطاري حتى الآن. لماذا خرجت اليوم حقاً؟ فقط لكي أرى البيت الموقوف فيه سيد الغريب كي اصطدم به في طريقي وأرى نظرته الي وكأنها لغيري. كالذي يتكلم ويتذكر في آن. ماذا حقاً يفعلون به ذلك؟ لماذا لا يحاكمونه وينهون المسألة؟ لا يمكن ان تتأخر اجراءات المحكمة كل هذا الوقت. هنا في المحكمة قاضٍ شيخ لا يحتاج الا الى شهود. لا محامي ولا نيابة ولا مرافعة ولا عريضة اتهام. لا بد أن مسألة الغريب طواها النسيان. لو أن أحداً ما، أي أحد، تولى لفت انتباه الإمارة لانتهت مسألة الغريب على أي نحو. لكن لا يفعل ذلك أحد حتى الآن. هل افعله أنا؟ وانشغلت باعداد الطعام. أكلت ونمت وصحوت أسمع صوت طرقات بالباب. سأفتح فأجد امرأة تطلب شربة ماء وتتهاوى ساقطة فأسندها فوق ذراعي واحملها الى غرفتي فلا تفيق من غشيتها إلا بالليل وبالليل لن تخرج وفي الصباح تكون قد ألفت البقاء معي. وهب هواء أرعش الباب الحديدي بالخارج وأخذت ادعك عيني وانتبه إلى الطرقات على الباب فقمت وغادرت الحجرة. ثم اندفع. ابتسمت ومشيت على مهل. لا يمكن أن تطرق الباب امرأة. وأمام الباب توقفت قليلاً. ماذا لو كان الطارق امرأة بحق؟ لن أسمح لها بالدخول. فتحت الباب فرأيته. رجل عجوز ممزق الثياب وعلى رأسه غترة قديمة وعقال حائل سواده ويمد لي يده. يا إلهي! شحاذ: هنا! في المملكة العربية السعودية! ويدق الأبواب أيضاً بإصرار! «يسهل لك» قلت. لم يتحرك. انه حافي

القدمين أيضاً. لم يتكلم. غمغم بما لا أفهمه. لحيته الطويلة هي التي تحركت صاعدة هابطة. وظل ماداً يده. عدت إلى الحجرة مسرعاً وأحضرت عشرة ريالات ناولته اياها فأخذها ومشى. في الردهة توقفت. ظلام واسع حولي. لكن القمر يقترب فوقي من الاكتمال ويلقي على الدنيا بقليل من البهاء. دخلنا في الليل ولا ادري والتليفزيون يذيع آذان المغرب. لم أتناول غدائي ولست بجائع. وجبة واحدة تكفي اليوم. ورحت أنصت لدعاء الشيخ بعد الآذان.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات في هذا الطريق جائياً أو ذاهباً، لقيه الله تعالى يوم القيامة ولم يحاسبه وأدخله الجنة. وقال: من حج هذا البيت أو اعتمر فلم يرفث ولم يفسق كان كما ولدته امه. وقال: من حج وعليه دين قضى الله دينه. وقال سعيد ابن المسيب: كنت جالساً عند القبر والمنبر فسمعتُ قائلاً ولم أر شخصاً: «اللهم إني اسألك عملاً باراً، ورزقاً داراً، وعيشاً قاراً، اللهم لا تجعل بيننا وبينك احداً سواك، اللهم إن كان رزقي في السماء فانزله، وإن كان في الارض فيسّره، وإن كان قليلاً فثمّره، وان كان يسيراً فكثّره، أعوذ بالله من القنوع والخضوع والخنوع، اللهم اجعلني أفقر خلقك اليك، وأغناهم بك، اللهم اجعل لي رزقاً واسعاً، واجعلني به قانعاً».

* * * * *

اختلف دعاء الليلة عن كل دعاء. ليس لوحدتي ولا لأني لم أحج.

ذكّرني بأبي. كان كثير الدعاء بعد الصلاة. سبع سنوات مضت على موته الآن. ولولا قطعة أرض صغيرة كان يحتفظ بها، ما أكملت

العامين الأخيرين لي في الجامعة. ترك ما يكفي إلى اليوم الذي اتابع فيه رسالته هو. كأنه قدر رسم لي كل شيء.. كيف لم أحتفظ بصورة واحدة لأبي، وكيف أني نسيت وجهه.

قمت فجأة وتناولت من الدولاب كراسة استخدمها في كتابة الرسائل وكتبت:

السيد/ناظر مدرسة طاهر بك الاعدادية بالورديان بالاسكندرية.

بعد التحية:

أنا اسماعيل خضر موسى مدرس اللغة الانكليزية في مدرستكم الغراء، سافرت الى السعودية بجواز سفر تم استخراجه على أساس بطاقة شخصية مزّورة لم اثبت فيها وظيفتي كمدرس حتى لا تمنعني الوزارة وعليكم أن تحتسبوا أيام انقطاعي اجازة بدون مرتب حتى أعود بعد عام..

ومزقت الورقة، وكتبت:

السيد / ناظر مدرسة طاهر بك الاعدادية.

رجاء حفظ مكاني في العمل. سأعود بأسرع ما يمكن.

ومزقت الورقة وكتبت:

السيد / ناظر المدرسة..

لن أعود ولن أبقى هنا. سأنفجر...

ومزقت الورقة أيضاً، وقفزت من فوق السرير وسط الغرفة. واحد. اثنان ثلاثة. اربعة. واحد. الذراعان للكتفين.. اثنان.. الذراعان جانباً رفع. ثلاثة. أسفل خفض. واحد. اثنان. ثلاثة. هذا

الذباب اللعين بات معي في الغرفة رغم البرد وانكمش فوق سلك المصباحين. هل اطارده؟ سينتشر ولا يخرج.. هذه الروزنامة المعلقة بالحائط لا بد من تمزيقها. نوفمبر. بعد شهرين يبدأ عام جديد. وبعد أثني عشر شهراً ينتهي. لن اضع روزنامة في الغرفة في العام القادم.. هذه وضعها فاروق. لقد جَهَّزَ لي الغرفة تجهيزاً كاملاً. أين فاروق الآن؟ لم يعد ولم يرسل رسالة فلاغلق التليفزيون وافتح الراديو. إذاعة صوت مصر العروبة تحييكم من بغداد. بعد أيام تحل الذكرى المشؤومة للزيارة الخيانية للرئيس المصري انور السادات إلى القدس. اليوم بدأت دورة الخليج لكرة القدم بالوقوف دقيقة حداداً لقرب هذه الواقعة الخيانية. ما اهنأ الرئيس المصري بالأفكار العربية. واحد اثنان. ثلاثة واقفز في الهواء. وفتحت باب الغرفة فانسكب مستطيل الضوء المنبعث منها على الردهة وامتد طويلاً على الأرض ورأيت البدر في السماء يوشك على الاكتمال. لقد رأيته منذ قليل حين دق الشحاذ الباب. لم يتحرك من مكانه كثيراً. الوقت لا يمر. من الآن لن يمر بسرعة. لن أصل إلى اليوم الرابع للعيد إلا هالكاً. أهلاً بك ايها البدر. ايها الملك. هأنذا أقف في البرد أحييك. وحدي في هذا البيت الفارغ في هذا الحي الساكت في هذه البلدة النائمة في وسط الصحراء. هلاّ نزلت وجلست معي قليلاً أيها الملك العظيم؟ لا امرأة تكلمني وأكلمها وأقول إن وجهها كالبدر أو أني رأيتك على وجهها. هل تعرف من قال بأنك ملك؟ ابن المعتز. الشاعر الخليفة. كان رديء الاستعارة والتشبيه. ما زلت اذكر. ربما قتله خصومه بعد أن خصوه. يا الهي! إنه لعروة بن حزام صاحب الأبيات التي سمعتها صباح أمس من المرأة الباكية. ذلك الذي شهق شهقة مات فيها، والذي لم يدركه ابن الخطاب فلم

يجمع بينه وبين عفراء.. ايها البدر الملك أين ستنام في الصباح ومتى؟ اريد ايضاً أن أنام. ودخلت الحجرة وأغلقت الباب التمس الدفء. واحد. اثنين. ثلاثة. ما هذا الصوت الصادر من المطبخ؟ خرفشة متتابعة وانقطاع قليل. إنه فأر. فأر يمرح. فأر ادرك أن «سعيد» الذي تخصص في صيده في مكة الآن. بالضبط كما أدرك الكلب الأبيض الضخم خلو البلدة فنزلها ورأيته أمس. يا للفأر الذكي! ويا لسعيد ومصيدته الجبارة! لا يستخدم مصيدة مألوفة. ابتدع طريقة وحشية مقززة. الفئران دائماً تذهب الى المطبخ. وضع لوحاً من الخشب تحت حوض المطبخ بحيث يصنع مع الجدار زاوية حادة عند الركن. يطارد سعيد الفأر حتى يدخله في الزاوية الحادة ويضغط بقدمه على اللوح الخشبي فينفجر الفأر بين اللوح والجدار، ويحمله سعيد في ورقة يلقي به الى الشارع من أعلى الباب. كل يوم يقتل فأراً. منذ اسبوعين توقف. اختفت الفئران وقال إنها احست بقدوم الشتاء فلم تعد تخرج من جحورها. هذا الفأر كان يتلكأ في مكان ما فلم يذهب الى جحره. سأتركه حتى يرحل وحده ولأغلق الراديو واشغل التليفزيون الآن. طرقات خفيفة فوق الباب الحديدي للبيت. انني اسمعها جيداً. لا يمكن أن يكون شحاذاً آخر. لقد أذّن لصلاة العشاء وها هو المذيع يتلو حديثاً. من يأتي في هذا الوقت؟ من يعرفني هنا لم يحج؟

ـ منصور.

هتفت بعد أن فتحت الباب. كان يبتسم وأنا لا استطيع أن أبعد عينيّ عن خصيتي القرد الزرقاوين فوق كتفه.

١٠

احترقت وجوه الباكستانيين، وصاروا أكثر حركة ومرحاً بعد عودتهم من الحج. سألت أرشد الذي دخل مكتبي ووقف لا يتكلم:

ـ هل كان الجو حاراً إلى هذا الحد؟

ـ كان برداً مستر اسماعيل. نمنا في العراء وسافرنا في عربة مكشوفة..

وعاد إلى ذهوله. كانت الساعة حوالي السابعة والنصف. قال في ضيق:

ـ ما هي حكاية مستر عابد معنا مستر اسماعيل؟

ـ هل حدث شيء جديد؟

ـ أمس مساء بعد عودتنا تحدثنا في ميزانية الكامب هذا الاسبوع. لقد عاد من الحج أكثر بخلاً.

ـ معذرة أرشد. أنت تعرف أني لا أستطيع التدخل بينكما..

ـ أعرف مستر اسماعيل لكن.. لا بد أن يساعدنا أحد. هل أتحدث مع مستر عبد الله؟

ـ لا.

نظر إلي طويـلاً ثم انصرف دون تعليق. لقد أدركت فجأة أن

عابداً لا يفعل إلا ما يُرضي عم عبد الله. لكني بعد انصراف أرشد فكرت: هل جاء حقاً ليقول ذلك؟ لا بد أنه كان يود الحديث معي في شيء آخر. عاد أرشد إذن إلى ترديده معي في الكلام.

* * * * *

حين دخل نبيل يحمل القهوة كان يبتسم ابتسامة كبيرة. وضع الفنجان امامي، وقال:

ـ لم أرك في العيد.

ـ كيف تراني وأنت في الحج؟

ـ أنا لم أحج.

اتسعت عيناي وابتسمت. لا بد أنه يمزح. قال:

ـ عدت من منتصف الطريق.. من ثلثي الطريق حقيقة. من الأشياء التي ضايقتني في العيد أني لا أعرف بيتك. لو كنت أعرفه كنت زرتك وأمضيت الوقت معك. مر الوقت كئيباً عليّ وحدي هنا. نزلت إلى البلد أكثر من مرة، ورحت أمشي في شوارعها علّني أصطدم بك في طريقي. خانني الحظ. لم أجد إلا كلباً شارداً.

ـ هل صحيح أنك لم تحج؟

ضحك وأقسم أنه لم يحج فعلاً ثم حاول أن يكتم ضحكاته وقال:

ـ شُف يا سيدي. وصلنا الى «بيار غي» أنا وعابد. بيار علي قرب مكة. ومنها يبدأ الإحرام. إنها ليست مدينة ولا قرية. نقطة على الطريق بها ماء وجامع صغير. هناك التقينا بجماعة من المصريين كانوا يستقلون أوتوبيساً كبيراً.. كان علينا جميعاً أن نبيت الليلة

هناك. وكان بينهم شاب مجنون لا تعرف. عاقل لا تعرف. مصيبة والسلام. كان هو الإمام الذي يصلي بهم ويخطب فيهم ويحدثهم عن المناسك. طبعاً انضممت انا وعابد اليهم نستمع إلى صاحبنا الذي راح يحدثنا عن الواجبات بعد الاحرام. لا تقطع شجرة ولا زرعا ولا تحلق ذقنك ولا تقص اظافرك، وطبعاً لا فسق ولا رفث ولا قتل لاي حيوان ولو قملة. حتى لو خرج عليك اسد لا تقتله إلا إذا هاجمك. هكذا قال. طبعاً معه الحق لأنه لو خرج عليّ أسد لن أقتله. سيقتلني ـ وضحكنا بشدة وعاد نبيل يتحدث ـ بالليل رأيت ذئباً.. ذئباً حقيقياً يقف قريباً منا. كانت النساء نائمات في الاوتوبيس والرجال نائمين على الأرض. انا وحدي كنت سهران. ليتني كنت نائماً. خفت وانتظرت أن ينصرف الذئب فلم ينصرف.

ـ طبعاً هاجمت الذئب؟

قاطعته ساخراً وضاحكاً. سكت قليلاً وقال:

ـ انت لن تصدق لكن عابداً يمكن ان يؤكد كلامي.. تبوك كلها تعرف القصة. كيف لم تصل اليك؟

سكتُّ. الحقيقة لم يتحدث أحد امامي بشيء كهذا. تحدث سعيد ووجيه عن اشياء كثيرة طريفة وشاقة حدثت في الرحلة إلا حكاية الذئب هذه. واستطرد نبيل.

ـ أمسكت بحجر وقذفت به الذئب. أنا في ذراعي «عِرْقُ الصبا». كنت في مصر اقذف الحجر من «الكيت كات» يعبر النيل ويصل للزمالك. ما علينا. أصاب الحجر رأس الذئب فعوى وجرى. لو لم يعو لما تنبه أحد. استيقظ الرجال واستيقظت بعض النساء واستيقظ صاحبنا وسألني هل سمعت صوت الذئب فحكيت له

القصة. غبي أنا لأني فعلت ذلك. تقدم صاحبنا الى قطعة الحجر التي أشرت له على مكانها فوجد فيها آثار دم فقال لي إن إحرامي فسد وعليّ أن احرم من جديد. كيف؟ تفك الاحرام وتنوي وتحرم من جديد. هل هناك أعجب من ذلك؟ أنا مُحرم وعليّ أن افك الاحرام من جديد. قال لي إنها مسألة سهلة. كل الناس قالوا ذلك أيضاً وأنا وجدتها غير معقولة. في الصباح الباكر أخذوا طريقهم إلى مكة، وأنا وجدت تريلا قادمة من جدة تحمل سيارات إلى تبوك فركبتها. هل تصدق أني وأنا اضع قدمي فيها أحسست بخطئي وكدت أعود وأنفذ ما قيل لي، لكني قلت إن هذه التريلا جاءت في الوقت الذي أراده الله لي. ربما أراد الله أن ينجيني من شيء خطير كان سيحدث لي في الحج، من يدري؟!

أطلت النظر الى عينيه. لم يكف طوال الكلام عن الابتسام. قال:

ـ انا أعرف أنك لن تصدقني أبداً تماماً كما لم يصدقني صاحبنا حين قلت له إن الذئب كان سيهاجمني. قال كان عليّ أن انتظر حتى يفعل ذلك، قبل ذلك ربما كان يمشي هائماً لا يشعر بوجودي. كأنه كان من الممكن أن اقاوم الذئب إذا انتظرت وهاجمني.

قلت:

ـ إذن انت لم تحج لأمك؟

وقف وقال:

ـ هي مَرّة لا تستحق.

وانصرف وتركني أضحك بقوة لم ينهها غير دخول سيارة عم

عبد الله مسرعة في الباحة تثير زوبعة من التراب.

* * * * *

دخل عابد الى غرفتي مضطرباً وقال:

ـ خذ ملف آرون بونكرد واذهب به الى عم عبد الله.

وجلس خلف المكتب المجاور للخزنة. قمت أنا وتناولت ملف آرون من الدولاب.

سألته:

ـ ما الحكاية؟

ـ عم عبد الله سيخبرك..

دخلت غرفة عم عبد الله، فوجدته قد استلقى على الفوتيل الطويل وقد خلع العقال والغترة وبدأ يغالبه النعاس. لا بد أنه لم ينم الليلة الماضية. ورأيت صلعته لاول مرة. لم يكن في رأسه الا قليل من الشعر فوق أذنيه. نظر اليّ دون أن يغير من وضعه وقال:

ـ سوْ ترمنيشن لآرون. غداً باكر يكون في تايلاند.

ارتبكتُ. لماذا هذا الفصل المفاجيء لآرون؟

ـ لماذا لا تتحرك؟ انْهِ الاجراءات ثم احضر الملف عندي.

ضاع الكلام مني، واستطرد هو:

ـ اعرف أن آرون مدين للشركة بثلاثة أشهر من راتبه، وأعرف انك وافقت له على القرض. زُحْ من أمامي..

كانت هذه أول مرة يتحدث فيها بغضب إليّ. أنا الحقيقة لم أوافق لآرون على شيء. لقد توسطت فقط عند عابد. فعلها عابد إذن وكذب. هذا أول اللعب القبيح. لكن هل أستطيع ان أقول لعم عبد

الله شيئاً. إنـه مدير جاد غير مستعـد لتضييع وقته في معرفة الحقائق، ولن أول ما يسمعه هو الحقيقة دائماً..

* * * * *

دخلت غرفتي. نظر إليّ عابد مبتسماً بوجه جامد. بدا مستعداً للرد عَنّي أي كلام أقوله فلم أتكلم. خرج إلى غرفته وجلست انهي اجراءات فصل آرون. كانت هناك استمارة يجب أن املأها حتى إذا جاء وقّعها. وكان عليّ الاتصال بالجوازات لإرسال «المُعَقّب» الذي سيأخذ الجواز ويضع عليه تأشيرة الخروج بلا عودة، والذي سيحجز تذكرة السفر.

جلست أفعل ذلك وفجأة رأيت منصور يدخل بسيارته الكابريس الفارهة وجواره آرون.

* * * * *

ـ سويت له ترمينيشن؟

سألني منصور وهو يدخل إلى الغرفة وخلفه آرون. كدت أضحك من قوله «ترمينيشن». عم عبد الله يعرف الانكليزية جيداً من عمله السابق في الدمام، كيف إذن يعرفها منصور؟ ربما لأنها مصطلحات تتردد كثيراً امامه. قلت وأنا مندهش من عدم وجود القرد معه.

ـ أسويه الآن.

كان هو قد جلس الى المكتب المجاور للخازنة، وجلس آرون على احد المقاعد الجلدية، فصرخ فيه منصور:

ـ لا تجلس.

قالها بالعربية وفهمها آرون ربما من اشارة يد منصور، فتجهم وجهه ثم وقف يبتسم لي في ارتباك شديد، وسألني منصور:

ـ لماذا تأخرت؟

حملقت فيه لحظات ولم أرد.

ـ هيا، بسرعة..

هتف وقام تاركاً المكتب وخرج، فلم يعطني فرصة للانفجار فيه.

أشرت لآرون ان يجلس وسألته:

ـ ماذا حدث؟

ـ ضبطوا عندي خمراً.

هذه ثاني مرة يتحدث فيها عن الخمر.

ـ هل كنت تصنع الخمر بحق؟

أجل مستر اسماعيل.. مستر عبد الله يعرف. إنني اعطيه منها.

ارتبكتُ للحظة، واستمر هو يتحدث:

ـ كان كل شيء يمضي بهدوء. في اجازة العيد كنت تقريباً وحدي في الكامب. قمت بتحضير كمية كبيرة. كان مستر عبد الله في عمّان. لقد حضر أمس فقط. أول أمس عاد الباكستانيون. إنهم جميعاً يعرفون ولكن واحداً منهم قال أن لا أفعل ذلك مرة أخرى. قال إنه بعد الحج لن يسمح بوجود خمر في الكامب. لم اهتم. ابلغ الشرطة. إنه غبي.

ـ للأسف يا آرون لن تعود للمملكة مرة أخرى.

ـ أعرف مستر اسماعيل. سأذهب إلى إيران. لقد عملت هناك منذ سنوات.

- لكن في إيران مظاهرات ضخمة الآن. انفجارات والشاه يضرب الناس بالطائرات.
ابتسم وقال:
- أعرف مستر اسماعيل.

لا جدوى من الكلام. سوف يُرحّل آرون وانساه كما سينساني. قدمت له نموذج انهاء الخدمة ليوقع عليه وقلت:

- سأرسل لك الجواز والتذكرة في الكامب. سأحجز لك بعد يومين لتدبر نفسك.
- أشكرك مستر اسماعيل. هل هناك مشكلة بخصوص القرض؟
- لا.
- اشكرك مستر اسماعيل. إنني لن انساك أبداً. أنت مصري طيب.
ابتسمت وقلت:
- المهم ان تشتري بيتاً في بانكوك.
وقف وقال:
- سأشتريه مستر اسماعيل.. سأشتريه. لا بد.

ووقفت أصافحه فشد عل يدي بيديه وخرج مسرعاً يهرول. بدا لي من قِصَره كحجر يتدحرج.

* * * * *

- سأعود معك اليوم.
فاجأني منصور الذي عاد إلى مكتبي بعد انصراف آرون.
- رأيتك تدخل بسيارتك الكابريس.

- تَعَطّلَتْ.
تأملته بحدة بعد أن جلس الى المكتب المجاور للخازنة وقلت:

- اسمع يا منصور. لقد طلبت مني شيئاً ووعدت أن أجيبك في الوقت المناسب فلا تطاردني.
سكت قليلاً. وقال:

- اخشى أن تخذلني.. انه أمر بسيط جداً لا يحتاج كل هذا الانتظار.

* * * * *

حين حضر منصور الى بيتي ثاني أيام العيد فاجاني بأنه يريد أن يعرف متى سيتزوج سعيد من خطيبته وداد. أدهشني انه يعرف سعيداً وخطيبته. وكنت أنظر اليه وهو يجلس مؤدباً خجولاً في الغرفة وارى الكحل في عينيه. عرفت بعد ذلك أن الرجال هنا غالباً يتكحلون في الأعياد سُنّة عن الرسول. كان شكله غريباً جداً وكانت هذه اول مرة أرى رجلاً يتكحل. وقال وأنا لا استطيع ابعاد عينيّ عن عينيه:

- حتى لا ترتبك أخي اسماعيل اقول لك إني أعرف وداد منذ ثلاثة أعوام. انها مُدَرِّسَة في المدرسة المتوسطة وأختي تلميذة عندها. كانت تأتي إلى المحل ومعها أمها لتشتري القماش. إننا نملك محلاً كبيراً في الشارع العام. لقد فكرت أن أتزوجها وذهبت وأبي وأمي كما تفعلون في مصر الى بيتها وخطبناها لكن أمها رفضت. قالت إنها مخطوبة. ولم تكن مخطوبة أخي اسماعيل. رفضت أمها بشدة ورفضت المائة الف ريال مهراً. ورفضتني أخي

اسماعيل وأنا أعرف أن السعوديين ينزلون مصر في كل وقت يتزوجون. لقد خُطِبَتْ لسعيد بعد ذلك وصدمتني صدمة كبيرة..

كان وهو يتكلم، يبدو محزوناً بحق. ولم اعرف كيف أهون عليه. أعددت له شاياً ثلاث مرات وفي كل مرة يقربه ويبدا أنه لن يترك البيت. كل ذلك والقرد فوق كتفه ينظر إليّ. قلت:

- ربما كانت علاقتها بسعيد قديمة.
- لا.
- كيف تعرف؟
- أنا اعرف.
- إذنْ...

ولم يدعني اكمل. قال:

- لقد فَضَّلَتْ عليّ المصري. السعوديون أخي اسماعيل يتزوجون من مصر كل يوم بسهولة.

ضايقني هذه المرة. كيف أشرح له؟ لا زيجة مما يحدث حقيقية. المسألة لا تزيد على غرام سعودي باللحم المصري، أو فقر عند المصريين الذين لا يغالون في المهور كما هو الحال في المملكة.

- وما دخلي أنا في هذه المشكلة؟
- أنت تعيش مع سعيد. أريد أن اعرف منك موعد زواجهما

تذكرت نظرته الغاضبة اليّ يوم رآنا في البنك، ومعاملته الخشنة غالباً معي. ماذا يفيده أن يعرف موعد زواجهما حقاً، راودني شيء من الخوف. شخص مثل منصور يبدو شديد التعقيد. قلت:

- أنا رغم عيشي مع سعيد لا أتحدث معه في اي شأن خاص.

- تكلم واعرف.

قال بحسم ووقف لينصرف. لم أنم تلك الليلة الا عند الصباح. ساعدني ذلك حقاً أن انام نهار اليوم الثالث للعيد: ان اقفز يوماً من ايام الصمت، إلا اني حين جاء سعيد في اليوم الرابع، لم استطع ان أمنع نفسي عن التطلع إلى وجهه بين حين وآخر، وخشيت أن يفطن سعيد إلى تطلعي إليه، ويسألني عن هذه الحالة المفاجئة: إلا أن سعيداً لم يفطن لشيء، وأنا استطعت بعد يومين أن أكف عن ذلك. الآن يأتي منصور طالباً اجابة سريعة على سؤاله. إذن لا بد أن أكذب. قلت

- لو قلت لك متى يكون زواجهما هل تقول لي ماذا يفيدك؟
- لن يفيدني شيئاً. أنا فقط اريد أن أعرف. مجرد معرفة لا أكثر ولا أقل.
- بعد عامين يا منصور..

ورأيته ينظر إليّ بسعادة مفاجئة.

- أصادق أنت اخي اسماعيل؟
- صادق جداً..
- حياك الله يا طويل العمر.

وقام يصافحني ضاحكاً فرحان كطفل وجد لعبته الضائعة وقال:

- الكابريس ليست معطلة. لن أعود معك.

* * * * *

- كيف انكسرت سيارتك؟

سألت منذر الذي جاء ليلحق بي قبل أن اغادر الباحة بسيارتي.

- سيارة ملعونة موديل ١٩٧١. سَقَطتُ بها في حفرة. سحبها الونش ورميتها عند ارشد.

قال ذلك وهو يصعد السيارة وبعد أن جلس استطرد:

- طول النهار تعالى يا منذر. رح يا منذر. كهرباء يا منذر. ميكانيكا يا منذر. مياه مقطوعة عن الجيش يا منذر. اسمنت ناقص يا منذر. طيب يعطوني سيارة قوية. باكر ساحصًل واحدة جديدة. العمل بلا منذر يتوقف ومنذر لا يعمل بلا سيارة.

رحت أضحك وأراقب الطريق واستمتع بالهواء البارد قليلاً الداخل إليّ من نافذة السيارة المفتوحة. فجأة تذكرت أني لم أر اليمني العجوز اليوم. هل حقاً لم أره أم لم انظر ناحيته؟ لا بد أني لم انظر ناحيته. اربكني منصور إرباكاً شديداً.

- ما رأيك بمنصور يا منذر؟

سألته ولم أرتب للسؤال.

- منصور! قلت لك من قبل إنه مخبّل. مجنون.

- اعرف. لكن ماذا تقصد بالضبط؟

ضحك ضحكة طويلة وقال:

- تريد القصة كلها؟

- كلهـا.

- اسمـع.. منصـور من عائلة كبيـرة لديهـا تجارة واسعة في الشارع العام. ترك تجارة ابيه وجاء يعمل سائقاً عند عبد الله. اليس هذا جنوناً؟

- لكن عبد الله لا يستخدمه كثيراً.

- عبد الله يعرف عائلته.

- اهذا كل شيء؟

- منصور مجنون بمدرِّسة مصرية يريد أن يتزوجها. مجنون بالمصريات. ليست هذه أول مصرية ترفضه.

- هذا غريب حقاً.

عاد يضحك ضحكة طويلة وقال:

- انت تعرف كل شيء يا أخ اسماعيل. تريد فقط ان تستوثق.

قلت محوّلاً الموضوع:

- الى أين وصلت مع جارتك الحسناء؟

- الله يستر عليك لا تذكّرني. صارت صديقة لزوجتي. زوجتي صغيرة بلهاء.

ضحكتُ واستمر هو يتحدث:

- أراها يا أستاذ فكأني رأيت الحرب.

- لا بد أنها جميلة بحق.

- أقول لك حرب يا استاذ. كمين منصوب لمنذر.

وفجأة كشف لي صدره:

- انظر. ضاع ثديي الأيمن من حريق قذيفة مرّت من امامي، وانظر هذا الهور في ربلة ساقي. وهذه ذراعي بها عشر غرز.

واستمـر يكشف لي امـاكن كثـيرة مصابة من جسده، وأنا لا استطيع ان اتابع إلا قليلاً فعيناي على الطريق.

- انا من عائلة فداوية يا أخ اسماعيل.

لم أدر بما أعلق. صمتنا قليلاً ثم قال:

- اعذرني إن كنت ازعجتك. أنا لا أعرف بالضبط ما افعل. المرة

السابقة لم أكن طيباً معك، لكني والله أحب المصريين جداً. أنا فقط أكره السادات.. هل تلومني؟

كان صوته يتهدج بما يشبه البكاء وهو يتكلم. وجدت نفسي أقول:

ـ وأنا مثلك أكرهه يا منذر.

ـ الله يستر عليك يا أستاذ.

وأشعل سيجارة لي ولنفسه ثم قال بصوت خفيض:

ـ لا تخبر أحداً بما رأيت من جسمي. يعرفون أني كنت فدائياً يرحلونني يا أستاذ.

ـ معقول؟!

ـ جـداً.

ـ يعيدونك إلى الأردن؟!

ـ هل تظن الى فلسطين؟

١١

لا تلوميني يا واضحة. لقد تملكني شعور الناجي من النار..

*****

في طريقي إلى بيت واضحة فكرت بأن أمضي معها اليوم أطول وقت ممكن لكني رأيته.. البيت الجميل ذا الحديقة ذات النخيل وشجـر الليمـون، على بابه جندي شرس، وفي شرفته جلس سيد الغريب ملتفاً ببطانية. رأى سيارتي ورآني فوقف ولم أقف. ضاقت نفسي رغم اتساع الدنيا حولي. لا أحد يستطيع ابلاغ الأمير بأن «الشيـخ» نسي محـاكمـة الطبيب المصري. لم يسجنه ولم يطلق سراحـه. تركه ليجف مع الوقت المترهل. قلت لوجيه: «لا يمكن أن تنسى المحكمـة قضية كهذه، الأمر مقصـود...». قال: «كل الناس تعـرف انه نسيان. هذا ممكن جداً. فكرت أذهب للإمارة وأطلب مقابلة الأمير، وفطنت فجأة إلى أنه قد مضى عام والغريب «موقوف» ولم يفكر في ذلك أحد، وأصابني ضجر شديد فلم أذهب.

رأيت البيت اليـوم وقررت أن أهرب من الدرس. وربما أهرب أيضاً من الدرس الجديد لابن صاحب البيت الذي نسكنه، صالح

سنيور الثقيفي الذي حين قابلني به وجيه لم أصدق انه تلميذ. قال وجيه إن التدريس لصالح قد يفتح لي الباب للتدريس لغيره، فيعينني ذلك على كسب أكثر ما يمكن في زمن قليل، ووافقت، واليوم موعدنا لنبدأ، ولكن بعد أن أنتهي من الدرس لواضحة التي أمسك بنفسي أكثر من مرة متلبساً بانتظار موعد الذهاب اليها.

عليّ اليوم ان أشرح لها درساً عن هيلين كيلر.. عن الارادة الانسانية. واليوم أشعر بالخوف أكثر من كل وقت. أفكر كيف كان يخامرني شعور منذ رأيتها فوق عربة الشرطة بأني سألقاها، وكيف أني سأكون خاتمة القصة. أخاف عليها مني وأخاف منها عليّ. أنا رجل أغلقت شطآن البحيرة من زمان، فكيف أسافر كل هذه الأميال لألقي فيها بالحصى؟ واحد فينا مقتول. لا أريد أن أموت ولا أن يكون لي في كل بلد خطيئة.. هل أقول لواضحة ذلك؟ هل تفهمه؟ هل يفيد؟ لتستمر قصتنا إذن إلى غايتها المرسومة، لكني رأيت البيت الجميل والدكتور الغريب فحاصرني الضجر وفكرت أن أعود.

* * * * *

استقبلتني واضحة. فتحت لي الباب الخارجي وأفسحت الطريق، فدخلت منكس الرأس الى الغرفة الواسعة، وقلبي يتدحرج أمام قدميّ. خيل لي أني أزورها بالليل ولا أحد في الدنيا غيرنا، لكنني ظللت خافضاً رأسي حتى لا أرى وجهها السافر، ولا شعرها الذي يدعوني لأخبيء رأسي فيه.

صغيرة واضحة كالعصفور، وتحتل من الفضاء فضاءً كبيراً، ولكن لا بد أن أرفع وجهي اليها.

ـ اين الواجب؟

قلت حاسماً فقدمتْ لي الكراسة بيد مرتعشة. لا بد أن وجهي تجهم. ولم أشأ النظر إلى وجهها الذي لا بد ظللته خيبة الرجاء. لم تعرف أني غضضت البصر حتى لا أتخاذل أمام دعوة شفتيها المرتعشتين.

ـ استاذ. هل من الضروري أن يُكْتَب الاسم قبل العنوان؟

ـ لا أظن أن ساعي البريد يعيد رسالة كتب فيها العنوان قبل الاسم، لكن هكذا تقتضي تقاليد كتابة الرسائل بلغة اجنبية.

ـ لا أعرف لماذا أفكر لو تصل الرسائل دون كتابة الأسماء.

ـ يمكن طبعاً لو كتبت رقم صندوق البريد.

لم أفهم إلا متأخراً ماذا تقصد. رأيتها تتجهم. خيبة رجاء أخرى. أدركتُ مقدار غبائي، ومقدار عنادها، ونظرت الى الباب المفتوح فرأيته، الشيخ الهرم فوق العربة المتحركة.

ـ جـدّي.

هتفت وقامت بسرعة إليه مَنْ الذي دفع به الى الباب وتركه هكذا دون كلام؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم انظر وأراه؟

ودَخَلَتْ به تدفعه أمامها، وأنا أتأمل كم هو ضئيل لا يزيد حجمه على حجم طفل، لولا أن بشرته سوداء مليئة بالغضون. ورأيت يديه مرتخيتين فوق البطانية التي تغطي ساقيه، وجلد عظامهما يشف عن عظام بيضاء، وعروق زرقاء قاتمة منتفخة.

ـ هذا جَدّي المصري. خالد حدثك عنه. أراد أن يراك.

قالت ذلك وهي تتركه بعيداً جوار الحائط، وانا اجاهد أن أعرف

لون عينيه اللتين يطلّ بهما عليّ وأطل بعينيّ عليهما. بيضاوان أم خضراوان اضمحل لونهما؟ لا أستطيع التحديد. صغيرتان مدفونتان. هذا ما يبدو مؤكداً.

ـ هذا هو الاستاذ المصري.

هتفت واضحة لجدها، ورأيته يبتسم. أول مرة أرى شيخاً هرماً يبتسم. مبهج كطفل وليد. وهمستْ لي:

ـ تكلم فجدي أعمى.

لم اتكلم. قمت واتجهت اليه. أمسكت بيده أرفعها أصافحها وتركتها فسقطت على حجره.

كيف إذن أعود الى الدرس؟ بدأته بالغباء الذي سبقه في الطريق ضجر من أجل ذلك الذي يسجنه الجبن والنسيان، وأنهاه حضور هذا الجد. من الذي دفع به إلى الباب حقاً، لماذا لا أرى في هذا البيت أحداً غير خالد وواضحة؟

ـ هل ضايقتك اليوم؟

ـ لا.

ـ إذن لماذا تريد الانصراف؟

ـ سأعوّض لك الدرس الحصة القادمة.

رأيتها تكاد تبكي، وظللت مندفعاً في قسوتي. لا تعلم أني وددت أن أدور حول المكتب وآخذها في صدري.

ـ هل خطيبتك ليست بخير؟

للمرة الثانية تذكر خطيبتي. ما حاجتنا الى كل هذه الغباوة اليوم؟

ـ كما ترين. أنا لا خاطب ولا متزوج.

قلّبت يديّ أمامها وانصرفت مسرعاً. كنت أعرف انها تبكي في صمت خلفي، لكن ماذا أفعل؟ تملكني شعور الناجي من النار. لا بد أيضاً أن أجد طريقاً آخر لا يمر بالبيت الذي يحوطه النخيل والليمون والنسيان.

* * * * *

ـ يا هلا يا استاذ.

هتف صالح وهو يستقبلني بحفاوة. بيت صالح لا يختلف عن بيت واضحة. بناء من دورين حوله ردهة تدور معه بلا أشجار.

قادني الى قاعة طويلة مفروشة بالموكيت الأخضر، وتتوزع على جوانبها الحشايا بإهمال. لا مكتب هنا ولا مقاعد. جهاز تليفزيون كبير يتصدر القاعة، وتحته على الحامل الزجاجي جهاز فيديو، وجوارهما منضدة صغيرة فوقها مجموعة من شرائط الفيديو. بالمقابل، في الناحية الأخرى من القاعة، يجلس أربعة شبان لم يتجاوزوا العشرين مثل صالح، وقفوا بمجرد دخولي، وصافحوني مبتسمين، وجلسوا من جديد ينظرون إلى بعضهم، ويضحكون بلا صوت.

ـ أصحابي. لا داعي لمعرفتهم.

قال صالح مبتسماً وأنا بعد لم أجلس. ابتسمت لهم فضحكوا وصفقوا في وقت واحد كأطفال.

ـ لا تندهش يا أستاذ. يأتون هنا يأكلون ويشربون ويشاهدون الأفلام.

أدركت أن الجو لا يوحي بإمكانية التدريس فجلست صامتاً. فوجئت به يسألني:

ـ تبغي ترى فيلماً يا أستاذ؟

ـ أجل..

صفقوا من جديد. وأنا لا أعرف كيف وافقت هكذا، لكني وددت لو شربت خمراً أيضاً.

قام واحد منهم وأحضر عدداً من الأفلام، وخرج صالح ليعد لنا الشاي بنفسه. هكذا قال.

ـ فسّر لنا عناوين الأفلام يا أستاذ.

قال الذي يحملها وهو يقدمها لي. وقال آخر:

ـ الأستاذ يترجم لنا.

ضحكوا وصفقوا طرباً. وضعت الأفلام أمامي فوق الأرض، والتفوا هم حولي، وتناولتها واحداً فواحداً.

ـ هذا «راعي بقر منتصف الليل»

ـ هذا تعرفه.

ـ هذا «كلاب من قش».

ـ هذا ممتاز لكن رأيناه كثيراً.

ـ هذا «موت في فينسيا»..

ـ ها. هذا فيه الصبي الصغير!

ـ وهذا «الخادم».

ضحكوا.

ـ هذا فيه الرجل الذي يتبول..

سَكَتُّ للحظات. رأوا معظم الأفلام فلماذا يريدون أن أترجمها لهم؟ رأيت أيضاً هذه الأفلام في سينمات الاسكندرية، ورأيت «الخادم» منذ حوالي عشر سنوات ولا أذكر ما إذا كان فيه شخص يتبول أم لا. كنت أحب ديرك بوجارد. أرى في وجهه دائماً مسحة حزن عميق، وكنت قرأت عن هارولد بينتر كأحد كتاب المسرح الطليعيين في انكلترا، ورأيت اسمه في الأفيش ككاتب للفيلم. يا إلهي! كان هذا أيام كنت أقرأ. مضى وقت طويل على ذلك حقاً.

قام واحد آخر وأحضر بقية الأفلام ووضعها أمامي فوق الأرض.

ـ هذا «موبي ديك»..

ـ هذا عن الحوت. لا نبغاه..

وأدوا فرحتي بالفيلم الذي لم أشاهده وكنت أحب لو رأيته. لم أقرأ «موبي ديك» أبداً وإن كنت قرأت عن تعاسة هرمان ميلفيل. أحببت دائماً أن أقرأها ولم أقابلها في مكتبة. لكن، ما معنى أن أثير في نفسي «كوامن الشجن»، ما القراءة التي سقطت بين قدمي وخلّفتُها ورائي في زحمة الأعباء التي قدرها لي أبي أحسن تقدير؟ وما الكتابة لو كنت كتبت؟ لا معنى لأي شيء نسيته. لا يضيع منك حقاً إلا ما ليس لك رغبة فيه.

ـ هذا «قصة حب».

ـ هذا فاشل!!

ـ طيب. هذا «العودة إلى الوطن»

أمسكه أحدهم من يدي، وفتح عينيه بأقصى اتساع، وقال:

ـ نبغي هذا. هذا فيه رجل مشلول يلحس.

ضحكوا وزجره أحدهم:

- ايش نبغي هذا! انتظر حتى يفسر لنا الاستاذ بقية الافلام.

فوجئت بالأول ينكمش ويسكت. يعقد ذراعيه أمام صدره، ويربع قدميه كتلميذ صغير في كُتّاب. لاحظت أن جلبابه متسخ، وقدميه كبيرتان بهما بثور صغيرة دقيقة لها رؤوس بيضاء، ورأيته يحملق فيّ بعينين واسعتين يزيد من اتساعهما شحوب وضآلة وجهه. أحسست بسخافة الأمر كله. لو دخل صالح وانقذني. ويدخل صالح يحمل فيلمين ويقول:

- هذا «الرسالة» يا أستاذ. تبغي تراه؟ إنه ممنوع في البلاد العربية.

وفي اللحظة التي كدت فيها أوافق رغم الجهامة التي بدت على وجوههم استطرد صالح:

لا تؤاخذني يا استاذ. ترى «الرسالة» فيما بعد. غالب يريد أن يرى هذا الفيلم. لا أستطيع ان أرد طلباً لغالب.

كان يشير الى الشاب ذي البثور في قدميه، فصفقوا كلهم وضحكوا. وقفز غالب وأمسك بالفيلم من صالح، ووضعه في جهاز الفيديو، وضبط التليفزيون ثم جلس، وبالروموت كونترول آدار الفيديو.

خرج صالح من جديد، ولم يعطني فرصة الانصراف، وانا لم اطلب ذلك. لم يعد بالشاي الا في منتصف الفيلم. وضع الصينية الكبيرة الفضية وعليها ابريق الشاي والكاسات أمامنا على الأرض. لم نشرب ولا فكر واحد فينا أن يملأ الكاسات الصغيرة.

لقد بدأ الفيلم بموسيقى ناعمة، ثم ظهرت بقع من الألوان خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء، وصارت تتشكل في خطوط طائرة، وتتقاطع وتتقابل في إيقاعات شاعرية، موحية بأجساد معذبة تتقابل بعد طول عناء. ثم خفَتت الموسيقى شيئاً فشيئاً، وتلاشت الألوان، وظهرت ساقا رجل مضمومتان تدخلان الكادر على مهل من جهة اليسار وفهمْتُ الأمر كله. لا بأس. نسيت إحساسي بسوء المعاملة وغباوة الاستقبال. وظهر عمود الرجل منتصباً ضخماً ثابتاً لا يهتز، ومن بعيد اقبلت المرأة عارية تتضح ملامحها كلما ازدادت قرباً، ووقفت أمام عمود الرجل، ونظرت الينا وضحكت ضحكة فاجرة، وانحنت تضع فمها حول العمود.

هل أكذب فأقول إني لم أكن بحاجة الى رؤية ذلك اليوم على الأقل؟ أنا لم أشعر بأي خطأ أخلاقي. في النهاية أنا تارك هذه البلاد، ولا يهمني ما يقوله صالح عن المدرس الذي لم يطلب تهيئة الجو للتدريس، وراح يتفرج على افلام ممنوعة. الذي حيرني طول الفيلم، كان غالب الفاتح دائماً فمه في دهشة، والذي لا ينِي يوقف حركة الفيلم بالروموت الذي رفض أن يتنازل عنه لأحد. كان يوقف الفيلم كلما ظهر عضو امرأة. لا اكذب أيضاً إذا قلت إنه سبب لي كثيراً من التقزز، لكني انتظرت إلى النهاية. لثلاث ساعات كاملة لم يفه أحدنا بكلمة. لم اترجم لهم شيئاً ولا هم طلبوا.

* * * * *

لا أعرف في أي لحظة من الفيلم انسلختُ ورأيت وادي النيل من الشلال الى البحر الأبيض. ديوك تؤذن وشمس تسطع على الشريط الأخضر الضيق في الجنوب فتتفتح زهور الفول البيضاء بطول

النيل، وشمس تسطع على الجبال فيصحو رجال ناموا جوار البنادق ويقفون كأنهم رايات وشمس تسقط على المعابد القديمة فيضحك وجه رمسيس في أقصى الجنوب وتنطلق الكباش من معابد الاقصر تثغو وتجري تتناطح بعد قيد طويل وشمس تسطع فوق الدلتا فتخور الأبقار ويصحو الأطفال يسحبونها حفاة الى المزارع الخضراء ورجال ناموا يغتسلون في رضا ويصلون ثم يمشون والفؤوس على أكتافهم أو يركبون الحمير وشمس تسطع فوق القاهرة فيخرج الرجال والطلاب على رؤوسهم طرابيش حمراء يصيحون في الشوارع ويعطلون المصالح ويطلق البوليس عليهم الرصاص وفي شرفة عالية يقف المندوب السامي البريطاني يتفرج والبايب لا يفارق شفتيه ثم شمس تسقط فوق الاسكندرية حانية ويصعد هواء البحر الى البر محملاً برائحة اليود ورذاذ خفي يبحث عن ضلوع تنتشي فلا يجد الا صدور الأجانب الذين احتلوا شمالها وتركوا جنوبها الضيق المكتوم لأهلها وللغرباء جاءوا من الريف خلف سراب المدن، ثم رأيت وادي النيل ينكمش فيقترب جنوبه من شماله ويمينه من يساره ويصبح كله غرفة أو ردهة بيت صغيرة مليئة بأثاث قديم وناس متعبين من رجال ونساء واطفال قليلين يصحو من بينهم واحد عند الفجر في العقد الرابع يرتدي جلباباً قديماً يأخذ مخلاة بها عيش قليل وملح ويضع قدميه في حذاء مهترىء ويتسلل خارجاً في هدوء وضباب فوق الدنيا وكل شيء مبلل بالندى ويمشي لا يرى أحداً ولا أحد يراه ووحده يشق الضباب الكثيف عارفاً طريقه فيركب القطار وينزل يعبر قناة ويقف ذاهلاً أمام اتساع الصحراء ويتساءل هل ستمشي فوق كل الرمال؟ ويجيب سأمشي ويمشي فوق أرض سيناء ينام الليل ويتابع المسير بالنهار

وكلما أحدق به الموت عطشاً تفجرت له الأرض بالمياه وكلما أحدق به الموت جوعاً أنزل الله عليه مائدة من السماء حتى دخل أرض فلسطين فرأى أهلها مُعَلّقين في المشانق يضربهم الانكليز من الأمام واليهود من الخلف ولا زال عليه أن يلبي النداء الغامض لأرض الحجاز فيعبر النهر ويمشي في وادي الأردن نازلاً حتى يدخل بيداء تبوك متوكلاً على الله بلا زاد من ماء او طعام فيرى «ضِبَا» الخالية «وتيماء» الخربة «وتبوك» الملعونة ويواصل فيرى قليبة الملغزة ويواصل حتى يصل الى المدينة فيجلس على باب مسجد الرسول يبيع الحبوب للداخلين فتصير له بعد ذلك تجارة ويصير له طواف بالبلاد حتى رأى تبوك مرة أخرى فدخلها وفيها باع لامرأة مشى وراءها حتى خيمة أهلها فأطعموه فقال ما اطيب طعامكم واهنأ عيشكم كيف أسلوكم وأنا غريب يمضي في البلاد اجيروني فأجاروه وصارت المرأة زوجته انجبت بنتاً أنجبت واضحة بنت سليمان بن سبيل فصار جدها وصارت حفيدته.

يا الهي! ما اقرب المدن رغم اتساع البلاد وما أقرب البلاد رغم اتساع الأرض!

* * * * *

١٣

دخل منصور الى مكتبي في الصباح والقرد فوق كتفه وقال:

ـ استعد للذهاب الى المدينة.

ابتسمت. كلما كلمني منصور احاول أن اتكلف الابتسام. قلت:

ـ خيـراً؟

ـ قـال:

ـ ستذهب الى مؤسسة الضمان الاجتماعي. ستحضر نماذج التأمين على العمال. نظام جديد اظن ان لديكم مثله في مصر.

اندهشت من تدخله الدقيق في عملي، ونسيت أن عم عبد الله كثيراً ما يعطيه هذه الفرصة. قلت مبتسماً:

ـ هل أنت مديرنا الجديد يا منصور؟

جلس الى المكتب القريب من الخازنة وقال:

ـ أريد ان أعطيك هذا القرد..

انطلقت ضاحكاً. لم اعد اخشى جانبه. بدا وقد هدأت نفسه منذ أخبرته بالموعد الكاذب لزواج سعيد من وداد.

ـ لكني لا أحب القرود.

ـ ليس لك. لتحمله إلى ابن عمي بالمدينة. يريد واحداً من عمان وأنا لن أسافر الى عمان الآن.

نظرت الى القرد فوجدته ينظر اليّ. كيف يمكن أن أحمل القرد معي حقاً؟ هل يسمح للقرود بركوب الطائرات؟

ـ هل صدقتني يا أخي اسماعيل. انا فقط أمزح معك.

تنفست بارتياح. قلت

ـ لكني والله كنت مستعداً.

ـ تسلم يا أخي اسماعيل.

قال ذلك واطرق ينظر في صمت الى المكتب، وانا لا أدري ما الذي حدث لي. أحسست برغبة شديدة في البكاء، تأثراً من سذاجة ووداعة هذا الانسان الطيب الذي لا أعرف ماذا يريد بالضبط.

* * * * *

ساعة ونصف الساعة ووصلنا. الطائرة صغيرة لعبت بها المطبات الهوائية كثيراً. في مطار صغير يشبه مطار تبوك نزلنا. لا مشاكل في الاستقبال فنحن قادمون من الداخل. رأيت عدداً كبيراً من الرجال يجلسون عن الارض في أحد أركان صالة الوصول زجاجية الجدران، وحولهم يقف عدد من رجال الشرطة. خليط من المصريين والآسيويين كان الجالسون متزاحمين لا تستطيع ان تحصيهم، مغبري الثياب والوجوه فيهم حفاة. وخرجت.

فضاء واسع وسماء عالية وباحة عريضة مسفلتة تقف فيها السيارات، الأجرة والخاصة. نصف ساعة من المطار الى المدينة. هكذا علمت. توقعت أن يتقدم مني سائق لكن لا أحد تقدم.

الخارجون مثلي من المطار يتجهون الى السيارات في صمت، وهذا الرجل الجالس على المقعد المجاور لمقعد السائق يشير ناحيتي. انظر حولي فلا أجد أحداً. يقصدني انا اذن. ماذا يريد؟ هتف:

ـ اركب بسرعة قبل ان يأتي السائق.

لم أفهم لكني دخلت العربة في المقعد الخلفي، وظهر السائق وفتح بابه ودخل وهو يقول:

ـ جاء أخوك؟

ـ أجـل.

تلفت الرجل لي وابتسم، ولم يلتفت السائق الذي قال:

ـ يا هـلا.

وأدار محرك السيارة وأنا في غاية الحيرة.

ـ أخوك يعمل في المملكة؟

ـ أخي وابن عمي أيضاً، تركنا «عوايلنا» هناك في مصر.

ضحك السائق الصغير:

ـ والله زين ما سويتم.

واستمر يضحك والسيارة تحركت «لعنة الله على النسوان». قال السائق والتفت الي، «لا تؤاخذني يا أخي»، ورأيت وجهه عجوزاً. ليس اذن شاباً صغيراً كما تصورت. وفكرت ان أفضل شيء لي هو الصمت. الرجل الذي دعاني مصري ولا أحسب انه يؤذيني.

الطريق طويل ضيق يقطع جبالاً سمراء وحمراء عالية متدرجة الارتفاعات.. جبالاً صخرية لامعة، على سفوحها أخاديد جافة من آثار أمطار بعيدة الزمان، وعلى الأرض المنبسطة بينها «حرّات» قديمة تنفث دخاناً شفيفاً خفيفاً كأنها فوّهات براكين صغيرة خامدة

منذ زمن طويل، ولا رمال حولي ولا كثبان. لا أعرف لماذا تذكرت الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد الذي رأيته في طريق تبوك وابتسمت. هنا لا بد أنهم يقتلون الكلاب في المدن والصحاري معاً، والتفت الى الرجل وقال:

- هذه جبال بركانية تشبه جبال الصحراء الشرقية عندنا.

لم اره في حاجة انا لمعرفة اسمه حتى اخاطبه، لكني رأيت وجهه جيداً. بدا لي شخصاً عادياً لا يمكن التنبؤ بشيء وراءه، وبدا لي مسكيناً أيضاً. فقميصه متسخ الياقة، والزرار الأعلى فيه مقطوع والبلوفر الذي يرتديه قديم. لكن وجهه أبيض مشرب بحمرة خفيفة وشعره أبيض كله وعينيه صغيرتان ذابلتان من التعب. واستمر يتحدث مخاطباً السائق:

- جبال مكة وجدة كانت متصلة بالجبال عندنا في مصر في الصحراء الشرقية وهي جزء منها.

- سامحني يا استاذ والله أنا ما شفت مصر.. شفت تركيا..

قال السائق ذلك بخجل حقيقي والتفت الرجل الي مبتسماً وقال:

- المنطقة الغربية كلها من المملكة كانت متصلة بالصحراء الشرقية المصرية. لقد فصل بين المملكة ومصر الأخدود الافريقي العظيم في العصور السحيقة كما تعلم.

يخاطبني باعتباري شخصاً متعلماً. يريد ان يشعرني بانه شخص مثقف ولا يجب ان أخشى جانبه. بدأت اطمئن اليه.

اخذت المدينة تظهر. بيوتها الواطئة بينها عمارات كثيرة عالية

ورأيت مآذن المسجد النبوي والقبة الخضراء تلمع في الفضاء، وقال الرجل:

- المدينة جميلة. هواؤها عليل وأهلها طيبون. إنهم الأنصار.

ابتسم السائق وقال:

- الله يرضى عليك يا أستاذ.

ولم يختلف ما رأيته في الشوارع عما رأيته في تبوك. الشوارع هنا أنظف قليلاً وأوسع والآسيويون أكثر. المدينة أكبر.

توقف السائق أمام الحرم النبوي. زحام من الداخلين والخارجين في سرعة وصمت، وزحام حول الباعة العجائز الجالسين على الأرض أمام الحرم يبيعون القمح للداخلين يلقون به للحمام. هذا حمام سابح فوق الحرم وتحت السماء لا يصطاده أحد ولا يأكله أحد. ونزلنا وسبقني الرجل ودفع للسائق عشرين ريالاً، وقال بعد ان مضت السيارة:

- تستطيع ان تدفع لي عشرة ريالات. أعطيت السائق الأجرة المقررة.

- أستطيع أن أعطيك العشرين ريالاً.

- أريد فقط الريالات العشرة. الانسان هنا قد يحتاج لكل هللة.

هذه هي المسألة التي دعاني للركوب من أجلها، ولم أشأ الإطالة في الكلام. أعطيته الريالات العشرة لكنه سألني:

- هل تعرف أحداً هنا؟

- لا.

- اذن انزل معي في الفندق. أعرف الفنادق الرخيصة.

كانت الشمس فوقنا قوية. نحن هنا في الجنوب قريبون من تبوك. النهار هنا خريفي، والخريف هنا كالصيف في مصر. وأربكتني حركة النساء أمام باب الحرم. كنا تحركنا قليلاً وجدنا أمام باب آخر. النساء كثيرات يدخلن ويخرجن كاشفات الوجوه. عيون خضراء وعيون زرقاء وعيون سوداء، وكما تعرف جنسيات الرجال في المملكة من سحناتهم وأزيائهم تستطيع ان تعرف البلاد نفسها من عيون النساء وإن بدت الوجوه كلها واحدة. هكذا فكرت فجأة وأنا أنظر الى الوجوه الطازجة كورود سابحة في مياه من الضوء. عباءات سوداء حقاً أمامي لكن تظهر من فتحات صدرها ملابس خضراء وحمراء وبيضاء زاهية لامعة. عباءات سوداء حقاً لكنها مع الضوء الابيض للنهار تعطي الفرصة للوجوه اليانعة ان تعلن عن سحرها. هنا امام باب الحرم النبوي الشريف لم استطع رفع بصري الى السماء ولا ان اخفضه إلى الارض. صارت عيناي عن مستوى وجوه النساء وعيون النساء وشفاه النساء ونضارة وجناتهن. لم يكن عمر بن أبي ربيعة مجنوناً وهو يحج للغزل. ما بالي لو رحت مكة. استغفر الله العظيم. ماذا افعل في خطف العيون والراحة التي تبعثها الوجوه في الارواح.. انا الآن محمول على سرير من الزئبق.

ـ النساء هنا يكشفن وجوهن لا تندهش. المسائل كلها مقلوبة..

قال الرجل. فأنزلني الى الأرض، ومشى فمشيت جواره كطفل يتبع أباه.

* * * * *

إلى زقاق ضيق أخذني. زحام شديد ولكن الحركة تنساب في

هدوء ولا صوت لشخص ولا لراديو أو مسجل، ورائحة البخور والعطور تضمخ المكان كله. صمت وخشوع كأنما الزقاق والبيوت كلها داخل مسجد كبير.

ـ من حسن حظك أنه لا توجد عُمْرة هذه الأيام وإلا ما وجدت مكاناً لقدم. الناس أيام العمرة تنام في الشوارع.

لم أرد. كأنما تركته بحق يرشدني. دخلنا فندقاً صغيراً اسمه «حراء»، وقابلنا في بهو ضيق مظلم شاباً مصرياً يبتسم، وصحبنا الى غرفة في الدور العلوي، وقال بلا مناسبة إنه لا يعمل بالفندق غيره وزميل آخر، ورحت أنظر الى الغرفة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على تسعة أمتار. بها سريران صغيران منفصلان، ودولاب معدني من ضلفتين لا يصل عرضه الى المتر ولا يرتفع الى المترين، وحوض مياه مثبت في الحائط فوقه رف زجاجي عليه كوب بلاستيك واحد، وفوقه مرآة صغيرة صدئة الحواف، مغبشة الزجاج، وفي السقف مروحة، وأحسست بالاختناق كأنما كان الحر محبوساً في الغرفة وانطلق يحاصرنا مشبعاً بالرطوبة. لا نافذة للحجرة على الشارع. لها نافذة صغيرة على منور ضيق. قلت للشاب المصري:

ـ افتح النافذة.

ابتسم وفتحها، ولم يتغير الحال.

ـ ادر المروحة.

أدارها وانصرف، وجلست فوق حافة احد السريرين. رأيت صاحبي قد جلس على حافة السرير الثاني يفتح حقيبة صغيرة كانت معه، ويخرج منها جلباباً دخل فيه بسرعة بعد ان خلع بسرعة ايضاً ثيابه. فعلت مثله لكني ارتديت بيجامة. لا أحب الجلابيب

منذ صغري. كانت ترتفع دائماً وأنا نائم عن ساقي وأشعر بالهواء البارد في فخذي وظهري. كلما اقترح عليّ أحد أن ارتدي الجلباب شعرت على الفور بالهواء البارد. لقد أدهشني كثيراً انتشار الجلابيب في مصر. الناس صارت ترتديها في الشوارع وأحياناً في العمل. تقليد جديد أرساه وعمقه العائدون من بلاد النفط، ولا أعرف كيف لا يشعر هؤلاء الناس جميعاً بالهواء البارد في أفخاذهم، وقال صاحبي:

- نرتاح ساعة ثم نتغدى خارج الفندق.

- لا أشعر بجوع.

- اذن نتغدى بعد أن نصلي العصر. لقد فاتنا الظهر. سنصليه مع العصر في الحرم.

أحسست فجأة أنه ثرثار يتكلم أكثر مما ينبغي، لكني تجاهلت الامر وحاولت أن أنام. لم استطع ولا هو استطاع. رأيته يتمدد ممدداً فوق السرير، ورأيته ينهض يخرج من الحقيبة التي معه كتاباً ويعود يستلقي يقرأ فيه.

- اسمي اسماعيل خضر موسى.

قلت، فابتسم وقال:

- كان عليّ أن أعرفك بنفسي. كامل البلتاجي. لا تؤاخذني. لا بد أنني اربكتك.

- لا تشغل بالك. لقد فهمت اشاراتك.

- لي نظرة لا تخيب في الناس.

وسكت قليلاً ثم سألني:

- الا تحب القراءة؟

- أنا قارئ قديم.

نهض بخفة، واخرج كتاباً آخر قدمه لي:

- هذه رواية رائعة، وصغيرة كما ترى.

أمسكت بها وقلت مبتسماً:

- «ليس في رصيف الازهار من يجيب». أعرفها. لا بأس أن أقرأها مرة ثانية. لقد مضى وقت طويل على قراءتي لها.

لم أكن بحاجة حقاً الى قراءة ما يعطيني. كنت بحاجة الى معرفة ما يقرأ. استطعت أن ألمح عنوان الكتاب «التقصير». كتاب أسود على غلافه وجه غولدا مائير. سمعت عنه من قبل ولم أقرأه. وشرعت أقرأ رواية مالك حداد. انتهيت منها في ساعتين. سرقتني الرواية الصغيرة العجيبة كما سرقتني أول مرة قرأتها. رأيته يقف ويخلع الجلباب ويقول:

- لا بد أنك الآن في حاجة الى المشي.

وكأنه ناداني من عالم مسحور، حتى أني دعكت عيني وقمت أغسل وجهي من الحوض، وأشعر أني شخص آخر نزعوا جلده وأعطوه جلداً أكثر بهاء. وعدت أجلس على حافة السرير أنظر اليه في صمت، ثم قلت:

- حين قرأت هذه الرواية أول مرة أحسست انني أنا الذي يقفز تحت عجلات القطار. الآن لم أشعر بذلك. فقط خفق قلبي.

تأملني قليلاً وقال:

- أنا أقرأها كثيراً. ربما لا أقرأها الا من أجل ذلك.. سأنتظرك في البهو السفلي.

وخرج مسرعاً. لماذا بان على وجهه ضيق مفاجيء؟ وقفت أفكر.

* * * * *

دخلنا مسجد الرسول، فصلّي الظهر والعصر معاً. أول ما فكرت فيه ونحن نترك الفندق أن لا أنظر الى وجوه النساء. الدخول الى مسجد الرسول ليس بالشيء العادي. في عيد الأضحى لم استوعب فكرة أن تأخذ سيارة وتذهب لتحج وتعود في أيام قليلة. الآن لا أصدق أنه يمكن أن تنزل من فندق وتدخل المسجد النبوي في دقائق. توقعت أن اهتز وابكي. ربما لهذا السبب لم يحدث شيء. دخلت المسجد وتطلّعت الى الحمام السابح في الفضاء فوق الجزء المكشوف. لفت انتباهي اتساع المسجد الهائل، وأعداد الناس الغفيرة، وانقسام المسجد الى نصفين. الأيمن للرجال والأيسر للنساء. لا أرى وجوه النساء الآن. وجوهنا جميعاً إلى القبلة. لو التفت لي كل هاته النسوة لَمُتُّ في الحال. لا يحتاج أي انسان لدخول الجحيم غير ان يرى هذا العدد الهائل من وجوه النساء دفعة واحدة. يا للشيطان الجهنمي الذي يحاصرني! قال البلتاجي:

- لن تستطيع الوصول الى قبر الرسول الا بعد الانتهاء من الصلاة.

- وجلسنا في الجزء المكشوف من المسجد، ثم أُذِّن للصلاة وصلينا. خشوع غامر تلبّس الدنيا مع صوت الشيخ الندي الذي يؤم المصلين. اكذب اذا قلت إني شعرت بتحول في شعوري ناحية الايمان، فأنا غير ملحد. وأكاذب اذا قلت إني لم اشعر بشيء. وانتهينا وكلمني البلتاجي:

- انتظر قليلاً حتى يخف الزحام.

وكنت أنا أحدث نفسي. أبهذه السهولة يمضي الوقت في حضرة الرسول؟ منذ تفتحت عقولنا نسمع الكبار يحلمون بالزيارة، ولم نملّ قط قصة الهجرة في المدرسة والبيت. اختبأ الرسول في الغار وصاحبه أبو بكر فبَاضَ اليمام على الباب، وعنكب العنكبوت، وفزع أبو بكر وهو يسمع أصوات أقدام خيل الكفار، والرسول يطمئنه لا تفزع إن الله معنا. قال أبي ذلك كثيراً. قال حين رآني أبكي مع الناس، يوم تنحى جمال عبد الناصر ودخلت اسرائيل البلاد: «لا تحزن ان الله معنا»، وقمت أتقدم إلى قبر الرسول.

- بين منبري وقبري روض من رياض الجنة. هذا حديث نبوي وهذه هي الروضة الشريفة يا اسماعيل..

قال البلتاجي وهو يراني أتقدم بصعوبة بين الجالسين من الآسيويين المستغرقين في قراءة القرآن من مصاحف صغيرة في ايديهم، يقرأون بسرعة ويهتزون مع القراءة ولا يكادون يحسون بمن يتقدمون وسطهم.

- كان قبرا الرسول وأبو بكر في بيت عائشة لكن عمر أوصى أن يدفن معهما. منذ دفن عمر لم تستطع عائشة أن تتفضل في ثيابها حرجاً من عمر. هكذا قالت هي. بعد ذلك أُلحق البيت بالمسجد.

البلتاجي يتحدث وانا لا أهتم بالرد عليه. سأقرأ الفاتحة وأطلب الرحمة لأبي والصحة لأمي والتوفيق لإخوتي. وقفت أمام قبر الرسول وصاحبيه وأوشكت على التراجع. كيف حقاً لا أبكي؟ من ينقذني من حالة الخلاء الروحي التي تلبستني منذ زمن طويل.. منذ أمسك أبي بأيادي اخوتي وسلمهم إليّ.. منذ قالت وهي تبكي

«تركتني في اليوم الخامس من يونيو. الا يذكرك هذا التاريخ بشيء؟ يوم لا يمر كل عام كبقية الأيام.. يوم سيظل معنا، حتى لو حاربنا وانتصرنا ونسيه الناس، سأكون أنا الوحيدة التي لا تنساه، لأنك تركتني فيه. لماذا يا اسماعيل لا تعرف كيف تختار؟ لماذا تكون طعنتك باقية طول العمر. لا يشفي جرحي انتصارنا يوماً على اسرائيل. يا طول جرحي وبئس عذابي».

وخرجنا. ما كدنا نخرج حتى سألني:

ـ هل أنت تصلي حقاً؟

ـ لا.

أجبت دون أن انظر اليه. وددت أن أكذب، ووددت لو قلت: نعم.

ـ أنا أيضاً لا أصلي لكني كنت خائفاً مثلك. هيا نر المدينة..

* * * * *

عريض ممتد أحمر قاني قاتم منطفيء هاديء مستكين غامض يغمره الضوء، فينام داخله ولا ينعكس كأنما هنا نهاية الرحلة وموئل الراحة. انه جبل أحد. الهواء يملأ الفضاء أمامه بارداً منعشاً، والجبل الذي يحوط المدينة من الشمال كأنه حارس صامت يقف في ثبات يقيها شرور الزمان. جبل في لونه حزن وخشوع. والواقفون قليلون لا يزيدون على باعة التمر الجاف والحناء والعطر في الزجاجات الصغيرة والسواك، ونحن، كأنه لم ينزل المدينة غرباء غيرنا اليوم. لا احد يتكلم من الباعة ولا صوت يرتفع.

ـ التمر والحناء والعطر والسواك سنة عن الرسول، والكحل أيضاً.

ـ قال البلتاجي ولم يتكلم أحد غيره ذلك الاصيل. وعاد يقول:

ـ كان الرسول نظيفاً مقبلاً على الحياة. كان يحب كل شيء ولا يرضى بالقليل إلا في المال والطعام. أنظر، من هنا جاء خالد بن الوليد.

أشار الى المكان الشهير للواقعة.

ـ وهنا كان يقف المسلمون.

ورأيت حيث أشار مستطيلين من الطوب الصغير على الأرض.

ـ هذا الطوب يحدد قبريْ حمزة ومُصعب بن عمير. أعظم شهداء الواقعة. هل تعرفهما؟

ـ أعرف حمزة. ذلك الذي أكلت كبده أم معاوية.

قلت. وتهدج صوت البلتاجي فجأة بالبكاء.

ـ كان مُصعب فتى الفتيان في قريش. أجملهم وأغناهم، وإذ آمن بالدعوة ترك كل شيء، وتحمل الجوع والعُري وهو محاصر مع المسلمين في شعب أبي طالب، وأبدا لم يستسلم. كان هو حامل الراية ذلك اليوم، ولم يتركها حتى تمزقت أعضاؤه ومات.

وسكت. ومن فوق الجبل هفت علينا نسمة طيبة طرية، وكنا نوشك على الدخول في المغرب حيث يتسلل الليل على مهل، والشمس على يسارنا بعيدة حمراء تتراجع عن الدنيا في حزن، وأنا أرى المسلمين يتركون مواقعهم فوق الجبل وينزلون حتى لا تفوتهم الغنائم والمعركة توشك أن تنتهي بالانتصار، فإذ بخالد بن الوليد يظهر عالياً كجبل فوق الجبل ومعه جنوده ويغيرون على ظهر المسلمين، ويثبت الرسول، وتنكسر سنته، وينهزم المسلمون، وسؤال الامتحان الدائم عن العبرة من الهزيمة، والإجابة طاعة القائد.. لكن لماذا كان السؤال يتكرر كثيراً؟

وتحرك البلتاجي يمشي فمشيت.

* * * * *

في الحجرة التي كان نورها ضعيفاً أحسست بالاختناق. فطلبت مصباحاً آخر أكبر. واندهشت من عدم ادراك البلتاجي لضعف الضوء هو الذي يبدو شحيح النظر. استلقيت على سريري أفكر ما الذي أشعر انه ينقصني المينة. التليفزيون؟ استطيع ان أنزل إلى بهو الفندق. لقد لمحت جهازاً، ونحن ندخل عائدين، بعد أن تناولنا طعامنا في مطعم صغير خلف الفندق. لكن أي نزلاء هنا استطيع ان اجلس بينهم؟ باكستانيون أو افغان او أتراك.. مسلمون ومن كل البلاد، فالمدينة لا يدخلها غير المسلمين. لكن ما يدريني ان الآسيويين سيجلسون صامتين. قد يتكلمون ويتقاذفون بكلماتهم السريعة ويفسدون جلستي أمام الجهاز. لأبقَ اذن في الحجرة. وسألني البلتاجي:

- كم صار لك في المملكة؟
- ثلاثة أشهر تقريباً.
- هل تعمل عملاً ثابتاً؟
- لا أفهم ماذا تقصد.

كان مشغولاً باعداد كوبين من الشاي بجهاز كهربي صغير أخرجه من حقيبته. لم يرد إلا بعد ان انتهى ورحنا نشرب الشاي:

- اقصد هل تعمل بعقد رسمي أم مثي؟
- تعاقدت قبل حضوري. لكن كيف تعمل هنا بلا تعاقد؟

ابتسم واجاب:

- كان عليك أن تدرك ذلك وحدك. ألا ترى معي عدة الشاي؟

واشار الى الحقيبة الملقاة جوار الحائط، وقال:

- فيها كل ما يلزمني. صغيرة كما ترى ولكن تحوي الكثير.

وقام وفتحها، واخرج منها مرتبة تمتلىء بالهواء فتصلح للنوم، ولحافاً يمتلىء بالهواء ايضاً ويدخل الإنسان فيه ويغلقه حوله بشُنَت في الجانبين، واشياء أخرى كثيرة، وقال:

- جئت في عُمرة منذ عام ولم أعد إلى مصر. لقد وجهوا إنذاراً لكل من يعمل هنا بلا عقد رسمي، أن يصحح موقفه قبل شهر رجب الماضي.
- لماذا إذن لم تتعاقد قبل الموعد؟
- لأنني قد أسافر في أي وقت.

وسكَتَ ولا بد انه أدرك ارتباكي، فقال:

- كان من السهل أن أتعاقد قبل القرار الاخير. الكفلاء يحبون هذا النوع من العمالة الذي لا يرتب عليهم أي حقوق للعمال. بعد القرار صار خطراً على الاثنين معاً العمل دون تعاقد، لكنني لم أتعاقد. ما زلت أجد الكفلاء الذين يغامرون بتشغيلي. أنا استطيع أن اقوم بأعمال كثيرة أقلها الكتابة على الآلة الكاتبة. لكن هذا ما حدث. لذلك أنا لا أسلَمُ من المطاردة. عند وصولك إلى المطار كنت انا ضمن المقبوض عليهم لترحيلهم لانهم يعملون بلا تعاقد رسمي، لكنني استطعت الهرب. كل مرة يتم القبض عليّ استطيع الهرب.

تأملته في غاية الدهشة. قلت:

- كل هؤلاء الذين كانوا محاصرين برجال الشرطة مقبوض عليهم؟

- وأكثر منهم كل يوم يتم ترحيلهم.

وسكتنا قليلاً ثم قال:

- لا بد أنك ستسألني كيف استطعت الهرب.

قلت في أسى:

- ما يدهشني كيف وأنت الشخص الذي يبدو مثقفاً متعلماً، تقبل لنفسك هذا الوضع الصعب.

*****

وكأنما كُتِبَتْ لي هذه الليلة في لوح القدر. لقد أحسست حين وضعت قدمي على سلم الطائرة في طريقي للمدينة، أنني سوف أرتاح قليلاً من خوفي الباهظ من تطور الأمور مع واضحة. تركتني أمسك يدها بين يدي في الدرس التالي ليوم رؤيتي لجدها. قالت فجأة لماذا تعاملني بهذه القسوة؟ وكنت أنا أرفع صوتي بلا سبب في الحديث كأني أود تنفيرها من الأمر كله. ربَّت على ظهر يدها فَتَرَكْتُها فأخذتها لتنام بين راحتي يديَّ، وأحسست كأن بينهما عصفوراً صغيراً يود لو ينتفض فلا يستطيع. عصفور دافئ ينبض الدم متسارعاً في عروقه. حالفني الحظ وتركت يدها في اللحظة التي سبقت دخول خالد إلينا. لم يقابلني حين ذهبت. كان عائداً لفوره من رحلة قصيرة للرياض. لم يدخل إلينا قط في أثناء الدرس. فعلها اليوم ودخل يصافحني فارتعشت كما لو كان رآني بالفعل. احتجت إلى وقت حتى استجمع أنفاسي بعد أن خرج. وكأنها كانت تعرف، كانت تكتب وتبتسم من خوفي وارتباكي.

لماذا حقاً لا أستطيع الابتعاد، ولا أطيق الاقتراب من واضحة

بنت سليمان بن سبيل. إنها أصغر من كل هذا العناء. «واضحة بنت سليمان بن سبيل عادت سيرتها الأولى. اليوم ضُبطت متلبسة مع المصري اسماعيل خضر موسى وستُرجم وسيُرجم. لن يُرحَّل من البلاد. سيُلقى به من طائرة إلى صحراء الربع الخالي. مصري ملعون مثل رئيسه الذي يدعو عليه المسلمون ليل نهار أن يموت لأنه وطىء القدس بقدمه المدنسة، وجلس مع اليهود الذين أمرنا الله أن نقتلهم حيث نثقفهم. يا أرحم الراحمين. يا صالح سنيور الثقيفي أغثني بفيلم آخر. وذهبت إلى صالح، وكان غالب وحده الموجود، وكان يبكي، وصالح يسبه، يا صالح إنه ولد مسكين هزلان فقير ممزق الثياب. يا أستاذ أنت لا تتدخل، هذا الملعون لا مسكين ولا فقير. هذا مصاب بزهري يا أستاذ. انظر إلى قدميه.. ملأ جسمه كله ولا يقول الكلب. لقد مزقت كل الشرائط وها هي أكوام أمامك ورفعت الفيديو والتليفزيون من الغرفة. هؤلاء الأوساخ يريدون قتلي. اخرج يا أخا القحبة. وغالب يبكي بحرقة، وصالح يدفعه أمامه بعصا صغيرة حتى لا يلمسه ولا يلمس ثيابه ويعود يكلمني. هذا طرده أبوه من المنزل حين عرف القصة. حطم التليفزيونات السبعة التي في بيتهم وحطم أجهزة الفيديو. أبوه مجنون اشترى لكل ولد من أبنائه تليفزيون وفيديو حتى لا يتنافسوا ولا يتهاوشوا. المشكلة يا أستاذ ان هذا الكلب لا يكتفي بالأفلام الجنسية، والزهري يا أستاذ مرض خطير. هل لا تعرف ذلك؟ اعرف يا صالح وهيا بنا نبدأ الدرس. لا درس اليوم يا أستاذ. لا تخف. راتبك محفوظ. من قال يا صالح إني استطيع أن آخذ راتباً بلا عمل؟ ومن قال يا أستاذ إني احتاج الدرس. أنا أنجح. يأتي المدرسون قبل الامتحانات الى مخزنتنا، يأخذون البطانيات وأثواب الحرير

والصوف وأنجح. لا تنظر إلى عمري. أنا أرسب بإرادتي. بإرادتي
لا أذهب للامتحان. أعطي المدرسين ما يريدون وآخذ ما أريد ولا
أذهب للامتحان. أبي رجل حمار يأتي لي كل شهر بمدرس فأطرده.
أنت أحببتك وسأطلب من أبي أن يعطيك راتباً أكبر بشرط أن لا
تدرس لي يا أستاذ. اجلس نتحدث في أي شيء إلا الدرس. ومشيت
والظلام فوق الدنيا أكثر من كل وقت، وركبت سيارتي ولم انتبه
للطريق الذي اخترته، ورأيت المنزل الموقوف به سيد الغريب مظلماً
كله خارجه وداخله، ومغلق الأبواب والنوافذ، ولا صوت إلا صوت
ذؤابات النخيل العالي يحركها الهواء برتابة. ومشيت فوجدت نفسي
في شارع ضيق لكنه مضاء بمصابيح صغيرة أعلى أبواب البيوت،
ورأيت غالب في أحد الأركان ممدداً، وقد أسند ظهره الى جدار بيت
قديم، ومد ساقيه على الأرض. وحوله وفوق ساقيه تتقافز القطط.
فأحسست بالقرف من كل شيء، وفي البيت لم أوافق سعيداً ووجيهاً
واستمر في المهزلة. قلت لوجيه ما كان عليك أن ترشحني للدرس لمثل
هذا الولد، وقلت في المدينة أمس فقابلني البلتاجي. قال: هنا يا
صديقي اسماعيل تقذف الطائرات بالأحلام والمنى تتدحرج أمام
أرجل القادمين قريبة جداً من أيديهم لو انحنوا. كل شيء في الدنيا
تجده هنا. لعب أطفال هونج كونج جوار بيض رومانيا الشيوعية
وملابس تايوان القذرة جوار دجاج بلغاريا الشيوعية أيضاً وعطور
باريس جوار ساعات كوريا المزيفة واليابان القوية. هنا تبيع كل
العملات وتشتريها كما الشهيق والزفير. هنا شرطة أيضاً للجرائم
الصغيرة. أما الجرائم الكبرى فغالباً يحتويها الظلام. هنا نهر
متدفق سيال لا يعترضه جندل ولا شلال. نهر من المكاسب فقط
عليك أن تختزل من عمرك بعض أعوام تنسى فيها أن يكون لك

صديق. أن تحب أحداً وأن يحبك أحد. أن تكون مثلي راضياً بكل
شيء ولا تفكر حتى بما تأكل. جبنة شيدر من استراليا أم جبنة
حلوم من قبرص. لحم ضأن من الأردن أم ضأن محلي بلا طعم. أنا
رجل وقف عند فكرة فوقفت الدنيا أمامي. كان ذلك منذ زمن بعيد
جداً. قبل ثورة يوليو، حركة الجيش، وكنت لم انته بعد من دراسة
القانون بالجامعة. قامت الثورة وأنا في السجن فأخرجوني كما
أخرجوا كل الوطنيين، لكنهم عادوا وأخذوني عام ١٩٥٤، وكنت
انتهيت من دراستي وتزوجت، وقالوا إني من الإخوان. وأخرجوني
بسرعة حين عادوا الى ملفي عندهم. ملف الملكية الذي تسلمته
الجمهورية الفتية. وعادوا وأخذوني عام ١٩٥٦ لأشهر قليلة وقالوا
شيوعي، وأخرجوني قبل العدوان بأيام، فذهبت اقاتل في القنال،
وعدت بعد الحرب وسلمت سلاحي. أتعرف؟ قليلون هم من سلموا
سلاحهم. الكثيرون باعوه أو هربوه. وعادوا وأخذوني عام ١٩٥٧
ولم أخرج بعد ذلك إلا عام ١٩٦٤. رأيت ابني الذي صار عمره
تسع سنوات، وابنتي التي صار عمرها سبعاً وأخذوني عام ١٩٦٦
وأخرجوني بعد النكسة بشهور وأخذوني عام ١٩٧٠ وانتهى دور
جمال عبد الناصر معي وتسلمني السادات الذي أفرج عني وعن
غيري وتركني في الشوارع أربعة أعوام ثم أخذني عام ٧٥ في أول
أيام السنة وأخرجني بعد ثلاثة أشهر ليأخذني عام ١٩٧٧
ليخرجني وأخرج أنا من مصر كلها.. هل كنت أحتاج حقاً الى كل
هذا الوقت لأكره الوطن؟ أم فقط جئت لأن زوجتي حوّلت الشقة إلى
روضة أطفال استعاضت بهم عني، وعن ولدنا الذي يعيش في
السويد الآن، وبنتنا التي تزوجت مدرساً معاراً الى الجزائر؟ أنا لا
أعرف لماذا أتيت الى هذه البلاد دون غيرها. كنت أدخل وأخرج من

السجون أكثر قوة رغم كل ما، لعلك سمعت عنه، من مآس بالسجون. زوجتي فقط هي التي انكسرت. تدهورت وشابت بسرعة وشاخت. المرأة كالأرض بلا ريٍّ تتشقق. لا تسألني لماذا لم اسافر الى أوروبا كما فعل الكثيرون، ولا لماذا لم أذهب الى بلاد عربية اخرى وآخذ صحيفة واذاعة وأشتم؟.

وبكى. ولم يتوقف مما زوتي غبي يستمرىء العذاب. رفضتُ ان أتعاقد مع أحد لأظل معرضاً للترحيل. مريض أنا، متفوق في مرضي، يستحيل علاجي.. أم تراني اود فعلاً أن يعيدني الى بلدي احد. أن يجبرني أحد على حب البلاد؟ لم أكن شيوعياً أبداً يا أخ اسماعيل ولا طبعاً كنت من الاخوان. بالقوة ادمنوني السجون فقط لأني بدأت حياتي بحب الوطن،.

وأجهش في البكاء بصوت عالٍ. فقمت من فوق سريري مرتبكاً وجلست جواره فوق سريره.

- هوّن عليك يا أستاذ كامل.

- هل تعرف لو عرفوا عني شيئاً هنا كم سيفاً سيُجري فوق عنقي؟ هنا النملة لو شردت من طريقها ستجد فوقها ألف قدم. هنا لو أذن الديك قبل الفجر ما رأى فجراً بعد ذلك ولا صباح. هنا لافتة (انت فوق الجحيم). لقد فعلها السادات وضيعنا جميعاً معه رجل واحد اضاع امة. اي قطيع!؟

* * * * *

لم أسمع البلتاجي بعد ذلك إلا قرب الفجر. نمنا واحسست قبل النوم بتعب لم اعهده. اختلط آذان الفجر الذي أيقظني بنحيب

مكتوم لم أتبين مصدره إلا بعد لحظات، ولم استطع النهوض للحديث معه مرة أخرى. خشيت ان أُخجله، وظللت على وضعي نائماً وعلى انتظام أنفاسي. تذكرت ما فكرت فيه قبل أن انام. القصة لها جوانب خفية لم يدلِ بها. ثم ما الذي حقاً يجعله يشعر كما لو كان هو الذي يقفز من القطار تحت العجلات كلما قرأ رواية مالك حداد؟ لقد تمنيت لو حدثني في الرواية مرة أخرى، ووددت لو قلت له اني كنت مشروعاً صغيراً لكاتب للقصة أيضاً إلا اني نسيت. علّقتني رسالة أبي في الدنيا بين السماء والأرض، وابتلع الفضاء كل الكتب والأوراق والأقلام. لكنه داهمني بحكايته. يا له من عاجز مسكين! ان أعظم ما اودعني الله هو النسيان. لولا نعمة النسيان لصرت مثله فلكل منا سجن ضيع فيه شيئاً عزيزاً حتى ولو لم يطل سجني.

ونمت من جديد ورأيته. الديك الضخم رأسه هناك في الأعالي وعُرْفُه في السماء السابعة وجسمه ممتد الى الأرض وجناحاه يملآن فضاء الدنيا بالألوان الزاهية، ثم راح يضرب بجناحيه الهواء فتهب ريح واعاصير ويصير برد ثم يسكت فيصير حر ويعود يخفق بجناحيه فيندفع الهواء البارد يكاد يجمدني أنا الذي أنظر اليه من أسفل في فزع ثم يسكت فأكاد أغرق في بحر العرق وأموت وأحس كما لو أن أحداً يمسك برأسي يضعه في برميل ماء فاختنق واضرب بذراعي الهواء وفي اللحظة التي تكاد فيها الروح تَفِرُّ مني يرفعني فتتواتر انفاسي ويصيح الديك كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس وإذ برأس الديك يسقط فوق صدره ويندفع الدم يملأ الفضاء بلون أحمر وتغرق الأرض في

الاحمرار وأسمع ضجة في الخارج، فأصحو فزعاً فلا أجد البلتاجي ولا حقيبته. ترك لي فقط رواية (اليس في رصيف الأزهار من يجيب) وصوت عجلات القطار.

١٣

هنا يمكن للإنسان أن ينسى كل شيء. أدرك ذلك جيداً. الوقت المترهل مثل الوقت المزحوم. الإثنان يغرقانك.

كان عليّ صباح وصولي إلى تبوك أن أبدأ في تحرير استمارات الضمان الاجتماعي التي احضرتها من المؤسسة الرئيسية في المدينة. لم أبق في المدينة غير نهار اليوم الثاني. ذهبت في صباحه الى المؤسسة وأخذت الاستمارات، وفي مسائه أخذت الطائرة عائداً.

كثيراً ما فكرت أنني ساصطدم بالبلتاجي مرة أخرى في الطريق، وربما في المطار لكن هيهات. كأنما كان حلماً. والآن وأنا جالس في غرفة مكتبي أملأ خانات الاستمارات ببيانات العمال لا يفارقني وجهه. ووجدت نفسي أتوقف عن العمل. أقف وأبتعد عن المكتب، وأدور في الحجرة أعصر ذهني، لأتذكر اين رأيت وجه البلتاجي من قبل. في الصحف. أجل في الصحف المصرية. كان ذلك منذ سنة.. سنتين.. وربما ثلاث. لا أذكر بالضبط. ورأيته أكثر من مرة. في أي صفحة ولأي سبب؟ لا أذكر.

وعدت أجلس الى مكتبي غير قادر على مواصلة العمل. مكتوب

إذن أن أنسى هذا الرجل مرتين متبوك تنسيك امك وابوك، مثل حقيقي هنا. لا يحتاج المرء الى اكثر من يوم واحد من النسيان ثم ينسى إلى الأبد. لا أحتاج الى أكثر من دقائق مع منصور حتى أنسى كل شيء إلا منصوراً. دقائق مع نبيل فأنسى كل شيء إلا نبيلاً، أو أرشد كذلك ومنذر. نظرة إلى اليمني الذي سيأتي في موعده يحرك السواك في فمه، أو موقف سخيف من عابد. لكن تبوك كانت اكرم. أضاء باب الغرفة بوجه متألق وشعر أشقر حرير وعينين زرقاوين باهرتين. إمرأة سافرة الوجه، تقف بالباب، تنظر الي بابتسامة واثقة. إمرأة حقيقية ترتدي بنطلون الجينز الضيق وفوقه بلوزة حمراء الياقة وبلوفر أزرق. وعلى كتفيها وظهرها شال أبيض. ووجدت نفسي أقف.

- غود مورننغ.

قالت ودخلت وجلست أمامي وسألتني ما اذا كنت أعرف الانكليزية. كل ذلك في وقت واحد تقريباً. ولم تكف عن النظر إليّ باتساع باهر في عينيها. بدا أنها تكاد تضحك من ارتباكي وقالت إنه يمكنني أن أجلس، واكتشفت أني ما زلت واقفاً فجلست، وسألتني أن أطلب لها فنجاناً من القهوة من مستر نبيل. تعرف نبيلاً إذن.

وتساءلت هي.
- أين مستر عابد؟
- في مكتبه.
- ليس هناك.
- لا بد انه خرج لأمر سريع وسيعود. هل من خدمة أؤديها لك؟

وظهر نبيل عند الباب يبتسم، ويقول بدهشة، مصطنعة، وبصوت تمثيلي عال:
- أوه مسز روز!

ضحكت هي، وابتسمتُ أنا، ودخل هو يصافحها. أعطته يدها دون أن تتحرك، فأبقاها قليلاً في يده وهو يخاطبني:
- روز ماري زوجة مستر لاري، أجمل أجنبية في البلاد.

ترك يدها، فغمزت لي بعينيها، وهزّت كتفها وسألتني عما يقول. ترجمتُ لها الكلام فضحكت وقالت:
- لانني المرأة الأجنبية الوحيدة هنا.

ابتسمتُ وبدا لي الأمر سهلاً. هذه سيدة بسيطة تعطيك الإحساس بالالفة. وسألت نبيلاً أن يعد لنا فنجانين من القهوة. ما كاد يخرج حتى فكرت كيف تعرف نبيل حقاً. مضى عليّ ثلاثة أشهر هنا ولم أرها. هل تأتي في موعد آخر بعد مواعيد العمل؟
- هل أنت جديد هنا مستر...؟
- اسماعيل. لي ثلاثة أشهر هنا.
- آسفة لم أرك. لقد سافرت إلى أميركا الأشهر الثلاثة الماضية.
- هل تعملين هنا؟

- مستر لاري زوجي هو الذي يعمل. العمل ممنوع بالنسبة لي. أعمل بشكل خاص وسرّي في حضانة مستر عبد الله.
- لا أعرف أن لمستر عبد الله حضانة.

- له حضانة مشهورة بالبلدة تديرها زوجته. كيف لا تعرف ذلك؟
وضحكتُ فأجبتُ:

- ربما لأني أعزب.

واستمرت تضحك. وقالت إن زوجة مستر عبد الله ضخمة جداً رغم أنه ضئيل للغاية، وهي لا تكف عن أكل اللوز طول النهار مع أن هذا خطر جداً على الصحة. ودخل نبيل بالقهوة وقبل أن يخرج سألها

- أمريكا إذْ غود روز؟

- غود نبيل. فيري غود.

وضحكنا ثلاثتنا ثم خرج نبيل الذي احمرّ وجهه بشكل لافت للنظر. مضى وقت طويل ونحن نتحدث. حاولت هي أكثر من مرة الانصراف، وأنا أشجعها على انتظار عابد، فتستمر جالسة، وأتمنى أنا أن لا يعود عابد، ولا يدخل مكتبي أحد، وإذا بالساعة صارت الواحدة، ولم أفطن حتى لإبتسام اليمني الذي رأيته فجأة فتذكرت أننا لم نتبادل الابتسام اليوم، وتبادلناه على الفور، وإذ بعابد يقف بالباب.

- هاللو روز.

هتف وهو يدخل يصافحها، فصافحته وهي جالسة، ولمحت الضيق على وجهه، وقال:

هلا أتيت الى مكتبي؟

وقفت وقالت:

- لا بد أن أذهب الآن إلى الكامب. ليس لديّ وقت أكثر من ذلك. أحببت فقط أن أراكم.

وانطلقت خارجة بعد أن صافحتني، ولوحت له بكفها، وسألني عابد فجأة.

- ألم يسأل عني أحد؟

- روز.

لا أعرف كيف قلت ذلك. نظر إليّ شزراً، وخرج إلى غرفته، وأنا أشعر بالأسف الحقيقي على اجابتي بهذا الشكل الذي لم أخطط له.

* * * * *

على المكتب الاستمارات السخيفة التي كنت املأها وأريد أن ألقي بها كلها في الباحة..

روز ماري اسم جميل بحق. لا يزال في الغرفة شذا عطرها. يا إلهي! كم هي خفيفة كريشة منتشية، كعصفورة مجنونة صريحة دهشتْ لكل اجاباتي. خريج فلسفة، ويعمل مدرساً للغة الانكليزية في مصر، وهنا مسؤول عن شؤون الافراد! أي خلط؟ لكن هذه حالتي بالضبط وأنا فيها غير متفرد بين المصريين. ستجدين هنا عمال محارة وقيشاني من حملة المؤهلات العليا. هذه حالة مؤسفة لكن هذا ما يحدث على كل حال. ولم أشأ الاستطراد. هذا وقت الانكشارية فيه طرَدَتْ مهن الدرجة الثالثة والرابعة العقولَ وساقتها أمامها بسياط السخرية. ميزان العدل مختل في بلادنا، ولعله كذلك في بلادكم والا لماذا جئتم؟ لنا عذرنا وليس لكم العذر. البترول سيد هذا الزمان يقف عند باب حدودنا الشرقية والغربية ويقول أرضُ مصر أرضُ حرام. مؤامرة جغرافية. هل يصدق ذلك احد؟ أنا أصدق. فالمؤامرات تحدق دائماً ببلادنا. وان لم يفعلها العدو نفعلها نحن. لدينا والله وقت كثير لذلك. ولدينا صحف ومجلات

وإذاعـات تجعـل الأسود أبيض والابيض أسود أو عديم اللون والطعم والرائحـة. ولم أقـل شيئـاً من ذلك. تذكـرت فقـط كامل البلتاجي، لكن قلت: «أنت كما تقولين خريجة اجتماع وتعملين هنا في حضـانة اطفال بشـكل سرّي، لا تختلف كثيراً اذن». قالت إن زوجها خبير كبير، وكانت تضحك وتتحداني كأنها تعرفني من قبل، وقالت إنه هو الذي دفعها للعمل بالحضانة لأنه ممنوع أن تعمل، فلا هي طبيبة ولا مدرسة ولا ممرضة. ثم لانَتْ وقالت إنها تقدرني ولا ترى لوماً علي. وقالت إن حلم حياتها أن تقوم ببحث عن حالة الأعراب في البادية الآن.. عن التغير الذي يلحق بسكان البوادي، لكن السلطات لا تسمح لها لأنها غير مُوفَدة من اي جهة علمية. لذلك سافـرت إلى اميركا واستطاعت ان تأتي بخطاب من جامعة شيكـاغـو إلى السلطات لتسهيـل مهمتها، ولم تدر انه ستقابلها مشكلة اخـرى. طلبت السلطات ان يكـون معهـا «محـرم» في تحركاتها. ليس من المعقول ان تسافر امرأة وحيدة بين البوادي، ومستـر لاري لن يترك عمله ليفعل ذلك، والوحيد الذي يمكن ان يسـاعدها هو «جورج»، أخوها الذي لم يوافق على الحضور من اميركا للعيش في بلد تُجلد فيه الناس بسبب الخمر. ضاعت منها الفرصة إلى الأبد. هل رأيت البادية هنا؟ سـألتني. لا. رأيت شحاذاً نزل البلدة في يوم عيد. لم أقل ذلك. ودعتني لزيارتها وزوجها في «الكامب». لماذا حقاً وجهت لي هذه الدعوة ولم يسبق أن عرفتني من قبل؟

* * * * *

رأيت اليمني جالسـاً والسـواك في فمـه، ورأيت بسمته اليوم

أجمل، والشمس كانت بيضاء تغطي الدنيا بدفء جميل. لقد بدأ البرد يشتد بالليل هذه الأيام، وصارت الشمس تصحو معنا مُرهقة تصعد الى السماء في مهل، ولا يبدو أنها امتلكت الفضاء إلا عند الظهيرة. لكن البرد بالنهار ليس قارساً على أي حال. تركت مكتبي والبهجـة التي تركتها روز في الحجرة لا تزال تضحك في وجهي، ودخلت البوفيه فوقف نبيل فزعاً.

- لقد خرج عابد الى البلدة. كيف ستجلس هنا؟

- ما الذي يمكن أن يحدث. تليفون غبي لطلب أكثر غباء. هل لديك مقعد آخر؟

كان حين دخلت يجلس على المقعد الوحيد، يقرأ في مجلة «الوطن العربي»، ويوشك أن «ينكفىء» على الصفحة. ادركت انه ضعيف النظر كثيراً. قال:

- اجلس أنت على هذا المقعد وسأجلس أنا على الأرض.

تكلم واقعي في الحال، والمجلة لا تزال في يده. جلست وقال:

- بوفيه على قد الحال. لا تلمني.

كان البـوفيـه صغيراً للغاية وقذراً، يذكرك ببوفيهات المصالح الحكومية في مصر. دولاب معدني صدىء صغير معلق على الحائط بلا أبـواب، وعلى أرففه الثلاثة علب وبطرمانات للشاي والسكر والقهوة، وتحت الدولاب بوتغاز مسطح فوق منضدة خشبية. يبدو أن نبيل هو الذي صنعها من خشب قديم غير مهذب، وعلى المنضدة اكواب وفنجـانـان. وفي الركن الآخر من البوفيه ثلاجة «وستنغ هاوس» كبيرة بيضاء.

- شيء غريب يا أخي! يشتمون السادات شتيمة فظيعة. كل المجلات هنا تشتم السادات.

- هل تحب السياسة؟

- أبداً عابد يشتري المجلات ولا يقرأها فأقرأها أنا.

ضحكنا وعاد يتكلم:

- يقولون إنه سبب حرب لبنان، وضياع فلسطين، وعميل للأمريكان. أنا أعرف انه عميل للامريكان. كل شيء في مصر أصبح أمريكانياً. ثلاجات وغسالات وملابس. أنا مثلاً لن أشتري شيئاً من هنا لأن كل شيء هناك ـ وسكت لحظة ثم ضحك وضرب جبهته بيده

- إنهم لا يقصدون ذلك. عميل يعني جاسوساً.

وضرب الأرض بالمجلة وتركها ووقف يسألني:

- تشرب شاي؟

- قهـوة.

أجبت وأنا أضحك، وتناولت المجلة أقلب صفحاتها بينما انشغل هو بإعداد القهوة التي قدمها لي وقال:

- الغريب أنك حين ترى السادات في التليفزيون يصعب عليك. يذكرك أحياناً بفؤاد المهندس.. أيّ والله.. لكن.. فلسطين ضاعت من زمان، وحرب لبنان قائمة من زمان أيضاً، أمعقول أن السادات هو السبب؟ بلا سياسة.. بلا نيلة.

وتناول المجلة التي كنت وضعتها على الأرض، ومزقها ووضعها في سلة المهملات، وأنا أضحك حتى دمعت عيناي. وسكتنا طويلاً حتى قال:

- والدي الله يرحمه كان له في السياسة.

- أبـوك؟

- أظن المسألة واضحة يا اسماعيل.

ضحكنا وأنا لم أكن أقصد شيئاً. أدهشني حضور بديهته وطريقته في الكلام اليوم.

- زمان، زمان جداً. كان أبي من الإخوان الذين اشتركوا في حرب فلسطين. عاد مقطوع الذراع والساق. أي والله. الساق اليمنى والذراع اليسرى. شيء لن يصدقه أحد. لكن هذا ما حدث ـ وبدا جاداً فجأة ـ كان سبباً في تعاسة الاسرة. لا عمل ولا قدرة ولا أحد يسأل. قامت الثورة ولم يبق للاخوان قيمة. هكذا كان يقول أبي، وهكذا حدثتني امي فيما بعد. انا وُلدت يوم قامت الثورة. اليوم نفسه. لا تسألني كيف استطاع ابي ذلك فأنا أشبهه تماماً وأكثر اخوتي شبهاً له. صورته لدينا معلقة للآن. كان لي خال مجنون يساعدنا ويأخذني إلى الإذاعة في عيد الثورة، بعد أن أصبحت قادراً على المشي والكلام. كان هناك أطفال كثيرون يذهبون في اليوم نفسه. اطفال كثيرون جداً وُلدوا يوم الثورة. كانوا يذيعون أسماءنا ويعطون كل طفل باكو شيكولاته ونصف جنيه. أمي قالت جنيه. كان خالي يأخذ الفلوس ويعطيني الشيكولاته. ما علينا. لا تضحك من فضلك. هذه حقائق وليست قصصاً. صدقني. جاء يوم كان أبي كعادته ممدداً في حوش البيت الواسع يتشمس. كان النهار يطلع فيخرج اخوتي الاكبر مني للعمل، وتخرج أمي إلى السوق، ويزحف أبي الى حوش البيت، وأنا العب حوله. بيتنا قديم جداً من أيام المماليك. حجراته واسعة تسكن في كل حجرة أسرة

كاملة، وللبيت بوابة ضخمة لها ضلفتان من جذوع الأشجار المحاطة بالحديد. بوابة مفتوحة لا يمكن لاحد أن يحركها لأن التراب علا حولها من أسفل. تصور انه فوق البوابة توجد سورة الفاتحة منحوتة في الحائط بلون أزرق باهت وتحتها خان السنجقدار.. ولا يوجد اسمه. يوجد فقط اسم الذي بنى البيت المعلم محمد إبراهيم وولداه إسحق ويحيى. هذا مكتوب على البوابة.. لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك وسكنا في شقة مستقلة في الحي نفسه. حي المذبح بامبابه. كبُرنا وصرنا رجالاً. ثلاثة اخوة واربع اخوات. واحد من اخوتي في السجن الآن. كان موظفاً بالبريد واختلس فلوس التوفير. أي والله لا تضحك. (تعود إلى أبي). في ذلك اليوم الغريب جداً دخل حوش البيت جملٌ هائج. جمل عالٍ كأنه قطار داس فوق ابي الذي لم يستطع الحركة ولا الصراخ. ربما صرخ ولم يخرج صوته. أنا كنت في طرف الحوش أصرخ، والجمل يدوس فوق أبي مرة ومرة ومرة. يتراجع ويهجم على أبي رافعاً ساقيه الأماميتين، وأرى خفيه عريضين أسودين يدوس بهما على ابي الذي يرفع ذراعاً واحدة لا تصل إلى عنق الجمل وساقاً واحدة لا تصل الى بطنه. لقد خَرَجَتْ النساء من الحجرات، والاطفال، ووقف الجميع يصرخون. لم يكن هناك رجل واحد. كل الرجال كانوا قد خرجوا يعملون في المذبح القريب. وفجأة قفز إلى الحوش خمسة من الرجال معفرين منكوشي الشعر كأنهم الجنون الحمر يمسكون حبالاً وسواطير وسكاكين، لكنهم وقفوا مذهولين. كانوا هم اصحاب الجمل، وكان الجمل يبتعد عن أبي على خطمه زَبَدٌ كثير، وأبي سَكَنَ ولم يعد يرفع ساقاً ولا ذراعاً. وقف الجمل يتنفس متعباً، ثم اناخ بهدوء على الأرض والرغاء على خطمه ينثال على التراب ثم مَدَّ عنقه

كمن ينام وانقلب على جانبه، والرجال الجنون الحمر تقدموا منه بحذر، وعقروه من رقبته، وجروا الى الخلف، لكن الجمل لم ينهض ولم يهتج. فقط رفس رفستين وسكت مثل ابي.

وسكت نبيل طويلاً. أطرق ينظر الى الارض يخفي دمعاً يحاول الانسياب، ثم رفع الى وجهه وهو يمسحه بكفيه، وابتسم وقال:

ـ عملت بنصيحتك. لم أرسل لخطيبتي شيئاً هذا الشهر. لم يصلني منها خطاب بعد. أيضاً لم ارسل لأمي ولم يصلني منها خطاب.

* * * * *

عدت الى حجرتي أشعر أن شيئاً ثقيلاً فوق كتفيَّ يكاد يحني ظهري. وكأن اليمني الجالس في الشمس ينتظر نظرتي ابتسم. لم ابتسم وكدت اقترب منه. أود لو صرخت فيه هاتفاً: لماذا تخايلني كل يوم بابتسامتك البلهاء؟ من الذي اعطاك حق الجلوس بلا عمل؟ ماذا تعرف هنا عني حتى تبتسم لي؟ لكني دخلت الغرفة وسمعت صوت سيارة تدخل الباحة مسرعة. ليكن من يكون فيها. لديَّ اجابة جاهزة على السؤال السخيف. لم يتصل أحد يسأل عن شيء في غيابك يا عابد ويا عم عبد الله. لكن الذي دخل الغرفة كان عابداً ومعه شاب مصري يرتدي بذلة أنيقة، وله وجه حسن، ونظارة بيضاء، وشعر أسود مهذب، ويحمل حقيبة سمسونايت لامعة.

لم يسألني عابد عن شيء. جلس خلف المكتب المجاور للخازنة، وجلس الشاب الأنيق أمامه، وجلست انا إلى مكتبي.

ـ الاستاذ اسماعيل. زميلنا.

قال عابـد للشـاب الذي قام يصـافحني بدمـاثـة ثم جلس، وخاطبني عابد:

ـ الأستاذ عبد الحميد مندوب بنك الدلتا جاء إلى هنا لترويج سندات بنكية، هل تحب الاشتراك فيها؟

ـ ليس الآن.

ـ أنا كنت أعرف ـ وخاطب المندوب ـ أنا سأشتري بعشرين الف دولار.

قال ذلك ونظر إليّ، وفتح المندوب الحقيبة يخرج أوراقه فقمت وتركت المكان كله. كان عابد بالبلدة ويستطيع انهاء الشراء هناك، لكنه أتى بالمندوب ليبدي لي ما تصور أنه إهانة من روز ماري التي جاءت تسـأل عنـه فجلست معي، ووجهت لي الدعوة أمامه، ولم تذهب معه إلى حجرته.

* * * * *

اخذتني قدماي إلى الجراج. ورآني أرشد ونحن نشرب الشاي أحملق في طبعة جريدة (الشرق الأوسط) الانكليزية الموضوعة على المنضدة بيننا.

ـ لا عليك مستر اسماعيل. هذه مشاكلنا في باكستان.

قال ولم يأخذ الجريدة ولم يعتذر عن وجودها في العمل. لم يعد يخشى جانبي. في الجريدة مقال يشغل مساحة كبيرة عنوانه «الراي العـام يضغـط من اجـل انقاذ بوتو». وكنت أعرف من الصحف

والاذاعات أن بوتو ينتظر محاكمة ثانية بعد أن قدم التماساً بإعادة النظر في حكم الاعدام. قال:

ـ ضيـاء الحق يطبق الشريعة الاسلامية الآن. إنه يستجدي المملكة السعودية مستر اسماعيل.

سألته.

ـ هل تعتقد انه سيعدم بوتو فعلاً؟

اجـــاب:

ـ سيقتله. ولو استطاع أن يقتله مرتين لفعل مستر اسماعيل..

ورأيت نبيلاً يدخل مضطرباً إلى الورشة يخاطبني:

ـ تعال بسرعة. عم عبد الله يسأل عنك.

سبقني في العودة ومشيت خلفه مسرعاً. أصابني بعدوى الهلع الذي كان في عينيـه، لكني فكرت هل يتصـور أرشد اني مهتم بالسياسة الى هذا الحد. وفكرت أيضاً كيف فسد اليوم كله.

١٤

اشتد البرد. اليوم هو الثاني والعشرون من ديسمبر. في الصباح نجد المياه في الحنفية مجمدة. هذه حالة لا تحدث إلا في البيوت العربية المكشوفة التي يظل الطلّ ينام في ردهتها طول الليل. المشي في الردهة الصغيرة من الغرفة الى دورة المياه كأنه سباحة في بحر من الثلج. التليفزيون الآن له طعم مختلف، لا يذكّرني بأن الدنيا أكبر مما حولي، يشعرني بالدفء، نشاهد برامجه في غرفة فاروق الخالية.

ـ لسنا في حاجة الى شريك رابع.

قال وجيه.

ـ نجعل غرفته غرفة معيشة.

أردف سعيد. انقطعت أخبار فاروق تماماً. لم يرسل إلينا ولم يأتِ له ذكر في خطابات أسرتي، ومضت ثلاثة أشهر هي مدة الفيزا التي خرج بها. لن يعود.

نقلنا إلى غرفته منضدة جعلناها سفرة وبعض مقاعد وتركنا سريره كما هو. أحْرِصُ أن يكون صوت التليفزيون عالياً ويدهش سعيد ووجيه. أقول إن موجات الصوت تُزاحم موجات البرد

وتطردها من الغرفة. يقولون أنني داخل على مرحلة من الجنون، ونضحك. في السادسة والنصف صباحاً أغادر البيت. أجد سيارتي أمام الباب مغسولة بالندى، وكل يوم تملأ الفضاء شابورة كثيفة لا تنقشع قبل التاسعة. بعد أن أدخل إلى سيارتي مرتجفاً وأغلق بابها وأديرها أنفث بخار الماء من فمي، وأتذكر مبارياتي مع الأطفال في طريقنا إلى المدرسة. من الذي ينفث بخاراً أكثر لوقت أطول. كل يوم الآن أفعل ذلك وأضحك. اليوم اختلف. صحوت أشعر بغثيان. ذهبت إلى الحمام وبقيت فيه بعض الوقت أستجيب للرغبة في القيء ولا يحدث. عدت إلى الغرفة غير قادر على الوقوف. تمددت فوق السرير وسحبت الغطاء فوقي أفكر ألا أذهب إلى العمل. لكني ذهبت. مضت نصف ساعة وأنا متردد بين الذهاب والبقاء فوصلت متأخراً.

* * * * *

ـ أين أنا؟

ورأيت أشياء رمادية وأشياء بيضاء، وميزت من بينها وجه عايدة قريباً مني.

ـ لا تضع يدك فوق الجرح. لقد مرّت بسلام.

سمعت صوتها. أذكر ذلك وأنا أستيقظ للمرة الثانية. هذا هو الدكتور وجيه يجلس على مقعد جوار رأسي يبلل شفتيّ بقطعة قطن مغموسة بالماء وأنا ممدد فوق السرير. في الغرفة ثلاثة أسرة أخرى عليها ثلاثة رجال نائمين لا أرى وجوههم. أنا في المستشفى والوقت ليل فنور الغرفة مضاء.

ـ ماذا جرى يا دكتور؟

ـ لا شيء. داهمتك الزائدة الدودية فاستأصلناها.

ـ معقولة؟!

ـ ذلك يحدث للناس كل يوم.

ـ أنت الذي أجريت العملية؟

ـ كنت تحب أحداً غيري؟

ـ لا. أشكرك جداً.

وأحسست بأسفي. لم أقصد من سؤالي شيئاً. وقال:

ـ لا تتحدث كثيراً. الأفضل أن تنام. نحن الآن في منتصف الليل. في الصباح احرص على أن تمشي قليلاً.

ثم وقف وقال:

ـ يوجد طبيب نوبتجي وممرضة. إذا احتجت شيئاً. جوارك زر جرس اضغط عليه. هل تطلب شيئاً قبل أن أمضي؟

ـ أين عايدة؟

ـ تعمل بالنهار. ألا زلت تذكرها؟

أجاب وانصرف على الفور ولم ينس إطفاء النور.

* * * * *

ظللت يقظاً في ظلام الغرفة. أذكر الآن كل شيء. لقد وصلت إلى العمل متأخراً. فأخبرني عابد بغضب عم عبد الله وكيف اضطر هو إلى فتح مكتبي لإخراج دفتر الحضور للعمال، ولما سألته كيف فتح المكتب قال عليّ أن لا أنسى أن المكتب والغرفة كلها كانت له من قبل.

حاصرني الضيق وأحسست بمغص مفاجىء، والرغبة في القيء

عاودتني، والغثيان كاد يفقدني توازني. أسرعت الى دورة المياه ووقفت امام الحوض أفرغ ما في جوفي، ولم أكن تناولت إفطاري بعد. خُيِّل الي أن معدتي ستقفز من فمي، وتفصّد عرق شديد على جسمي، واشتعلت الحرارة في وجهي، ولم تعد قدماي تستطيعان حملي، فأمسكت بحنفية الحوض بيديَّ الاثنتين. ولم أدر بعد ذلك إلا وأنا أستيقظ في المساء في المستشفى. لا بد أنني سقطت على الأرض. زائدة ملعونة بحق تلك التي أخذتني بغتة بلا إنذار. هل يكون الموت مختلفاً عن الوقت الذي مضى وأنا مُخدَّر فيه لا أشعر بشيء؟ لا أظن. الموت سبيل إذن. لا أدري لماذا فكرت في ذلك الآن. ربما لأنه المستشفى الذي مات فيه فيليب منذ أيام. لقد ظللت أسرع خلف نبيل حين ناداني وأنا عند أرشد، وعند بوابة الشركة توقف وقال:

- مات فيليب. عم عبد الله حزين جداً..

ولم يقل شيئاً آخر. انحرف إلى البوفيه وتركني أتقدم ببطء إلى غرفة عم عبد الله ذاهلاً. رأيت على وجهه غيظاً مكتوماً. قال:

- سوّ لفيليب مكافأة نهاية الخدمة. شهر ونصف عن كل سنة وأخبرني كم يصير له.

كنت أعرف أن فيليب أو غيره يستحق مكافأة نهاية الخدمة شهراً فقط عن كل سنة. ولأني أعرف أن فيليب يعمل منذ خمسة أعوام قلت:

- سبعة وثلاثون ألف ريال ونصف.

- امتأكد؟

- اجل. كان ملفه على المكتب في الصباح أمامي أنقل منه بيانات لاستمارة الضمان.

- اجعلها خمسين ألفاً. قل على مسؤولية المدير - ثم خاطب عابد الذي كان يقف جواري - وانت تذهب في الصباح بالمكافأة لزوجته. تتصرف الآن لتجهيز الصندوق الذي ستشحن فيه الجثة إلى سيلان. تدفع ثمن الشحن وثمن التذاكر لزوجته وأولاده واحجز لهم على اقرب طائرة.

- ألن يدفن هنا في المملكة؟

تساءل عابد، فصرخ فيه عم عبد الله:

- ايش يعني يُدفن بالمملكة؟ لأنه أسلم؟! يدفن في بلده بين أهله.

وسكت فانصرفنا وأنا أشعر بالرثاء لعابد الذي يبدو ملكياً اكثر من الملك.

دخلت غرفة مكتبي وجلست صامتاً. وإذ بمنصور الذي يختفي كثيراً يظهر داخلاً والقرد فوق كتفه، ويقول بعد الجلوس:

- هه: كان يريد الحصول على الجنسية. كان يريد البقاء في المملكة. قتل نفسه. ذهب اليوم للشيخ بالمحكمة ليشهر إسلامه. انتهى كل شيء، وحولوه الى المستشفى للختان فمات.

- ختان؟!

- طبعاً. ما في ختان في مصر؟

نظرت إليه غير قادر على التخلص من دهشتي. واستطرد:

- ختان رجل مثل فيليب ليس سهلاً. عملية جراحية.

لم اكتف بما سمعت، ولم يكن أحد يعرف شيئاً آخر في البيت

سألت وجيهاً فلم يقل أكثر من ذلك أيضاً وأنا لا أصدق. وجيه الذي لا يريد أن يوضح لي كيف مات فيليب يخفي عني أمراً. وجيه هو الجراح الأول بالمستشفى. ما يدريني أنه لم يخطيء وتسبب في موت فيليب. لكن هل يخطيء طبيب مثله في الختان؟ لا أظن أن روح الغازي المتعالي صاحب التميز تجد لها وسيلة للتعبير في غرفة العمليات. غرفة العمليات مثل غرفة العبادة، يعمل فيها الطبيب بإخلاص في المريض الذي أسلم له روحه. أيكون وجيه سيئاً إلى هذا الحد؟

صرت أنظر إليه ويتحاشى هو نظراتي. لعله فهم ما أفكر فيه، ولعل ذلك هو الذي جعله يسألني اليوم ما إذا كنت أحب لو أجرى لي العملية أحد غيره.

لم أستطع أن أتقبل موت فيليب بسهولة. صرت عازفاً في العمل عن الكلام. وفي المساء ذهبت إلى واضحة، فقالت:

– لماذا تبدو كئيباً على غير ما يرام يا أستاذ. هل تضايقك بلادنا إلى هذا الحد؟

سكتُّ. تأملت عينيها، فأرخت أهدابها فوقهما، لكن كان لا بد أن ترتفع الأهداب. أنا لا آتي إليك إلا وروحي منجذبة للحضور، إلا وقلبي فرح جذلان. لكن دائماً ما يحدث شيء يلفني بالاختناق. وحكيت لها قصة الطبيب المصري الموقوف الذي رأيت بيته في الطريق مرة. ففاض الدم من وجهها، وحكيت لها قصة فيليب، فابتسمت في خجل. قالت ذلك يحدث في كل الدنيا وسننساه. ثم قالت بغضب إنها لا تفهم معنى دخول هؤلاء الناس في الإسلام،

ولا تصدق أنهم حين يعودون إلى بلادهم يحتفظون بالإسلام. تفهم هي بنت البلاد بحسها العفوي كذب الأمر كله. بالضبط كما يفهمه منصور. لكنني أرى في حالة فيليب بعض الصدق ولا أستطيع الدفاع. رجل تجاوز الخمسين ولديه من الأبناء عشرة لا يكذب. رجل ضعيف يحاصره الخوف من العودة إلى بلاده دون أن يكون قد حقق ما أراد لأولاده فاختار أصعب الطرق. ينخلع من جذوره.

قلت لها سأحاول أن آتيك بعد ذلك خالي البال، فابتسمت وراق لي وجهها، وعدت أنظر إلى غزارة شعرها، فتتحرك في جسدي طاقة خفية، وأشم عطرها الغامض فأنكمش ويحاصرني الخوف، وقالت إنها تحب مصر كثيراً وتتمنى لو زارتها، وإن جدها يقول إن أهله في مصر كثيرون ولو سافر واحد منا إليهم لاحتفوا به. وسكتت وقالت المشكلة أن جدها لا يذكر أين يعيش أهله ولا أين كان يعيش. ثم ابتسمت وقالت مسكين شاخ وفسد. وسألتني هل أعرف مصر جيداً. قلت أعرف الإسكندرية لكن لن يكون الأمر صعباً لو جاءت أن أعرف القاهرة وأسوان وأي مكان، وطالت نظراتنا ثم قالت إنها تحب الأفلام المصرية، وكثيراً ما لا تصدقها لكنها تندهش من جمال «النسوان». وطالت نظراتنا وقلت مبالغاً أنت أجمل، وأطرقت خجلاً وقالت «الحر أفسدنا يا أستاذ»، وقلت قاصداً «أراك أجمل». ورحت أقرأ وجهها فإذا بها تشرد طويلاً وتطفو على الوجه ألوان شتى من الأسى والضيق. وقالت هل تعرف لماذا تعطيني الدرس يا أستاذ؟ هل تعرف لماذا لم نلجأ لأحد المدرسين؟ باغتتني وتأملت وجهها وقلت أعرف يا واضحة بل إنني رأيتك فوق العربة وتحت الشمس. ورأيت عينيها تثبتان وينسكب منهما الدمع كما لو كان ينتظر خلف الباب.

شَهَقَتْ وقالت «قتلوني يا أستاذ» وأطرقتْ فوق المكتب فمددت يدي ومشيت بها فوق شعرها الغزير الناعم ثم نزلت بيدي إلى خدها الأسيل الذي كان مثلجاً ورفعتُ وجهها من تحت ذقنها. لا عذاب في الدنيا يمكن ان يرتسم على وجه كالذي رأيته على وجهها الصغير. وأخرجت من جيب سترتي منديلاً ورقياً ورحت أمسح الدمع وما سال على وجنتيها من كحل معه. لم أتكلم ولم تتكلم ولم يكن ممكناً استكمال الدرس اليوم أيضاً. وقفنا واقتربتُ منها فإذ بها تفتح عينيها في انبهار وارتعشت شفتاها وانحنيتُ واستطالت هي اذ لا بد شبَّت على أطراف قدميها لكني لمحت الباب مفتوحاً كالعادة. ذهبت الى الباب لأغلقه فاتخذت طريقي وخرجت مسرعاً.

وعدت الى واضحة أمس أيضاً فلم أجدها. قال خالد إنها سافرت للرياض وستعود بعد اسبوع. ضحك وقال إن لها خالة في الرياض كثيراً ما تشتاق اليها ولا تستطيع واضحة أن تتأخر عليها، وطلب إليّ الجلوس فاعتذرتُ، ومشيت أفكر هل هو صادق فيما يقول أم أن واضحة آثرت الابتعاد؟.. ها أنذا بالمستشفى ولا بد اني سأمضي اسبوعاً أيضاً. النوم يتقلب عنيّ الآن وأسمع صوت آذان الفجر بعيداً في البلدة النائمة.

١٥

استيقظت في حوالي التاسعة. ما زلت أسمع «صوصوة» عصافير خارج النافذة. رأيتُ وأنا أفتح عينيّ الثلاثة الذين فوق الأسرّة. كوريون يتكلمون والبهجة في عيونهم وضجيج غريب في أصواتهم، ورأيت افواههم تتحرك بسرعة غريبة أثناء الكلام. ابتسمتُ لهم، فقالوا معاً في مرح: «غود مورننغ. غود داي إن شاء الله». ابتسمتُ مرة أخرى، ورأيت عايدة تدخل الحجرة على وجهها ابتسامة رائعة، وتتألق عيناها السوداوان الواسعتان في وجهها الخمري، وتزهو ملابسها البيضاء.

وَقَفَتْ جوار السرير وقالت:

ـ يجب أن تنهض فوراً وتمشي في الطرقة بقدر ما تستطيع.

لم أرد وبقيت أتأمل وجهها. قلت:

ـ أنت عايدة؟

اقتربت أكثر وقالت:

ـ هيا انهض. سأساعدك.

وأمسكت ذراعي تنهضني. قلت:

ـ سأمشي وحدي.

- إذن لا تتأخر.

وتركتني وخرجت.

* * * * *

قمت ومشيت قليلاً مستنداً الى جدار الغرف، وعدت الى السرير، فصعدتُ فوقه متعباً. ورأيت الكوريين يقفون في جلابيب بيضاء يحزمون حقائب صغيرة جداً. دخلت عايدة ومعها حقنة، فكشفت لها ذراعي.

- السلام عليكم.

هتف الكوريون وهم يخرجون. لم تلتفت عايدة إليهم ولوحت لهم بيدي، رأيتهم يمشون متباعدي السيقان قليلاً. ولا بد أن عايدة ادركت ما افكر فيه، ورأت الدهشة في عيني إذ قالت:

- كوريون اشهروا اسلامهم أمس.

ابتسمتُ وخرجتْ وعند الباب قالت:

- لا تحاول أن تشرب شيئاً اليوم، وطبعاً لا تأكل.

لم تعد بعد ذلك الا عند الظهر. دَخَلَتْ وخلفها عربة المرضى يدفعها نعمان ومعه امرأة ضخمة مصرية نادتها عايدة «بأم زينب» وهي تطلب منها أن تضع المريض برفق على أحد الاسرة. خرج نعمان وأم زينب يدفعان العربة الفارغة، وقالت عايدة:

- زائدة دودية أيضاً. داهمته في السيارة. شاب سعودي كان قادماً من مكة في طريقه إلى تركيا، قال ذلك قبل العملية، وشعر هنا بآلام حادة في بطنه فجاء إلى المستشفى.

ودخل الدكتور وجيه يرتدي البالطو الابيض. بان لي طويلاً جداً كأني لم أعرفه من قبل. قال:

- هيه. كيف حالك. مشيت اليوم؟

- هززت رأسي مبتسماً.

انا مشغول جداً. ربما أراك في المساء. هيا يا سستر إلى العملية الثانية.

وخرج وخلفه خرجت عايدة مسرعة. رغم ما بدا لي أول مرة، من تنافر بينهما، فوجيه لا يعتمد إلا عليها كما عرفت بعد ذلك.

زارني سعيد في الثالثة واحضر معه جلباباً وساعدني في خلع جلباب المستشفى القذر. وضحكت واخبرته بشعوري حين أرى الجلباب فضحك وقال عليّ أن أتحمل الهواء في فخذي هذا الاسبوع وأحضر معه أيضاً علبة كبيرة من عصير البرتقال الجاف وثلاثة أطباق صيني وكوباً وملعقة وشوكة وسكيناً وبعضاً من ثيابي الداخلية وبطانية لأضعها فوقي وفوقها بطاطين المستشفى القديمة. وبعد سعيد جاءني نبيل. أطلّ عليّ بوجهه يضحك من الباب. أحضر لي علبة من الشيكولاته وقال إنه كاد يموت حين رآني ملقى على الأرض في دورة مياه الشركة. قال إنه سمع صوت سقوطي وهو في البوفيه. خرج ليرى مصدر الصوت فلم يجد شيئاً أمامه ولا يعرف ما الذي هداه للذهاب الى دورة المياه فوجدني ممدداً على الأرض. وضحك وقال: «أنت ثقيل جداً». هو الذي حملني بعد أن صرخ، وجاء عابد يجري فنقلاني إلى المستشفى وقال ان ارشد حزين جداً لأجلي، ومنذر صرخ وقال مياه الآبار ملعونة. وضحك نبيل وقال ان روز ماري اتصلت تسأل عني، وانه كان موجوداً

بالمكتب فرد عليها. قالت له «آيزة اسماعيل» فقال «اسماعيل هو سبيتال» إندهشت وقالتْ «هو سبيتال!» فقال هو «بيس. أو بريشن». وسألتني هل اخطأ في الانكليزية. وضحكتُ وأحسست بالم في الجرح من شدة اهتزازي، فتماسكت، وقلت له أن يسكت، فلن أستطيع الضحك أكثر. ضحك وقال «اذن أغمك. وأكلمك عن منصور» لكني ضحكت بصوت مكتوم فقال «سيزويك هو والقرد». وقبلني على جبيني وانصرف.

أحسست بالعجز عن مقاومة العطش، وبجفاف شديد في حلقي وشفتي، ودخل نعمان الى الحجرة، فقلت له أن يبلّ لي قطعة قطن، ورحت أمسُّ بها شفتي. ورأيته يقف فوق رأس الشاب السعودي النائم في حيرة، ثم التفت وسألني:

ـ هل أفاقَ من البنج؟

ـ افاق. كان يتكلم كثيراً ولم افهم منه شيئاً..

ضحك وقال:

ـ كل الناس هنا تتكلم. كنت قادماً لأفيقه.

وانصرف بعد أن انتزع الوسادة من تحت رأس الشاب ووضعها عند قدميه وهو يقول «حمارة أم زينب». ورأيت الشاب يفتح عينيه ينظر اليّ ثم يعود يسقط في النوم.

* * * * *

في صباح اليوم التالي بدت لي الدنيا أكثر بهاء حولي. أحسست بهزالي وشحوبي، وأن جسمي بات وكأنه من أثير.. شيء بين السماء والأرض. وأحسست كأني أستريح من رحلة صعبة أو صعدت على

جبل عالٍ وجلست فوق قمته المنعشة وفتحت مسام جلدي للهواء النقي. فكرت في الأمس كيف مضى جميلاً. زارني عابد أيضاً لدقائق وزارني بعده أرشد وجلس صامتاً يتأملني غير مصدق. وقالت لي الممرضة التي تعمل بالليل أن شخصاً اسمه منذر جاء يسأل عني فوجدني نائماً وانصرف بعد أن ترك لي هذه اللفّة. فتحتها فوجدت فيها جلباباً جديداً وفوطة جديدة كبيرة وزجاجة كولونيا أولد سبايس. يا الهي! كل هؤلاء أسرعوا يرونني ويطمئنون عليّ. لا بد أن الامور على غير ما يبدو لي.

وأهلّت عايدة من الباب بابتسامة أكثر ألقاً عن الأمس. لعلّي أنا الذي صرت أكثر عافية وأفضلَ استقبالاً لما أراه.

ـ تستطيع اليوم أن تشرب.

ووقفتْ جوار السرير تعد لي كوباً من عصير البرتقال قدمته لي وقالت.

ـ ليس كله.

شربتُ وهي تنظر الي لا تكف عن الابتسام. وضعت الكوب فوق الكوميدينو وابتسمتُ. سألتها:

ـ لماذا لم ارك أمس آخر النهار؟

ـ أجرينا عمليات كثيرة وعدت الى «السكن» في غاية التعب.

ـ طيب. يبدو أنك تضحكين لشيء تريدين أن تقوليه..

ـ اطلاقــاً.

وعادت تبتسم ثم سألتني:

ـ من هي واضحة التي رددت اسمها كثيراً وأنت في البنج. هل

هي مصرية؟ هذا اسم سعودي.

إذن أفشيت كثيراً من الاسرار. تجاهلتُ الامر وسألتها:

- أي اسماء أخرى قلتها؟

ابتسمت وقالت

- البلتاجي. كامل. آرون. اول مرة اسمع كلمة آرون. هل هو اسم؟

- هززت راسي باسماً واستمرت هي - فيليب. لقد كنت تردد فيليب كثيراً جداً. اكثر من كل الأسماء.. منْ واضحة. ايضاً سيد الغريب. هل تعرفه؟

أشرت لها بيدي أن تجلس على المقعد المجاور للكوميدينو فجلستْ. بدت كتلميذة طيعة. تنهدتُ وقلت:

- أنا أريد أن اسألك عن فيليب.

- أنا لا أعرفه.

- فيليب سوساي بيليا. رجل أسود طويل له وجه قوي. سيلاني اشهر اسلامه وجاء هنا للختان ومات منذ أيام.

أغمضت عينيها ووقفت سحابة داكنة خفيفة على وجهها ثم ابتسمت وقالت

- يحدث هذا كثيراً.

- أريد الحقيقة.

- ليس الدكتور وجيه على أي حال. لم تكن نوبتنا. جراح سعودي مبتدىء لكنه أيضاً ليس خطأ الجراح. خطأ معمل التحاليل الذي اختلطت عنده عينة الدم. حلل عينة مريض آخر

باعتبارها عينة فيليب. جاءت العينة سلبية في كل شيء. لكن فيليب مصاب بضغط دم مرتفع جداً. اندفع الدم بقوة ولم يكن هناك سبيل لإيقافه فمات.

هذه هي المسألة اذن. خطأ تافه. لكن هل يحتاج الامر أن يخفيه وجيه عني ربما لأن الطبيب سعودي، وقالت عايدة إن إخصائي التحليل بالمعمل سعودي أيضاً. ثم سألتني.

- لماذا تهتم به؟

- كان صديقي.

قلت وسمعنا نحيباً شديداً فجأة من الشاب الصغير الذي معي في الغرفة. قامت واتجهت اليه.

- لماذا تبكي يا ياسر؟ يؤلمك الجرح؟

قال ياسر الذي سمعت اسمه لأول مرة:

- الجرح هين يا ست عايدة.

جلست على مقعد مجاور لسريره وقالت باسمة:

- تريد أن تعود الى مكة؟

- اريد أن أرى أمي.

نظرت إليّ في دهشة. يبدو ياسر صغيراً حقاً في حوالي العشرين لكن لا يظن أحد أن شاباً في سنه يبكي ليرى أمه. قالت:

- ستراها بالتأكيد. ايام قليلة وتراها.

- أمي هنا في تبوك.

وعادت تنظر إليّ في دهشة. وقال ياسر:

- انا من مكة، لكن أمي من تبوك. لم ارها منذ مولدي. طلقها

أبي وذهب، يعيش في مكة وأخذنا معه أنا وأختي. لم يسمح لنا أبداً برؤيتها أو السؤال عنها وهي لم تأتِ يوماً إلينا. أنا أعرف أنها من تبوك واسمها «صالحة» وهي خثعمية. أريد أن أراها.

قال ذلك وعاد يجهش بالبكاء. وبدت عايدة شاردة الذهن ثم قالت:

ـ سأحضر لك أمك بشرط أن تكف عن البكاء.

تطلع إليها بعينين واسعتين متوسلتين وقال:

ـ سأفعل. احضريها لي الله يرضى عليك.

وتوقف عن البكاء ونام على الفور. نام نوماً حقيقياً. وقامت عايدة واقتربت مني وقالت:

ـ هنا يتزوج الواحد أكثر من واحدة، وتعيش الضرائر بلا ضغائن. لكن لم اسمع أبداً برجل يحرم زوجته من أبنائها. هنا تفرح الزوجة أحياناً بزواج زوجها من امرأة جديدة لأنه يضطر أن يقدم إليها كل ما يقدمه للجديدة من ذهب.

ـ هل ستجدين أمه فعلاً؟

ـ سأجدها. لدينا هنا خادمة سعودية اسمها «وَضْحَة» تعرف كل شيء في تبوك، ولن تعجز عن الوصول إلى أمه صالحة الخثعمية كما يقول.

وَخَرَجَتْ ورحتُ أنا أتطلع إلى الشاب الذي نام بوداعة الطفل الصغير.

* * * * *

أقدام مسرعة تدب في الطرقة خارج الحجرة، وضحكات نسائية

تأتي من بعيد، فقمت على مهل، وغادرت السرير ودفعت الباب أتطلع إلى الزحام. في آخر الطرقة رأيت عدداً من المرضى الرجال، وبعض الممرضات، ورأيت عايدة تقف على باب مكتبها. وتشير إليّ أن أدخل إلى غرفتي. تقدمت منها.

ـ ماذا يجري؟

ـ شيء سخيف.

ودَخَلَتْ مكتبها غاضبة لا أدري لماذا. دفعني حب الاستطلاع أن أتقدم في الطرقة حتى وصلت إلى الزحام، وإذ بالدكتور وجيه يظهر فجأة غاضباً صارخاً في المزدحمين بالانصراف، ولم يبقَ واقفاً غير طبيبة باكستانية وأنا. رآني وجيه ولم يكلمني وحدث الطبيبة الباكستانية بالإنكليزية:

ـ ماذا تفعلين يا دكتورة؟

ـ ليس هناك طريقة أخرى.

ـ لكن هذا لا يجوز في المستشفى!

ـ هما طلبا ذلك. ثم أن هذا عملي.

نظر إليها بغيظ شديد، وانصرف دون أن ينظر إليّ، ثم توقف فجأة والتفت يقول للدكتورة الباكستانية:

ـ هذا مستشفى يا دكتورة وليس قسم بوليس.

وبدا أنها غير آبهة له، وعاد الزحام من المرضى والممرضات، والدكتورة الباكستانية تنظر إليهم ببلاهة غريبة، وسَمِعْتُ ضجة داخل الحجرة المغلقة. أصوات مختلطة. مواء وعواء وشخير وصراخ وشتائم وأنفاس متلاحقة ووقع أقدام سريعة وأشياء تقع ثم صمت

طويل وأنفاس متعبة ثم فُتِحَ الباب فظهر رجل سعودي متوسط العمر ممزق الثياب، في عينيه غضب ناري، ولمحْتُ خلفه امرأة جالسة فوق السرير تغطي نفسها بالملاءة البيضاء وشعرها منكوش وعيناها دامعتان.

ـ هذه مجنونة.

هتف الرجل، ومَرَّ من بين الزحام كما تشطر السكين قطعة الزبد. وسقطتْ غترته التي كانت منزلقة على كتفه الى الأرض فلم يهتم بأن يأخذها. ودخلت الدكتورة الباكستانية الحجرة وأغلقت الباب وسمعنا نحيباً طويلاً هادئاً وانفض الزحام.

شاعت الحكاية في المستشفى بسرعة، وعرف الجميع أن الدكتورة «سردار» الباكستانية سمحت لرجل أن يعاشر زوجته في إحدى غرف المستشفى. جاء يشكو زوجته وكيف انها تكره أن يعاشرها، وكانت زوجته معه، فقالت إنه هو الذي لا يستطيع ولقد جاءت معه لتساعده على أن يعرض نفسه على طبيب، لكنه خدعها ودخل بها الى طبيبة النساء، وهدَّأتْ «سردار» من روعهما وجلست معهما طويلاً تتحدث بلغة عربية متعثرة عن الهدوء النفسي الواجب قبل لقاء الزوجين، وفجأة اقسم الرجل أن يعاشر زوجته هنا في الغرفة نفسها لتعلم الدكتورة انه سليم، وتحدَّته زوجته ووافقت فأغلقت عليهما «سردار» الباب.

* * * * *

ـ كيف يحدث ذلك؟

سألتْ عايدة التي دخلت تعطيني قرص «الاميسلين». قالت

دون أن تنظر اليَّ:

ـ عالم مجانين.

وظهرت امرأة سوداء جداً وقصيرة وسمينة عند الباب، فقالت عايدة:

ـ ايه يا «رخبة» وجدتها؟

ـ ها هي معي.

وأفسحتْ طريقاً، فدخلت امرأة اخرى قصيرة وبدينة أيضاً، حول رسغيها ذهب كثير، وفي أصابعها وعلى صدرها، وتغطي وجهها بطبقات من الحرير الأسود. سألتْها عايدة:

ـ أنت صالحة؟

ـ نعم.

ـ هذا ابنك ياسر.

لم ترد المرأة. تقدّمَتْ وكانت «رخبة» قد تركت الباب وتراجعت، ونظرتْ إلى عايدة التي بدأ دمع يترقرق في عينيها. توقّعْتُ مشهداً عاصفاً بالدموع. وجلستْ المرأة على كرسي جوار سرير ابنها عند رأسه، وتقدمت عايدة ووقفت امامها ترقبه. فتح ياسر عينيه ونظر إلى المرأة الجالسة، وقالت عايدة بصوت مخنوق:

ـ هذه امك يا ياسر.

اعتدل ياسر بسرعة، واستند بظهره إلى ظهر السرير وهتف بصوت هامس:

ـ أمي.

قالت المرأة بصوت عالٍ:

ـ كيفك ياسر. كيف أختك حِصّة؟

ولم ترفع الخمار متعدد الطبقات عن وجهها. تأملها ياسر وقال هامساً:

ـ بخـــير.

ـ كيف الشيبة؟

بخـــير.

ـ تعيشون في مكة؟

ـ لا زلنا.

ـ الله معكم.

وقامت وانصرفت وعايدة تنظر الي وأنا أنظر إليها، ونظرتُ الى ياسر فهز كتفه، وقال:

ـ امي صارت مجنونة.

ـ وسكت ولم ينظر إلى أحد.

* * * * *

لم يكن من الصعب قتل الوقت. جاءت سيارة في اليوم التالي، وأخذت ياسراً الى مكة. وكان دائماً معي في الغرفة واحد أو اثنان، لكن لا علاقـة بيننـا ولا حديث. لقد حول وجيه غرفتي إلى غرفة ملاحظة يمضي فيهـا المـريض قليـلاً من الوقت قبـل أن يغادر المستشفى أو ينتقـل الى حجـرات المرضى، وحول غرفة الملاحظة الاصلية الى غرفة استقبال طويل. فعل ذلك حرصاً على راحتي كما قال.

تفرّغتُ لقتل الوقت باستطلاع ما يجري. في اليوم التالي لحادثة الدكتورة «سرداره» أتت الشرطة لتحقق في شكوى رجل من البادية يدّعي أنـه أحضر ابنتـه الصغـيرة المـريضـة إلى قسم الاطفال

فخطفتها المرضة المصرية. رأيت الممرضة تقف في الصالة بين ثلاثة من رجال الشرطة بينهم ضابط وعلى وجهها ذعر شديد. كانت عايدة وعدد من الممرضات يبتسمن ويضحكن. قالت الممرضة المتهمة إن ابنة الرجل موجودة وإنها هذه التي تمسك بيدها، وقال الرجل إنهـا ليست ابنتـه. طفلة في الثالثة سمراء شعرها غزير وعينـاهـا واسعتان عسليتان ترتدي فستاناً بمبي مدندش الذيل بدائر أخضر من الدانتيلا وفي جانبي راسها «فيونكتان» من شرائط الحرير الأحمر. كانت بحق دمية جميلة. يزيد من ذلك انها صامتة لا ترد على كلام أحد. قالت الممرضة إن كل ما فعلته هو أنها رأت البنت جميلة في ثيـاب قذرة فاخذتها إلى «السكن» وألبستها هذا اللبس الجميـل بعد أن ادخلتها الحمام وقصت أظافرها وبرّجت شعـرها وعطّرتها؛ ولكن الرجل كان لا يزال يقسم أن هذه البنت ليست ابنتـه وانـه لن يتنـازل عن ابنتـه ولن يتنازل عن سجن المرضة المصرية التي فجأة زاغت عيناها إلى بعيد وبدا أنها لم تعد تدرك ما حولها ثم صرخت بايقاع طويل، ففزع الضابط والشرطيان، وتراجعت المرضة وهي تكرر الصراخ، واسرعت عايدة وزميلاتها يتلقينها قبل أن تسقط فوق الارض، واستطعن إدخالها الى غرفة الممرضات القريبة، وأغلقن الباب خلفهن. سمعنا ضجة وصراخاً مستمراً وفجـأة غناءً في صوت شديد المرارة والسخرية «حبيتك وباحبك وحاحبك على طول»، وبان الارتباك على وجه الضابط الذي أمر الرجل البدوي أن يأخذ البنت ويمضي. من يقول انها ابنتي؟ انا اقول. صرخ فيه الضابط. سأذهب للملك. اذهب للشيطان.

وحمـل الرجـل البنت على ذراعـه، وانصرف في عجلة وغيـظ

وانصرف الضابط والشرطيان أسرع منه.

* * * * *

استلقيت على سريري غير قادر على أن أكتم ضحكاتي. ضحكت وحدي بالغرفة وصار صوتي مسموعاً. أطلت عايدة بوجهها تضحك. ثم قالت:

ـ طبعاً أنت تستغرب؟!

وظللت أضحك ثم وجدت انه لم يعد لائقاً ذلك فسكت وتأملت وجهها البهيج. لا بد انها ادركت أن احساساً بالراحة صار يشمل جسمي وروحي فأنا اشعر بتألق عيني وانبساط وجهي. أرخت رموشها الطويلة وتكلمت:

اسمها «وردة» الممرضة التي صرخت. لم يمض على عملها هنا ستة اشهر. بدأت عملها في مستوصف «ضباء» وفي ضبا لا يوجد سكن للممرضات غير المتزوجات. عادة لا تذهب هناك غير المتزوجة. لكن هكذا جاء تعيين وردة. كان الاطباء والممرضات يتركون المستوصف في الساعة الثانية ظهراً الى بيوتهم. الاطباء جميعاً متزوجون والممرضات كذلك، إلا وردة التي كان عليها ان تبقى بالمستوصف نفسه. في احدى الغرف فوق السطح تنام. المستوصف كبير به أكثر من عشر حجرات بالدور الأسفل.

كان على وردة ان تمضي الوقت بعد الثانية ظهراً وحتى الصباح وحدها. لك أن تتخيل حجم الافكار التي يمكن أن تسرق العقل في بلد بعيد مقفر وفي مكان خال. أصاب وردة انهيار عصبي شديد ونُقلت إلى هنا. وضَحكتْ عايدة وقالت إن وردة تعيش الآن في سكن

الممرضات. تضحك كثيراً بلا ضابط وتتذكر كيف كانت تقطع الوقت بالغناء فوق السطح. كانت تغني للسماء والفضاء وتجري وتقفز ثم فجأة تلطم خديها وبالليل تنكمش في أبعد ركن من غرفتها وتنتحب. الآن، بعد أن ينتصف النهار، كثيراً ما تشرد وردة بذهنها ثم تعود وتشرع في الغناء الذي سَمِعْتَه. تتلبسها «عقدة ضباء» كما صرنا نسميها.

ـ كنت أحسبها خائفة من الضابط.

قلت ولم أستطع أن امنع نفسي عن الضحك. وضَحكتْ هي أيضاً وارتفع صوتها، وصرنا نضحك كلما تقابلت عيوننا. لكن لم يكن ممكناً الضحك في كل وقت.

* * * * *

صحوتُ على صراخ جنوني، وتركتُ سريري فزعاً انا الذي أصحو كل يوم على صوت العصافير التي لا أراها ووجه عايدة البهيج. خرجتُ ووقفتُ اتطلع إلى مصدر الصوت القادم من الطرقة المتعامدة مع غرفتي، والمتجهة الى عنبر النساء.

شرطيان يمسكان بامرأة صغيرة تحاول الإفلات منهما وهما يجرّانها بغلظة وغيظ. شقراء، شعرها طويل يغطي وجهها وصدرها وكتفيها، ويصل الى نصف ظهرها. اقتربا بها أكثر، ورأيتُ عينيها خضراوين لكن وجهها شديد الاحمرار من آثار لطمات سابقة.

كانت تقع على الأرض، ويرفعانها بقوة وتتشبث بسيقانهما، والنساء المريضات يبكين أمام الأبواب، والممرضات من كل قسم وقفن ينتحبن. واقتربت وردة مسرعة تحمل طفلاً صغيراً أسود،

دخلت به الى غرفة عايدة التي كانت تقف جواري ولا أدرك. كان هناك طبيب مصري شاب يقف خلف المرأة والشرطيين يرفع نظارته البيضاء ويمسح عينيه ويمشي خطوة كلما تقدم الجنديان بالمرأة خطوة. استطاع الشرطيان أن يسحبا المرأة الصغيرة بقوة، ولم تعد تسقط على الأرض. تركت نفسها تسرع بينهما، وكل منهما أمسك بأحد ذراعيها فانفتح الروب البني عن جلباب أخضر به ورود بيضاء وبرتقالية، واتسع صدرها فبان طوقها وجيدها مبهرين، ونزلا بها السلم والطبيب خلفهما.

دخلت عايدة الى غرفتها ووجدت نفسي أدخل وراءها. رأيت وردة جالسة والطفل على صدرها تربت على ظهره وتبكي، وعايدة خلف المكتب وضعت رأسها بين كفيها وتبكي أيضاً. قبل أن أتكلم دخلت المرأة التي كان يجرها الشرطيان الى الحجرة في هلع، وهجمت على وردة تأخذ الطفل منها، فتركته وردة دون مقاومة، وجلست المرأة على الأرض. وبسرعة شدّت طوق جلبابها وأخرجت ثديها والقمته إلى الطفل شديد السواد، وراحت تنظر الينا بعينين لامعتين مرعوبتين، وظهر الشرطيان كأنهما جنيّان، ولكن الطبيب المصري الشاب لحق بهما وصرخ:

- اتركاها وشأنها.

كادا يهجمان على المرأة لكنهما توقفا ونظرا إليه شزراً فقال:

- انزلا وسالحق بكما معها. أنا المسؤول.

ظلا ينظران إليه بحدة ثم انطلقا يمشيان ويدبّان على الأرض، ونظر هو الي ثم انهار جالساً على مقعد قريب. لحظة ورفع رأسه إلى المرأة التي كانت تشد على الطفل في صدرها كأنها تريد ان تخفيه

فيه، وتغطيه بأطراف الروب فلا نراه، ورفعت المرأة وجهها إلينا. دموعها غزيرة لكنها فجأة أخذت تنسكب انسكاباً وهي تنظر الى الطبيب الشاب.

- أعطيها شيئاً تشربه يا وردة.

قال الطبيب. وفتحتْ وردة ثلاجة صغيرة أخرجت منها دورقاً به عصير برتقال. قدمت كوباً للمرأة التي أخذته وشربته دفعة واحدة. بدا لي انها ليست هي التي تشرب فقد تركت الكوب جوارها على الأرض بسرعة وانكفأت على الطفل ترضعه. شبع الطفل فأدخلت ثديها الصغير الى صدرها، وتراجعت بظهرها تستند الى الحائط كأنما تستريح الى الأبد.

- يا أخت لا فائدة من ذلك كله. لقد تركتك تعودين لترى ابنك خمس مرات الآن.

مالت المرأة الصغيرة الجميلة برأسها إلى الخلف رافعة عينيها الينا وتكلمت باكية:

- صدري يخذلني يا دكتور. انظر الى الجلباب.

ونظرت أنا أيضاً، فوجدته فوق صدرها وازداد نحيب وردة التي وقفت في ركن ووجهها الى الحائط بينما راحت عايدة تمسح عينيها بمنديل صغير، وتكلمت المرأة الصغيرة الجميلة بصوت مليء بالعذاب:

- صدري يا دكتور كلما ابتعدت يحنُّ وينزل منه اللبن.

وسكتتْ وتركتْ دموعها تتكلم، ورفع الطبيب الشاب نظارته،

وراح يمسح دموعه بمنديل من الورق، ثم نظر الى ساعته وبدا أنه يتماسك وقال لها:

ـ لقد أخذت عنوانك وهو مع سستر وردة وسستر عايدة أيضاً، ووعدتك انني سأرسل اليك باسم الأسرة التي ستأخذه. ثقي انه سيأتي يوم تستطيعين فيه العودة الى المملكة وتتعرفين إلى ابنك. اننا لن نترك أي أسرة تأخذه دون أن نعرف عنوانها.

وقام بهدوء، ومد لها يده، فقامت والطفل على صدرها ثم قدمته ذاهلة الى وردة التي مدت ذراعيها وحملته. وطال نظر المرأة الى وردة.. الى وردة وليس الى الطفل. هل كانت تريد أن تستوثق بأن التي اخذته منها بشرا حقيقي؟

*****

لمّ أشأ أعرف القصة. حين أنزلوا جثة عبد الله بن الزبير ووضعوها على حِجْر أمه أسماء العجوز الهرمة التي شارفت على المائة انحنت عليه تقبله وقيل إنها حاضت ونزل من ثدييها اللبن.

لم اترك غرفتي ولا أكلت إلا آخر النهار حين دخلت عايدة وخلفها الخادمة المصرية «أم زينب» تحمل الطعام.

ـ نسيت أن احضره لك في الغداء. لا يمكن ان تمضي اليوم بلا أكل.

ـ لم أر أماً بهذا الهلع من قبل.

ـ لم تر أمّاً تُفْصَل عن ابنها إلى آخر الزمن.

ـ ألن تعود مرة أخرى؟

ـ مستحيل. مثلها يوضع على القائمة السوداء.

ـ لكن الطفل ليس صغيراً. ليس مولوداً حديثاً.

ـ أمضت عاماً في السجن ترضعه. في مثل هذه الحالة لا تترك الأم طفلها الا بعد عام. مسكين الدكتور أحمد. وصل هنا منذ اسبوع فقط وكلفوه بمرافقة الام حتى المطار. رحمةً يرافق الأم طبيب حتى لا تقدم على شيء خطر. حتى لا تموت أو تنتحر. الموت أرحم. تصور لقد رفضَتْ طول العام أن تدل الشرطة على أبيه. أبو الولد.

اتضحت الصورة. فتاة غرر بها أحد رجال البلدة. لماذا لم تعترف باسمه؟ أتراها كانت تأمل ان تأخذ ابنها؟ تركوها عاماً في السجن ترضعه. لا بد أن تتسلمه الدولة اكثر عافية. وهي، الأم، لم تستطع أن توقف مرور العام. كم من مُنى خرافية تعلقت المسكينة بحبالها الوهمية. ربما فكرت ان الله قد ينهي الدنيا فجاة فتقفز إلى الآخرة وابنها في صدرها.

قالت عايدة إن المرأة لبنانية واهلها يعيشون هنا لكنهم تبرأوا منها لا يريدون العودة الى لبنان. إلى اين يذهبون والحرب قائمة في كل مكان؟ لقد تركت لنا عنوانها ولكن.

وسكتنا طويلاً والطعام بيننا لم آكل منه شيئاً. قلت «إنه طفل جميل».

ـ عبد الله؟

قلت:

ـ لا أعرف اسمه.

قالت انهم اعطوه هذا الاسم، وإن اللقطاء يوضعون هنا في قسم الاطفال حتى تتبناهم إحدى الاسر أو الأمراء او ينقلونهم إلى ملجأ بالريـاض. لكنهـا وزميلاتها يحببن أن يأخذنهم إلى السكن. إن أسْوَدَ يوم هو اليوم الذي يتبنى فيه الطفل أحد. لا يحدث ذلك إلا بعد ان يعتدن على الطفل ويعتاد عليهن، يصبح له أكثر من أم تبكي لفراقه، ويبكي هو من أجل كل هاته الامهات.

* * * * *

١٦

وكـأنني دخلت من باب أفضى إلى جحيم لا خروج منـه. لا أستـطيع البقاء اكثر من ذلك وان ضبطت نفسي متلبساً بانتظار دخول عايدة المبهج لغرفتي في الصباح. لقد نسيت الدنيا بالخارج. لم يكرر احد زيارتي ولا انا عدت أذكر اني اعرف هنا احداً.

لا اعـرف الآن إلا خُطوات مسرعـة تحمل اكياس الدم لانقاذ جريح، وإلا بكاء الممرضات على الموتى الذين كان يمكن انقاذهم لولا ولولا ولولاء، وزعيق الاطباء في المرضى أن لا يتركوا اسرّتهم أو أن يتركوها ويمشوا حتى لا تتجلط الدماء في سيقانهم.. لا أعرف الا صوت زغـاريـد تنـطلق من قسم النساء. هذه فتاة بكر وضعت مولودها بعد ثلاثة ايام من الطلق والألم والانتظار من اهلها وها هي الفرحة تطل من عيني الزوج الشاب الغريب الوحيد الذي تُحضر المـرضات لإبنه كساء على نفقتهن وهدايا لأمه الصغيرة وطعاماً ساخناً. لا أعرف الآن الا صراخاً كأنه قادم من عصور سحيقة من رجـل محبوس في غرفة سفلية سينتقل الى مستشفى الأمراض العقلية بالطائف بعد أيام. واسمع دائماً صوت عربة نقل المرضى تسرع في الطرقة ونعمان الخادم يشخط في ام زينب المُتعَبَة. الخادم

من أصل البلدة له خادم من بلاد بعيدة. وقريب من غرفتي غرفة للمداريق والليل أشباح من صراخهم هم المقيدين في أسرتهم الملفوفين بالقطن والشاش الملتهفين الى نقطة ماء. لا أعرف الآن إلا سيارات تترصدها الحوادث. تنهار عليها جُرُفٌ فجأة من فوق الجبال، أو تسقط هي فجأة من فوق الجبل، أو يدفعها القدر إلى «قليبة» فتنقلب. بلدة قديمة ذات اسم قديم ولا أدري كيف كانت تنقلب الجِمَال. من أي الميلاد أنا ومن أي مكان قريب أتيت. نمل ثقيل راح يغطي الذاكرة ولم أمض هنا إلا بضعة أيام. لا يكفيني وجه عايدة الرائق المبهج وسط هذا الجحيم من الصرخات والضحكات والموت تغلغلاً في الحياة. كيف حقاً لا يموت الأطباء وتنتحر الممرضات؟ أي قوة شيطانية وضعها الله في بني الانسان فيبدون في النهاية أقوى من الأحجار؟

زارني خالد. فبدا وكأني عرفته من قبل في بئر مظلمة ولا أكاد أتعرف على ملامح وجهه ولا أذكر حتى اسمه. «واضحة تهديك السلام» قال وفكرت اسأل من هي واضحة، وكان دمثاً. قال إنه علم من سعيد بمرضي، وإنه أخبر واضحة في الرياض، فانزعجت كثيراً وتهديني السلام. ما السلام؟ كدت أقول. قال «واضحة ستعود بعد يومين». ولم أقل اني سأخرج بعد يومين. هكذا حدد لي وجيه موعد الخروج مع أني رجوته الخروج اليوم.

وحطَّ على لقائنا صمت طويل، وتنبهت فجأة إلى دقة وجهه. ولولا شاربه والعقال الأسود والغترة لصار «واضحة» بلا اختلاف. اذن ما زلتُ اذكر وجهاً ممن عرفت. ومضى وهو يدعو لي بسرعة الشفاء، ولم أتكلم. انني انتظر الليلة الاخيرة رغم امساكي بنفسي متلبساً

بانتظار دخول عايدة المبهج، وعايدة اليوم بدأت تعمل بالمساء.

* * * * *

عندما انتصف الليل كنت في حاجة شديدة الى الكلام. سَكَنَتْ الحركة، ولم أعد اسمع غير انفاس واهنة. وخفتت الأضواء وأنا في الغرفة وحدي، يعاديني النوم مع أني سأغادر المستشفى في الصباح.

تركتُ الغرفة، ووقفت في الطرقة ذات الضوء الخافت امام باب غرفة عايدة، وترددت ان اطرقه. فيَّ حاجة شديدة انا للحديث معها وما خرجت إلا لذلك وإن كنت لا ادري فيما سأتكلم. وسمعت صوت «نجاة الصغيرة» خافتاً وسمعت شيئاً كالنحيب.

في اللحظة التي فكرت فيها أن أعود فُتِحَ الباب وَوَقَفَتْ تنظر إلي في ذهول.

ـ آسف. آسف جداً.

ـ لا داعي للأسف. لقد احسست بقدميك. اخفتني. تفضل.

دخلتُ مرتبكاً وجلستْ هي خلف المكتب.

ـ أنا لم اقصد شيئاً.

ـ اعرف. يمكن ان تجلس.

جلستُ وكدت أقول: لقد سمعتك تبكين في صوت خافت وها أنذا أرى اثر الدمع في عينيك، لكنها وقفت وقالتْ:

ـ سأعد لك كوباً من الشاي، الجو بارد وأريد ان اشرب شاياً ايضاً.

واتجهتْ إلى دولاب صغير أخرجت منه موقداً كهربائياً، ووضعت فوقه براد الشاي، وبدت لي وهي تتحرك صغيرة للغاية وقلت ما لم أود قوله:

ـ هل أسألك لماذا كنت تبكين؟

ـ لقد سألتني بالفعل.

اجابت مبتسمة وسكتنا، وانْشَغَلَتْ باعداد الشاي ثم قَدَّمَتْ لي كوباً وأَخَذَتْ آخر، وعادت تجلس خلف المكتب.

ـ أحياناً يشعر الانسان بحاجة للبكاء.

فكرت ربما كان صوت نجاة الذي يبثه راديو صغير فوق المكتب هو سبب بكائها. ذلك أمر سهل مع أي مغترب.

ـ أرجو أن لا اكون تطفلت على مشاعرك.

ـ بالعكس.

ـ ألست سعيدة هنا؟

ـ سعيدة جداً والا ما كنت بقيت. تعودت على العمل. وفي مسكن الممرضات، نقضي وقتنا في مرح. نعيش أسرة متوالفة الى حد كبير طبعاً لدينا مشاكل مثل كل الناس. فينا من ضحك عليها خطيبها وأخذ فلوسها، وفينا من يرفض اهلها أي عريس يتقدم لها حتى تظل بقرة حلوباً لهم، وفينا التي تزوجت وتركت زوجها، وحين عادت من اجازتها وجدته تزوج بأخرى في الشقة نفسها التي جهزتها، وفينا العازفات عن الزواج تماماً الى الابد.

ـ يا الهي! الى هذا الحد؟

فينا أيضاً الناصحات اللاتي اشترين عمارات وأراضي. وفينا

طبعاً سعيدات الحظ في الزواج. في كل الاحوال نصنع مع بعضنا حياة سهلة حلوة في السكن.

وسكتنا قليلاً. وكانت نجاة قد انتهت من اغنيتها وينساب صوت عبد الوهاب رخيماً يعطي لليل مذاقاً عذباً.

ـ هل تحب عبد الوهاب؟

سألتني مبتسمة ابتسامة صغيرة. قلت:

ـ لا يوجد من لا يحب عبد الوهاب.

وسكتنا.

«لم نحتنق والهوى يفري جوانحنا

وكم تعانق قلبانا وروحانا».

ـ انها قصيدة جميلة للشاعر عزيز اباظة كتبها لزوجته.

ابتسمت وقالت:

ـ اخاف أن أقول لك اني احب عبد الحليم فتسخر مني.

ـ لماذا. أنا أحب عبد الحليم ايضاً.

وعدنا إلى الصمت حتى وجدت نفسي اسألها:

ـ أين انت يا عايدة من كل من حدثتني عنهن؟

كانت هذه أول مرة اخاطبها باسمها مباشرة. وكان سؤالي مفاجئاً لنفسي. دائماً يسبقني لا شعوري في كشف ما أريد ستره.

ـ أنا؟

ولم تكمل. وظللت ناظراً الى عينيها حتى رفّت اهدابها ثم قالت:

ـ دعنا نترك هذا الحديث.

ولم يحدث..

الطب مهنة فظيعة تحولك الى آلة باردة. اذا لم تتحول تنكسر ولا تصلح. هنا رأيت الناس يتحولون الى حيوانات مسكينة، يصرخون كأنهم وحوش، من الألم الذي يفوقهم توحشاً، وهنا رأيت الناس جثثاً بلهاء لا قيمة لها. لقد تحملت ذلك كله من اجل اخوتي الذين هم سعداء الآن. كل اخوتي السعداء عارضوا دخولي مدرسة التمريض إلا واحداً. هاشم الذي كان أكبر مني مباشرة. كان طالباً في كلية الحقوق وكان مصدر بهجة دائمة في البيت. متفائل لا يكف عن الابتسام، يؤمن بأن كل شيء يتغير مع الوقت حتى الافكار العتيقة. لكنه كان مصدر قلق دائم للأسرة. كان يشارك في المظاهرات بالجامعة ويأتي رجال المباحث كثيراً بالليل ليقبضوا عليه، ويخرج دائماً من السجن اكثر بهجة وتفاؤلاً. وكان ضئيل الجسم للغاية لا يعرف احد أي قوة فيه ليتحمل السجون. لقد تخرج هاشم من الجامعة عام (٧٣) وفي عام (٧٤) اثناء زيارة نيكسون لمصر، حين أخرجوا الناس بالفلوس لتقف على شريط السكة الحديد تحيي نيكسون والسادات في طريقهما للاسكندرية لم يستطع البقاء في دمنهور بلدتنا. سافر الى الاسكندرية. كان له بها اصدقاء دراسة يحبهم. صدمته هناك سيارة ونقلوه الى المستشفى الأميري حيث كنت أعمل بعد ان تخرجت، ذلك اليوم كنت في قسم الاستقبال، وفي ذلك اليوم استقبلته.

وسقطت دمعة من عينيها، ثم انسالت بعدها دموع، فأخرجتُ منديلاً ورقياً من علبة مناديل في أحد الادراج وراحت تجففها.

ـ انا آسف جداً.

ـ تصور انه الوحيد الذي يراسلني.

ـ هو حي اذن.

ـ لكنه فاقد القدرة على الحركة. يعيش مع أمي وأبي المسنين وخادمة.

«لذلك أنت هنا» قلت لنفسي. اي عذاب فوق طاقة البشر. لو كانت عايدة رجلاً لاختلف الأمر. أنثى حاضرة الجمال. ووجدت نفسي اربت على ظهر يدها بيدي. قالت:

ـ هل ضايقتك؟

ـ انت لم تضايقني. ولم تؤلمني.

كانت أغنية عبد الوهاب قد انتهت وسمعت المذيع يقول موجز انباء الواحدة من القاهرة. قال كلاماً عن بيغن وكارتر والسادات لم افهمه ولم أهتم به. أدرت مؤشر الجهاز بعيداً فانساب صوت عبد الحليم حافظ وادعاً دافئاً شجياً.

«يا تبر سايل بين شطين يا حلو يا اسمر»
«لولا سمارك جوا العين ما كنت تنور»
يا حلو يا اسمر. يا حلو يا اسمر
يا حلو يا اسمر»

وابتسمتُ ورأيتها تبتسم وتتألق عيناها بانبهار فائق.

* * * * *

١٧

وافق خروجي اليوم الأخير من شهر ديسمبر. تركت وجيهاً في المستشفى، وفي البيت لم اجد سعيداً لست بحاجة الى شيء قدر حاجتي إلى النوم. تركت غرفة عايدة والفجر يوشك على الظهور. وصفت لها حالي وقلت إنني اكتشفت متأخراً جداً اني رحت ضحية مؤامرة صنعها ابي ووافقت عليها بغباء اخلاقي منقطع النظير. غباء جعل بيني وبين النساء سداً والآن افكر جدياً في الزواج. وصمتنا كثيراً وأطرق كل منا ثم رايتها تنظر في ساعة يدها. اعادتني الى الحقيقة. هي انثى وأنا ذكر في بلاد يترصد فيها الهواء الأحاسيس ينقلها للعسس. قمت ولدي شعور بأنها لم تقل كل شيء. للملائكة حاجات يخفونها أيضاً. كل منا أخفى شيئاً وعجز عن البوح به، مع أني كنت كلما نظرت الى وجهها استأنسته وتمنيت لو مضيت الى صدرها لأنام. لم اقل لها اني أنا الذي افشلت قصص الغرام. ورغم أني نزلت الى البلاد التي غفل عنها السندباد والتي ينزلها الآن الف سندباد والف كل صباح، البلاد التي تعود منها فتنفتح لك كل النوافذ وكل الطرق والأبواب، فانني ما زلت لا أحس بالنار تشتعل في جليد قلبي. كَذِبٌ كل ما فعلته مع واضحة وكل ما أحس به كلما زرتها، وكذب انني أريد الزواج الآن.

لم يلتئم جرحي القديم بعد. لا زلت أود لو اخرج من نفسي أعاقبها، اقتلها. سألتني لماذا تقرا هذه الرواية كثيراً. قلت انا أحب أحمد عاكف. قالت ضاحكة. انا لا أعرف أحداً بهذا الاسم. قلت خذيها. وجاءت تضحك وتقول من هو احمد عاكف في الرواية؟ وضحكنا وسكتنا، وقلت أود الذهاب إلى حديقة انطونيادس. الدنيا ربيع وهناك مهرجان الزهور الآن. قالت لم أعرف عنك أنك تحب الورد، أنت تحب الحب وتريد أن نذهب، لأنه هناك بحنا بالحب في يومنا الأول. وتألق وجهها الأبيض واحتوتني عيناها العسليتان ثم انطلقنا. كان الزرع حولنا في الكلية أخضر من كل يوم والفضاء أبيض من كل يوم والسماء اعلى من كل يوم وقرميد الكلية الاصفر المشرب بالحمرة ازهى من كل يوم، وقالت ونحن نعبر الباب: كثيراً ما أفكر كيف تفهم «المنطق» أفضل منا جميعاً. قلت انا اذاكر اكثر منكم، قالت كذاب وكنت كذلك وواجهتنا مستشفى الشاطبي للولادة باتساعه العريض وباحته الضخمة وبياض كل شيء فيه الذي يلتحم مع بياض الفضاء، ورأتني اتطلع اليها بعمق فقالت وهي تلكزني في ذراعي هل تعرف احداً يلد اليوم؟ قلت إن هذا أعظم موقع لمستشفى للولادة لان امامه بحراً عريضاً. قالت أنت تقول كلاماً غريباً وهتفت «تاكسي» وركبنا وانزلنا صامتين عند حديقة الحيوان فمشيناها في تراخ نقترب من بعضنا ونبتعد ولا أذكر فيما تكلمنا حتى وجدنا باب حديقة انطونيادس وفوقه لافتة «غير مسموح بالدخول للجمهور». لماذا؟ وقال الشرطي كما ترى أخذها الجيش وتحولت الى موقع عسكري. قبل ذلك اخذوا لسان السلسلة الجميل وصار تمثال عروس الاسكندرية وحيداً لا يمر عليه عشاق. ابتسم الجندي لا يدرك شيئاً وقالت هي: حديقة الحيوان أوسع

فسألتها لماذا لم تقرأي الرواية جيداً؟ وسكتنا من جديد وقالت لماذا حقاً لا تعطيني ما تكتبه من قصص اقرأه؟ قلت لا أظن أني سأستمر. لماذا؟ لماذا حقاً تتخلى عن كل شيء جميل في نفسك؟ لماذا اغلاق النوافذ؟ وتَراجَعْتُ عن الشرح وظلّت بيننا الرسائل. أين هي المرأة التي تموت من أجل رجل؟ وظلّت بيننا اللقاءات. وكان الوقت مساءً في آخر دقيقة من آخر يوم لنا في الامتحان، ولأننا كنا نعرف اننا سننجح فكان ذلك آخر وقت لنا ايضاً بالكلية ذات الحديقة الجميلة ومشينا فوق النجيل حتى حديقة كلية التجارة والشيطان الأخرس يقول لي إن الصراحة افضل من الخداع، فصارحتها وقلت انا لا أعرف الحب الا للزواج وأنا لن أتزوج الآن ولن اتزوج ابداً، ومشينا صامتين وفي محطة الرمل رأينا سعد زغلول يعطي ظهره المدينة ويشير الى البحر، إلى غريق، وَقَفَزَتْ وقبلتني على خدي والناس كلها ترانا في الميدان وأَسْرَعَتْ تبتعد، ولم اذهب يوم الاحد ولا أي احد بعد ذلك. لم أكن احبها ابداً. كنت احب الحب كما قالت. عرفتني التي لم تقرأ القصص ولم تعرف اني أنا الغبي الكبير في هذا العالم اكمل رسالة رجل تجاوز الخامسة والستين ولم يتمها.

«الحياة مأساة، والدنيا مسرح ممل، ومن عجب ان الرواية مفجعة، ولكن الممثلين مهرجون، ومن عجب ان المغزى محزن، لا لانه محزن في ذاته، ولكن لأنه أريد به الجد كل الجد، فأحدث الهزل كل الهزل. ولما كنا لا نستطيع في الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا، فإننا نبكي، فتخدعنا الدموع عن الحقيقة، ونتوهم ان الرواية مأساة، والحقيقة أنها مهزلة كبرى».

قال هاملت وقال نجيب محفوظ وقال أحمد عاكف المسكين الذي

قرأ أدب الكاتب والكامل والبيان والتبيين ولا صار كاتباً ولا فاز بحبيب. كيف انتهى الأمر للجنون ثم الموت؟ توالت عليَّ الرسائل مكتوبة بحبر احمر وأخضر وازرق واسود. لماذا لم تنتبه؟ كان اليوم هو الخامس من يونيو، يوم لا ينساه في مصر احد. «قد ينساه الناس بالانتصار وأظل أنا الوحيد في شعب كامل اذكره». لم أعرف بموتها إلا قبل سفري الى هنا بأيام حين ذهبت الى الكلية لاستخراج نسخة من شهادتي وقابلت «سامية» التي كانت صديقة لنا وتعرف كل شيء، جاءت مثلي لتستخرج شهادة وتسافر الى الامارات. اخبرتني سامية فأسرعت أنا بالسفر. لم يبد عليها قط انها يمكن أن تجن فما بالك أن تموت. من يُطْلِقني من موتي الآن؟ من يحرق اسراري؟ واضحة ام عايدة أم تراني قاتلاً للجميع؟ كم اود حقاً أن انام.

* * * * *

ـ كنت اعرف انك هنا.

هتف سعيد وهو يدخل حاملاً كرتونة على صدره، أسرع بها الى غرفة المعيشة، ووضعها فوق المنضدة، ووقف يلهث. قال:

ـ سنحتفل بك وبراس السنة.

كانت الساعة الثالثة ظهراً وكنت نمت نوماً عميقاً. فتح الكرتونة وراح يخرج ما فيها ويضعه فوق المنضدة ويتكلم:

ـ جبن حلوم. زيتون سيوي من مصر. ها ها ها. يا اخي رؤساء الجمهوريات طبعهم غريب. واحد سماه زيتون الحرية والثاني زيتون العبور. فول قها. بيض بلغاري. انظر الى حجم البيضة. في

حجم الفرخة المصرية. في بلغاريا يقولون للجبان جبان مثل البيضة!! ها ها ها ها.

واستمر يخرج ما في الكرتونة، ولا يكف عن الكلام والضحك. وبدا شكله غريباً لي جداً، واكتشفت لأول مرة انه اقصر مما أتصور. كان يتحرك مثل كرة من المطاط.

ـ وخذ ايضاً جبن رومي من ايطاليا. رومي اصلي. وجبن شيدر من استراليا. انظر الى العلبة. مدكوكة. مثل البوشمان. لا بد ان البوشمان انتهوا مثل الهنود الحمر. كُلٌ منته. لن يبقى الا وجه ربك. وخذ أهم شيء عشرون زجاجة بيرة بدون كحول ماركة «موسّى» صنع اوروبا. الأوروبيون النصابون يضحكون على العرب. سيكون احتفالنا بخروجك وبراس السنة رائعاً رفوق ما تتصور.

نظرت طويلاً الى عينيه. قلت:

ـ ماذا جرى لعقلك اليوم؟

ـ تريد الحقيقة؟

ـ اجل.

ـ قابلت وداد.

ـ هل هذه أول مرة؟

ـ لا طبعاً. لكني اليوم قابلتها وقَبَّلتها ايضاً. قبلتها هنا في المملكة التي تقع في الغرب من قارة آسيا وتطل على البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وفيها قِبْلَةُ المسلمين من كل انحاء الدنيا ومنها هربت الجن والعفاريت بسبب الحر والقرّ.

وصار يضحك ويصفق ويقفز في فضاء الغرفة، فلم استطع منع

نفسي عن الضحك. وفجأة توقف وقال بجد شديد
- يا اخي لم أكن أعرف أن الحرمان شيء فظيع إلى هذا الحد.

* * * * *

بعد الغداء انفردت بنفسي في غرفتي. أدهشني أني اسمع صوت سعيد يغط في نومه لاول مرة. ابتسمت وانا اتخيل سلوكه قبل الغداء. سعيد هذا لا بد يَمْكُرُ بي. ليس أسهل من تقبيل امرأة هنا وداد خطيبته وتعيش مع امها وهو يزورهما ولا بد أن أمها تعطيهما هذه الفرصة واكثر. أجل. وأكثر. إن قبلة لا تحدث كل هذا الجنون. وفكرت أن اذهب الى واضحة. لا بد انها عادت من الرياض.

في السادسة كان سعيد لا يزال نائماً. لقد نمت أنا ايضاً مرة أخرى واستيقظت ولا بد أن وجيه عاد ونحن نيام فأكل ونام. كل هذا النوم حدث اليوم في بيتنا بالنهار.

ركبت سيارتي التي لم تخذلني رغم توقفها لأسبوع كامل. قدتها عبر الازقة دائراً حول الشارع العام مراعياً الحُفَر والمطبات التي قد تؤثر على الجرح الذي نُزعت خيوطه فقط في الصباح. وجدت الشرطي يقف وسط الطريق يمنع تقدمي. يا الله. لقد نسيت وها انذا اجد نفسي أمام البيت الموقوف به سيد الغريب. الشرطي يأمرني أن أدور من جهة أخرى. منعوا المرور من الشارع إذن. ورأيت الغريب يجلس في الشرفة يرتدي عباءة سوداء وفوق راسه مصباح شحيح الضوء لكني رأيت وجهه جيداً. لا أعرف اذا كان رأى وجهي أيضاً أم لا فأنا اقف في الظلام.

درت بعيداً عن البيت وأخذت طريقي متمنياً فجأة أن لا اجد

واضحة. أن لا أكمل معها الدرس اليوم أيضاً. لكنها هي التي استقبلتني. اتسعت عيناها بفرح طاغ ولم تتكلم. أخذت يدي بين يديها، وجذبتني لأدخل غافلة عن جرحي وقلة قدرتي على الحركة المفاجئة.. لكني مشيت واحسست بالقوة تدب في روحي، ولما دخلت الى الغرفة لم أجدها معي.

انتظرتُ طويلاً. في كل لحظة كنت اتخيل دخول شخص آخر الى الحجرة. خالد أو جدُّها العاجز او امها التي لم أرها او أبوها الذي لم أره أو أي من اخوتها الذين لم أرهم، ولم يتوقف قلبي عن الخفقان حتى رأيتها. غيرت ثيابها وعادت ترتدي فستاناً طويلاً، كحلي اللون، به ورود بيضاء، وعلى كتفيها شال أبيض، وتركت شعرها محلولاً على كتفيها وظهرها، وفي رسغيها أسوارتان من ذهب مرصعتان بالياقوت الاحمر، وعلى صدرها كانت وردة ذهبية معلقة بسلسلة، وعلى أوراق الوردة فصوص من الياقوت الاحمر ايضاً، ويسبق كل ذلك عطرها في الطريق.. وجدت نفسي أقف وأمد يدي، فمدت لي يديها، وأخذتهما، واقتربت مني ثم مالت إلى مقعدها، فتركت اليدين وَجَلَسَتْ وَجَلَسْتُ قبالتها أتأمل وجهها وعينيها. أصابها شحوب قليل في الرياض.

- كنت خائفة أن لا تأتي.

- استئصال الزائدة ليس امراً صعباً.

- لا اريدك أن تشرب من المياه الحكومية.

- قيل لي ذلك لكني لا أحب المياه المعدنية.

- سأرسل لك منها كميات كبيرة.

- لا احبها حقاً.. ثم ان الانسان لا يملك اكثر من زائدة دودية واحدة.

ابتسمتْ وقالت:

- لم استطع الحضور لزيارتك.

- هل نبدأ الدرس؟

تساءلتُ بغباء ومن غير قصد كعادتي السخيفة، وسكتت واطْرَقَتْ ثم رفعت وجهها وقالت بهدوء وألم:

- لماذا تستصغر شأني؟

وانفجرتْ في بكاء غير متوقع.

- واضحة.

هتفت هامساً.

- انا ارسلت اليك خطاباً من الرياض. ألم تقرأه؟

- انا لم اذهب الى العمل بعد.

وظلت الدموع تسيل على وجنتيها، فأخذت مقعدي واقتربت منها، وبذراعي اليسرى أحطت كتفيها، وبيدي اليمنى رفعت وجهها إلي فإذ بها تميل برأسها على صدري وتنتحب.

أسمع الآن أنفاسها وقلبها وأشم عطرها الغامض وأغرق بوجهي في شعرها الناعم الغني.

- واضحة.

همستُ فرفعتْ وجهها إليّ. اتسعت عيناها بالق رأيته فيهما مرة وارتعشت شفتاها برغبة رأيتها عليهما مرة والتفتُ لا شعورياً إلى الباب فهمست لا تخف. أجل. هي التي قالت ذلك ولا أحد غيرها.

مي واضحة التي في صدري الآن. ومددت يدي اليمنى إلى ابطها الأيسر فأحسست بنهدها صغيراً تحت كفي وبأنها خفيفة كحمامة وأنا اقيمها لتقف واقف. كيف طالت واستطالت؟ أم لعلني انا الذي انحنيت. صارت في حضني فمي على فمها واشد عليها بكل قوتي وآكل بشفتيّ شفتيها وتصطدم أسناني بأسنانها وفي اللحظة التي ابتعد فيها وجهانا لالتقط انفاسي رأيت الفرح يكاد يقفز من عينيها، ومن جديد ضممتها الى صدري ورحت اعتصر رضابها وأحسست بشفتيها تتحركان مع شفتيّ وبينهما وحولهما. إنها لا تترك نفسها لي بل تقبلني ايضاً. نسيتُ ان هناك باباً مفتوحاً وان الموت معلق فوق راسينا وفي اللحظة التي بدا فيها انها ذابت وتلاشت رأيت على وجهها طيف وجهٍ آخر.. وجه عايدة. ابتعدت بوجهي وتأملتها. مغمضة العينين الآن. عدت اقبلها ونزلت بها إلى الأرض واحسست بألم في الجرح وفكرت في جراحي وعواقب ما افعل هنا في بلد ينقل فيه الهواء الكلام ووجدت نفسي اقف بصعوبة. آلمني الجرح حقاً رغم اني اساعدها على الوقوف معي. فتحت عينيها وبدت كأنها استيقظت من حلم بعيد.

- لا تخرج الآن. لا تجعلني أشعر بذنب.

- اجلسي يا واضحة.

- اجلس انت اولاً.

جلسنا معاً كل إلى مقعده. اطرقتُ واطرقتْ هي. لا أعرف فيما كانت تفكر لكني أعرف فيما فكرت انا.

قطعت عايدة عليّ الطريق وقالت اثناء الحديث إنها لن تفكر في الزواج قبل أن يشفى هشام ويمشي على الأرض ولو كلفها ذلك

عشرين سنة هنا. وها هي تعود الآن وتطل بوجهها عليّ.

ـ هل تأخذني معك الى مصر؟

ـ آخذك يا واضحة ولن آخذ غيرك.

قامت وأخذت رأسي في صدرها وقبلته وقالت كأميرة مزهوة:

ـ يمكن لك ان تنصرف. لا حاجة بي إلى درس اليوم.

* * * * *

جسدي حي وليس شيء أعيش فيه. حي. حي. حي. وفتحت نافذة السيارة رغم شدة البرد وهفت نفسي إلى حدائق من الورد. لقد استيقظت كل حواسي تريد الاشباع. ليس من العدل في هذه الدنيا اغلاق الحواس. لكني لا استطيع دخول البيت عارياً أرقص. لا بد أن أخفي عن سعيد ووجيه كل شيء. ادخل كما خرجت. روح متعبة عليل جسدها تنتظر الشفاء. كذب سعيد عَلي ولم يقبّل وداد ولا فاز منها بشيء اكثر أو أقل.

آه. ما اجمل أن تجاهد أن لا تفشي سِرّ الحب. تلوك لذة وتجتر سروراً وتعلو وتعلو وتعلو والناس حولك سذج بلهاء.

عدت إلى البيت فوجدت سعيداً ووجيهاً يقفان في غرفة المعيشة ومعهما صالح ابن صاحب البيت. هلا يا استاذ. لماذا انقطعت عنا؟ خاطبني ولكن من ذا الذي يأخذني إلى الأرض بسهولة. أرض الغرفة التي حملوا منها المنضدة ووضعوها في الردهة فصارت واسعة احاطوها بالحشايا. لقد وضعوا جوار التليفزيون فيديو فوقه أفلام أيضاً.

ـ استعرنا الفيديو من صالح الليلة فقط.

ـ عيب يا دكتور يبقى عندكم لحين ما تزهقون. اتركّكم في أمان الله.

ـ اجلس.

خاطبني سعيد. «ابدّل ثيابي» قلت. والى غرفتي مضيت. وعدت بعد أن بدّلت ثيابي وصرت أخف وزناً مما كنت فوجدتهما فرشا الأرض بزجاجات البيرة «مموسّى»، وجلس وجيه في يده زجاجة صغيرة بيضاء وفي يده الاخرى «قطّارة».

ـ كحول من المستشفى. سأضع نقطة في كل زجاجة والشاطر يصمد.

قال وجيه، وسعيد خرج الى المطبخ وعاد يحمل صينية كبيرة فوقها ثلاث دجاجات محمّرة وقطع كبيرة من الكباب. «متى طهوت كل ذلك؟» «اشتراه وجيه». اتفقنا ان نشتري كل شيء الليلة. الليلة نبذخ.. وضحك وأنا الذي لم احتفل من قبل برأس السنة، وكنت اكتفي بالبقاء في البيت والفرجة على التليفزيون، رأيت سعيداً ووجيهاً كأنهما ريفيان ينزلان المدينة لأول مرة.

ـ إختر لنا فيلماً نبدأ به.

أمسكت الافلام الاربعة. دكتور جيفاكو. فرانكشتين. قبضة بروس لي. البعض يفضلونها ساخنة. اي خليط؟ ليس من بينها فيلم جنسي على أي حال. نبدأ بمارلين مونرو. وجلسنا نشرب ونأكل والفيديو يعمل ولا ننظر اليه، وأفقدتنا قطرة الكحول كثيراً من توازننا. «كُلْ كثيراً حتى لا تسكر». يقول وجيه. «عليك اللعنة». يرد سعيد وينشد:

«لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد»

ونضحك ويقول وجيه لكن هذه صفراء ونزداد ضحكاً، وينشد سعيد:

«يا خليليّ من بني مخزوم
عللاني بماء بنت الكروم»

ونضحك ويقول وجيه ولكن هذه بنت الشعير. يقول سعيد «بنت كلب» ونزداد صراخاً. وقلت لهما أن يسمعاني، فاتسعت عيونهما ينتظران ما ساقول:

«والله ما ادري بأية علة
يدعونها في الراح باسم الراح»
«الرايحها ولروحها تحت الحشا
ام لارتياح نديمها المرتاح»

ولا بد أن البيت زلزلت اركانه من صراخنا. سألني سعيد كيف أعرف هذا الشعر. قلت أعرف الكثير يا سعيد. قال لماذا تخفيه عنا؟ هيا نشرع في المبارزة، لكني اطلت النظر اليه. بكى فجأة وأشار الى الطعام وقال ان نبعد الحمار «أي حمار؟ لا أرى أمامي إلا أنت». قال وجيه، وانطلقت أصرخ ضاحكاً، لكن سعيد استمر يبكي، بل فزع وقام مبتعداً ناحية الحائط وقال إن الحمار يضع رأسه في الاكل ولا بد أن نأخذه بعيداً، وراح يكرر ذلك وسمعنا طرقات سريعة على الباب الخارجي تكاد تحطمه فقمت، وفي الردهة ضحكت، وفتحت فمي أشرب الهواء البارد. ما كدت أفتح الباب

حتى دفعوني جانباً واندفعوا الى الغرفة، ثلاثة جنود كأنهم شياطين تلمع أزرارهم النحاسية، وتبدو أحذيتهم ضخمة كأنها كتل من البازلت تسقط متتابعة فوق الأرض، ودخل بردٌ شديد معهم إلى الردهة وإلى روحي، ودخل خلفهم ضابط شاب قال: «احملوا كل شيء كما هو»، ورأيت المسدسات في أجنابهم بارزة، وسحب أحدهم ملاءة السرير ووضع فيها كل شيء، وحين اصطدمت قدمه بزجاجة الكحول فانسكبت، لمحت وجيهاً يتنفس بارتياح.

بملابسنا المنزلية أخذونا في العربة الجيب التي مضت والصمت فيها والظلام حولها والبرد، وإلى غرفة خالية من الأثاث ادخلونا بقسم الشرطة، حولنا الجدران الباردة وتحتنا الأرض المثلجة، وليس معنا غير بكاء سعيد لوقت طويل من راس الحمار التي ظلت تخايله.

في الصباح اخذونا إلى غرفة الضابط المسؤول. ضابط كبير ذو رتبة كبيرة ابتسم لوجيه وقال:

ـ يا هلا يا دكتور كيف صارت الليلة؟

ابتسم وجيه وقال:

ـ اسأل تلميذك الذي حبسنا يا أبا حكيم.

ـ هذه عندي يا دكتور.

واشار للضابط الشاب الذي قبض علينا أن ينصرف، وطلب لنا قهوة، وراح يقلب أوراقاً امامه. جاء شيخ مسن يحمل الإبريق والفنجان، وطاف علينا، وشرب وجيه وسعيد مرتين، ولم أشرب. لا قبَل لي بالقهوة العربية المرة، وفجأة هتف أبو حكيم:

ـ إيش هذا؟ صالح بن سنيور الثقيفي. هذا مخبل.

ونظرنا الى بعضنا، وفهمنا أن صالح ابلغ الشرطة اننا نسكر ونثير ضجة ونُفزع السكان. واستمر أبو حكيم:

ـ هذا مخبّل بن مخبّل. الا تسكنون في بيتهم يا دكتور؟

ـ نسكن.

ـ لماذا العداوة اذن؟

ـ لا ادري يا ابا حكيم.

وضحك أبو حكيم وامسك بالقطّارة الصغيرة.

ـ لماذا هذه يا دكتور. تضعون الكحول في البيرة؟

ـ هذه لعينيّ يا أبا حكيم.

ـ تضع في عينك خمرة.

وضحك ولم نضحك. بدأ يتحول بالحديث.

ـ أنت تحرقني، وتعرف كيف اختار اصحابي يا أبا حكيم.

ـ اعرفك والله زينة المصريين. انا سأتركُكم، لكن المشكلة أن الولد الملازم أبلغ مدير مدرسة هذا ـ وأشار إلى سعيد ـ ومدير المدرسة هاتفنا طالباً ترحيله.

وسَكَتَ قليلاً ثم قال لسعيد:

ـ لك حق كبير عندي يا استاذ لكن هذا ما صار.

١٨

تاقت نفسي إلى العمل، وها انذا اقود سيارتي بسرعة وافتح نافذتي السيارة لهواء الصباح البارد ولقطع الضباب.

قطعتُ إجازتي وذهبت. لم يعد ممكنا البقاء في البيت وقتاً طويلاً. لقد عدنا من قسم الشرطة أمس إلى البيت في صمت. تَرَكْنا وجيه وذهب الى المستشفى يسبق انتشار الخبر. قال ان الامر يختلف بذهابه أولاً. ودخل سعيد البيت مستسلماً. بدّل ثيابه وسألته الى أين؟ قال إلى المدرسة، هل تظنهم يُرَحّلونني وأنا هنا؟

اخذت حَماماً ساخناً بعد الليلة الباردة، ورأيت الجرح احمر، ومكان الخيط كأنما عقرب مشى فوق جلدي، وترك بصمات أقدامه. وضعت فوقه ضمادة جديدة، ونمت وايقظني سعيد في الثالثة عصراً فرأيت كأني أراه لأول مرة. سَيُرَحَّلُ سعيد إذن وسأنساه إلى الأبد.

قال وطعام الغداء بيننا نأكله على مهل:

ـ كنت اعرف أن مصيبة في انتظاري.

ـ لكنك كنت فرحان طوال الأمس.

ـ كنت اكذب. لم أقبّل وداد، قابلتها فقط هناك مشكلة قائمة بيننا منذ شهور.

ولم أرد.

ـ لها ابن عم يعمل محاسباً في مصر ويريدها منذ زمن. سافر إلى الكويت ونجح في أن يحصل لها على عقد عمل افضل وتريد السفر.

ـ لكنها كانت ستعود معك هذا العام وتتزوجان، لقد قلت لي ذلك.

ـ قلته. بل وكنا متفقين، لكن ماذا تنتظر أن يحدث لشخص التهم أهله نصف ثروته والتهم النصابون نصفها الثاني؟

وقام وحمل أطباق الطعام دون أن يدري أني لم انته فقمت وحملتها معه. ما كدت ادخل غرفتي حتى بدّلت ثيابي وخرجت مسرعاً بالعربة لا أبالي بجرحي ولا بالمطبات في الأزقة. اي دافع خبيث كان وراء شكوى صالح؟ كيف اقنع الشرطة أن تداهمنا؟ ووصلت إلى بيته ووقفت أدق الباب دقات متتابعة.

ـ مـــن؟

جاءني صوت امرأة عجوز واهن من خلف الباب.

ـ انا اسماعيل. أين صالح؟

ـ صالح من؟

ـ الثقيفي.

ـ لا احد هنا بهذا الاسم.

ـ صالح التلميذ بالمتوسطة الذي لأهله تجارة بالشارع العام.

ـ لا أحد بهذا الاسم هنا. إنْصَرِفْ.

وسمعت صوت وقع الأقدام الواهنة تعود. تلفتُّ حولي. يميني ويساري وورائي. هذا هو البيت وليست هذه مدينة سحرية يختفي

فيها كل ما تراه. ركبت سيارتي مرة اخرى واندفعت الى الشارع العام.

ـ إيش تبغي يا أستاذ؟

قال بهدوء بعد أن دخلت دكانه. كان يقف يبيع البطاطين والاقمشة وأنا انظر اليه بغيظ شديد. لم ينتظر ردي.

ـ تبغي بطانية، جلد نمر لدينا جلد نمر يحبه المصريون جداً. مصري انت يا استاذ؟ أليس كذلك؟ تبدو جديداً في تبوك.

وكان يتلفت اثناء الكلام إلى ولدين رأيتهما عنده من قبل، ويبتسمان في استمتاع.

ـ ما تبغي شيئاً؟ إذن أفْسِحْ مكاناً لغيرك الله يرضى عليك. تشرب بارد يا استاذ؟

وادركتُ حماقة ما أفعل. هذا الولد الذي لم يبلغ العشرين يسخر مني مرتين ولا سبيل للانتقام. عدت على مهل الى البيت. دخلت الغرفة ونظرت الى نتيجة الحائط. الأول من يناير عام ١٩٧٩. آه لو انتهى هذا اليوم وليلته وذهبت الى عملي في الصباح. ورأيت سعيداً وهو يُخْرِج حقائبه استعداداً للسفر. قال إن المَدْرَسَة أرسلت تطلب رأي الوزارة والرأي سيأتي بالترحيل خلال أيام. هو يعرف ذلك. وقال فجأة ما كان عليك ان ترفض التدريس لصالح. قلت إنا لم أرفض، فقط رفضت ان أتقاضى اجراً نظير الفرجة على افلام جنسية. قال انت لا تعرف هذه البلاد. صالح يستخدم الرشوة مع كل المدرسين من كل الجنسيات. لا يرفض أحد رشوته

ولا هديته. رفضت أنت أن تكون له اليد العليا. هذا شيء لم يخطر ببالي قط يا سعيد، صالح أصغر من ان يفكر كما تقول. صالح تاجر يا اسماعيل. معظم التلاميذ هنا تجار صغار السن لكن لهم نفوساً كباراً. أربكني سعيد وقلت هذه نفوس مريضة. قال ربما هي بريئة براءة الاطفال تتألم لاقل اذى ولا تعرف كيف تدافع عن نفسها. هنا لو اعطاك أحد شيئاً خذه بلا تردد، ولو طلب أحد منك شيئاً اقطعه أو أعطه املا حتى ينسى فأنت لا تعرف كيف تسير الريح. طال سكوتي ثم قلت انني ذهبت إلى صالح منذ قليل. ابتسم ساخراً وقال اسعدته بالمجان.

* * * * *

في غرفة مكتبي رحت انظر الى الدولاب الزجاجي والمقاعد والساعة المعلقة في الحائط والأرض الموكيت والمكيف ذي الصوت العالي والخازنة والمكتب المجاور لها. هذه غرفة أحبها ولا ادري. الوقت بها يمر وإلا ما معنى هذه الشهور الأربعة التي مضت. لقد استقبلني الجميع اليوم بفرح. الأسيويون ونبيل ومنذر وعابد أيضاً ابتسم وعم عبد الله الذي أعجبه ان أقطع اجازتي وأحضر، وفي التاسعة دق التليفون فسمعت صوت روز ماري. يا الهي! كنت نسيت. قالت إنها تفعل ذلك كل يوم، وإنها تنتظر ان أقبل دعوتها للغداء. قلت أَقبلُها إذا كانت اليوم، فضحكت وكأني رأيتها تمتلىء بالفرح. لا تدري أني لا أريد العودة الى البيت. قالت ستأتي في الثالثة بسيارتها وسأتبعها أنا بسيارتي. وما كدت افرغ من المكالمة حتى جاء عابد من غرفته يسألني «هل قبلْتَ دعوة روز؟» كان يستمع الى حديثنا فالتليفونان على خط واحد. لماذا إذن جاء

يسألني. أجبت «كما سمعت». ولم يختلج وجهه ولم يتغير لونه. قال:

ـ هذا خطاب لك.

تناولت الخطاب وتأملته. ما هذا النسيان الجارف؟ هذا خط واضحة لا اخطئه، وهذا خطابها الذي حدثتني عنه. واضحة التي تفجّر سرُّها اول امس فقط ونسيته كأنه تم منذ زمن سحيق.

ـ هل تعرف أحداً بالرياض؟

لم تكتب اسمها على المظروف لكنه قرأ الاختام.

ـ لي قريب هناك.

أجبت دون أن انظر اليه.

* * * * *

وفي الثانية عشرة، بعد ان رأيت اليمني جالساً على الأرض والسواك في فمه، وبعد أن ابتسم لي ابتسامة أكبر من كل مرة سابقة، وضحكتُ لأني كنت نسيته، دخل نبيل يحمل قهوة لم أطلبها، وجلس ثم قال

ـ وصلني اليوم خطابان. واحد من أمي وآخر من خطيبتي. ما رأيك؟

ـ فيم؟

سألت مبتسماً. ها هو نبيل يعيد الي شيئاً من البهجة بطريقته التي كنت نسيتها في الكلام.

ـ في الخطابين.

ـ انا لا اعرف ما فيهما

أخْرَجَهما من الجيب الأعلى للجلباب ووضعهما فوق المكتب وقال:

ـ أمي تقول إن خطيبتي هددتها إن لم أرسل لها مبلغاً كبيراً تحجز به شقة ستتركني، وخطيبتي تقول انها تنتظرني كما ينتظر العصفور طلوع الصبح ليغني.

انطلقت اضحك وأحسست بالدم يجري في عروقي.

ـ لا تسخر مني. هذا خطاب خطيبتي وهذا كلامها اقراه بنفسك.

ـ كنت مشتاقاً اليك يا نبيل.

تأملني باسماً وقال:

ـ انا أريد رأيك.

ـ قلت لك من قبل ان تسافر.

ـ وانا قلت لا أستطيع. انني أفكر في حل آخر. أرسل توكيلاً لاخي الاكبر يعقد قراني عن خطيبتي، وأرسل اليها فيزة دخول، وتأتي بثوب الفرح تعيش هنا معي.

ـ حلّ سليم.

سَكَتَ لحظات وقال:

ـ المشكلة أن أخي الاكبر مختل العقل قليلاً والثاني في السجن كما قلت لك. أنا لا أعرف كيف أتخلص من هذه الورطة.

وقام وتركني والدهشة معي في الغرفة، لكني أحسست وكأني صرت اكثر صحة وعافية.

* * * * *

في الثالثة والربع جاءت روز. كان منذر آخر الذين انصرفوا من العمال. اقترب مني وهمس في أذني. «عندي حكايات يا استاذ» ثم تحدث بصوت عال «تكسر سيارتك أو أكسر سيارتي لنعود كل يوم معاً»، وانصرف كالعادة متعجلاً.

رأيتها تقف بالسيارة خارج الباحة ووجهها وشعرها يلمعان في ضوء النهار الذي امتلكته الشمس بعد صباح مليء بالضباب. لقد نزلت تصافحني، وكنت اعرف أن عابداً يقف بباب مكتبه ينظر إلينا فقد لَوّحْتُ له بالتحية.. رَكِبْتُ سيارتها وتبعتها بسيارتي. قطعنا مسافة ليست بالقصيرة على الطريق الاسفلتي، ودخلنا إلى طريق جانبي ممهد بالحجر الأبيض الصغير المدكوك، وخايلني شيء بعيد في الرمال. كلب ابيض ضخم يمشي على مهل.

طال الطريق وتراءت الصحراء، وظهرت فجأة سحب رمادية. وتوارت اشعة الشمس، وفجأة بانت بيوت منخفضة من الخشب المدهون باللون الأخضر وذات أسطح مائلة. هذا هو الكامب الذي يعيش فيه الأمريكان. عبرنا بوابته بعد أن أشارت للشرطي أنني معها، ورأيت ثلاثة صفوف من البيوت تشكل ثلاثة اضلاع لمربع، وكل بيت ينفصل عن الآخر بحديقة صغيرة دائرية يحوطها سياج من شجر قصير. بين جدران البيت وسياج الشجر زهور شتوية مختلفة الألوان.

ـ هذا منزلنا.

قالت بعد ان تَوَقّفَتْ وتَرَكَتْ سيارتها، فتَرَكْتُ سيارتي وصعدت ثلاث درجات بيضاء. أدارت المفتاح بالباب وقالت لي أن أدخل.

لماذا لم تدق الجرس؟ ماذا سيحدث معي اليوم؟ أيكون اليوم أيضاً لخطأ جديد؟ تقدمتُ أمامي وخطوتُ خطوة مرتبكاً، لكني سمعتُ صوتاً أجش يتحدث الانكليزية ويسألها هل أتَيْتُ معها. هذا مستر لاري بالتأكيد. تَنَفَّسْتُ بارتياح ووجدته أمامي يستقبلني في الطرقة القصيرة فابتسمتُ. لا أدري لماذا فكرت أني رأيت تربة الحديقة سوداء. طويل مستر لاري وقوي البنيان، يرتدي أوفرول أخضر كاكياً يتردد إلينا في المكتب كثيراً وهو يرتديه. يوحي إليّ انه رجل عمل ولا ينبغي للزيارة ان تطول. ليكن. لكن من أين حقاً جاءوا بالتربة السوداء؟

- هاللو مستر اسماعيل. هاوْ دو يو دو؟
- هاللو مستر لاري.

وشدني من يدي الى الداخل ورأيت روز تبتسم لنا ثم تسبقنا وتختفي.

جلسنا في صالة واسعة في ركن منها مكتبة بها كتب واسطوانات وشرائط كاسيت وتليفزيون وفيديو وبيك آب وستريو. في ركن آخر دولاب زجاجي أنيق عريض وقصير به وفوقه تحف صغيرة، وفي الركن الثالث منضدة سوداء لامعة بسيطة حولها أربعة مقاعد يقابلها في الركن الأخير الأنتريه الذي نجلس فوق مقاعده. انتريه بسيط من الخشب السويدي فوقه حشايا منفصلة. لاحظت ان المنضدة شبه مجهّزة، عليها مفرش أبيض به ورود خضراء، وفوقه ثلاثة أطباق كبيرة وثلاثة أطباق صغيرة فارغة كلها موزّعة امام ثلاثة مقاعد، وبجوار كل طبقين سكين وشوكة وملعقة، وإلى الجانب دورق مياه وثلاث علب من السفن آب وثلاثة أكواب.

- بيرة مستر اسماعيل أم عصير؟ لدينا بيرة محلية - وغمز بعينه - وبيرة..
- عصير.

قلت بسرعة حتى لا يعود إلى ذكر البيرة مرة اخرى. لا أريد ان يذكرني أحد بالليلة قبل الماضية.

قام واتجه إلى ثلاجة صغيرة لم افطن إلى وجودها، وأخرج منها زجاجة من عصير الليمون، وملأ كوباً قدمه لي، وراح يتحدث بصوت عالٍ بانكليزية غريبة معجونة بلكنة اميركية تأكل نهايات الحروف، وسمعت روز ترد عليه من مكان لا أعرفه ولا أراها منه، ولم افهم مما يقولان شيئاً.

لحظات وأقبلت روز باسمة في ثوب اخضر زاهٍ قصير يكشف عن ساقيها حتى الركبتين، ومفتوح طوقه يكشف عن جيد عالٍ مُؤَسَّس على كتفين ممتلئتين وصدر ناهد. أحاطت روز عنقها بعقد من اللؤلؤ الأبيض اللامع وتعطرت عطراً غامضاً يجذب مني انفاسي. ليست هذه روز الجميلة التي رايتها ترتدي الجينز. هذه امرأة تحمل دعوة على صدرها وفي عينيها، ولعلها أدركت معنى نظراتي فابتسمت.
- ما لك مستر اسماعيل؟ أراك شردت بذهنك.

سألتني بعد أن جلست امامي جوار زوجها. ماذا تريد مني روز بهذا السؤال؟ أجبت:
- لا شيء.
- هل تخاف طعامنا؟

ضحك لاري بصوت كاد يهز جدران البيت، فَنَظَرْتُ إليه في

دهشة ممزوجة بالاستياء، فبدا خجلان وهو يقول:

ـ لا تخف مستر اسماعيل. نحن جميعاً غرباء. طعام الغرباء لا يختلف.

وسألتني روز:

ـ ألست سعيداً في العمل مع مستر عبد الله؟

ـ مستر عبد الله شخص ممتاز، لا بد أنكما تعرفانه أكثر مني، مستر لاري يعمل في المؤسسة وأنتِ في حضانته.

وظللنا الصمت. بدا أني تجاوزت حدود اللياقة. قالت روز بعد قليل:

ـ فعلاً. مستر عبد الله شخص ممتاز.

وعدنا إلى الصمت. هل يبوخ اللقاء؟ هل ينتهي الكلام بهذه السرعة؟

لكن مستر لاري سألني:

ـ هل أنت من القاهرة مستر اسماعيل؟

ـ أنا من الاسكندرية.

ـ أوه. مدينة جميلة.

ـ هل زرتها مستر لاري؟

ـ لا. قرأت عنها رباعية داريل. لا بد انك قرأتها. روز تقول انك مثقف جداً.

أدهشني إطراؤه الكاذب وقلت:

ـ اختلفت الاسكندرية الآن. لم يعد بها اجانب ولا يهود بالذات.

ـ لكن اليهود يعودون الآن مستر اسماعيل.

ـ لا أظن مستر لاري.

قلت ذلك ونظرت إلى ظهر روز التي استأذنت وقامت لتحضر الطعام. ظهر بديع التقسيم، كدت انهض واحتضنه، وربلتا ساقيها تلمعان بألق غريب. لكني تنبهت لنظرات مستر لاري، فأطرقت.

قام هو ووضع في الستريو شريطاً انسابت منه موسيقى خفيفة منعشة، وعاد يجلس صامتاً وأنا لا أستطيع ان أمنع نفسي من أن اختلس النظر إلى روز وهي تأتي لتضع شيئاً فوق السفرة، أو تعود إلى المطبخ، وعاد يسألني:

ـ هل تظن حقاً ان اليهود لا يذهبون إلى مصر الآن؟

ـ يذهبون ولكن لا يهتم بهم أحد.

ـ لكن السادات يتحدث عن السلام كل يوم.

ـ السادات ليس الشعب المصري مستر لاري. بيننا وبين اسرائيل دم كثير.

وسَكَتَ وسَكَتُّ وعدت اشعر بأني أُفسد كل شيء. قلت ليكن. لكن روز وقفت فاردة ذراعيها تقول بصوت مبهج:

ـ كل شيء جاهز الآن.

قمنا للمائدة ولم يكن الغداء مختلفاً. كان بالضبط كما قال لاري، طعام الغرباء. شرائح من اللحم البارد، وشرائح من اللحم الساخن، وارز قليل، وخبز أقل، وخضار سوتيه. وطبق كبير من السلاطة. وزجاجة نبيذ أحمر برتقالي عليها علامة الفرسان الثلاثة.

قال لاري:

ـ يجب ان نعتذر لأننا نقدم إليك نبيذاً انتقل بالطائرة.

لم افهم ماذا يقصد، فقال:

- النبيذ يفقد الكثير من مزاقه حين ينتقل. أفضل نبيذ تشربه في مكانه.
- هذه مسائل دقيقة مستر لاري وأنا لا أشرب الخمر.

غيرت روز الموسيقى، وأدارت اسطوانة تحمل فالسات لشتراوس، وسألني لاري ما إذا كنت أحب الموسيقى، فتحدثت عن سترافنسكي وطقوس الربيع وتشايكوفسكي ومارش السلاف. وبدا لاري معجباً بثقافتي الموسيقية التي أعرف أنا مقدار بساطتها، وحين قال انه يحب كثيراً موسيقى هايدن، قلت هذا الرجعي الكنسي لا يصمد دقيقة أمام فاجنر مثلاً. وبدا أن الجو تكهرب بحق هذه المرة، لكن روز ابتسمت وقالت بتفوق تحسد عليه، لماذا حقاً لا تأكلون في صمت، وتستمعون إلى فراشات شتراوس وهي تحلق حولنا.

* * * * *

بعد الغداء قالت روز إن بالكامب سينما ستعرض اليوم «التانجو الأخير في باريس»... وقال لاري:
- أظن أن مثل هذه الأفلام تمنع في مصر.

كنت أعرف انه يريد ان ينال مني بأي طريقة. وأنا الحقيقة لا ادري حتى الآن لماذا بادرته بالعداء. قلت:
- نعم. هي ممنوعة في مصر.

ابتسم كمن ظفر بغريمه، ولم يضايقني انه وجد فرصة للنيل مني. لكنه سقط في الفخ، وقال لي أن أدخل لأنام في غرفة نومهما إذا كنت مرهقاً. أدركت أنه يعرف أني كشرقي سأرفض وانصرف.

رفضت لكني لم انصرف. قلت سأبقى جالساً حتى أرى الفيلم.

كان لاري ضعيفاً هشاً بحق. تكلم فجأة عن امريكا وقال إنها ليست كما نراها في الأفلام. في امريكا فقر وجوع، وانه شخصياً بذل جهداً كبيراً حتى يأتي الى المملكة السعودية. بدا لي وكأنه يتحدث مع مسؤول سعودي يملك قَدَرَه، لكن روز التي جلست جواري بعد الغداء طول الوقت، كانت تبدو دائماً أكثر ثقة في نفسها.

حين خرجنا إلى السينما كان الجو اكثر برودة، ربما لأننا هنا وسط صحراء واسعة. شاهدت أكثر من رجل وامرأة يخرجون من البيوت، ويمشون على مهل يضحكون ويتحدثون بصوت عال، ويتجهون جميعاً إلى السينما التي وجدتها صغيرة أنيقة ذات مقاعد جلدية وثيرة ومكيفة الهواء.

جلسنا، ودار الفيلم الممنوع في مصر، وخرجتُ مسحوراً بأداء مارلون براندو، ولكني رأيت عم عبد الله ينظر الي في دهشة. كان بالسينما أيضاً، وكان في صحبته امريكي قصير وضخم. بدا انه امتعض لرؤيتي، لكنه تجاهلني ومشى في طريقه مع الامريكي. ارتبكت قليلاً ثم وجدت نفسي افكر في الرقصة الاخيرة الجميلة في الفيلم، ومارلون براندو يخلع سرواله فتفرّ أمامه النساء العجائز، ثم اندهشت للغاية وأنا اتذكر مارلون براندو وهو يطلب من الفتاة الصغيرة أن تضع إصبعها في مؤخرته، وكيف راح يتلذذ بألم وهي تفعل ذلك.

١٩

صرنا نتنفس الصمت ونأكله. سعيد يفعل كل شيء بهدوء. يقوم ويجلس كأنه خيال. يأكل كأن أسنانه تعمل وحدها وعلى مهل. لا يتكلم ولا يفتح التليفزيون يصلي كثيراً ويقرأ في القرآن بلا صوت. وأنا عرفت أن عايدة رحلت عن تبوك فَلَحِقْتُ بِصَمْتِهِ.

في طريق عودتي بعد دعوة روز ماري أحسست بألم في الجرح. كان الوقت ليلاً والبرد شديداً والظلام حولي يُضَيِّق الخلاء الواسع، وضغطُ البول شديد في مثانتي، فأوقفت السيارة ونزلت، وجوارها وقفت ورأيت الدم ينفذ من الضمادة فوق الجرح. سَبَّبَتْ الحركة شقاً في مكان الخياطة إذَنْ. كان من الممكن أن آخذ طريقي الى البيت وبتدبير وجيه الأمر لكني توجهت الى المستشفى، وقابلت موردة، أنا الذي رغبت أن ارى عايدة. أخذتني وردة الى طبيب باكستاني، رفيع العنق، صغير الراس بشكل مثير فقال لها أن تعالج هي الجرح، وتركنا مسرعاً حين سمع سيارة الإسعاف.

ـ أين عايدة؟ أظن أنها لا تزال تعمل بالليل.

سألتُ وردة وفوجئتْ بسؤالي، فتورّد وجهها، وتَرَدَّدَتْ في الكلام ثم قالت:

- في ضبا.

- ضبـــا؟!

- أجـــل.

- لمـــاذا؟

- احتاجوا واحدة منا فأصابنا الرعب وتقدمت عايدة بنفسها تطلب العمل هناك.

- لكني كنت هنا منذ يومين.. لم تقل لي شيئاً.

- حدث ذلك كله أمس واليوم سافرتْ.

- إلى هذا الحد؟!

قلت بصوت هامس ووردة تنظر الي. انتهت من وضع الضمادة وجرّت تلحق بالحادثة. كيف لم يخبرني وجيه؟ وما الذي يجعلها تأخذ مثل هذا القرار؟ أصابني الصمت فأصاب وجيه أيضاً الذي لم يجد احداً يتحدث اليه، فصرنا نتنفس الصمت ونأكله!

كان عليّ في اليوم التالي أن أذهب إلى واضحة، وكنت اعرف أني لن اقابلها أيضاً. تلقاني خالد هاشاً كعادته وأخذني إلى الحجرة الواسعة فلم ار المكتب. وطدت نفسي ألا أنزعج.

- تفضل بالجلوس يا استاذ.

وأشار إلى الارض. لم أجلس ولم أرد.

- والله يا استـاذ واضحـة مريضـة جداً. منعها الطبيب من استقبال أحد لمدة اسبوعين قد تمتد إلى شهر ويعلم الله ما يحدث بعد ذلك.

مددت يدي أصـافحه فصافحني. طعْم صالح سنيور الثقيفي

خبر السُكّر في كل تبوك. عند الباب الخارجي قال خالد:

- أعرف بيتك يا استاذ. وحين تشفى واضحة سأحضر اليك.

ولم أرد. ثَقيف طاردت الرسول بالحجارة حين ذهب اليها. من ثقيف خرج ابن جلا وطلاع الثنـايا ودخل الكوفة فخلع العمامة وأصدر أول مرسوم يهدد بقطع الرؤوس لكني لا أظن ان صالح ينتسب لثقيف. ليس إلا طائشاً موتوراً. من يترك الجنوب الطري إلى الشمـال المترب الجاف الآن؟ وصار الصمت أعمق. وجاهدت في عودتي أن لا أخطيء فأمر ببيت سيد الغريب. ذلك الموقوف المنسي بالخوف والخذلان لا يجب ان يصيبني الصمت الى الابد.

سافر سعيد ولم اذهب اليوم الى العمل. ذهبت الى المطار ورأيت وجـوه المصريـين حولنـا مبتهجـة. متـاعهم كثير وحركتهم دائبة والشمس ساطعـة اكثر من كل يوم وضحكاتهم عالية. إنهم عند أبواب الفضاء الواسع. لكن سعيد صامت وانا يزداد صمتي.

عدت الى البيت وقرأت الصحف التي اشتراها وجيه ولم يقرأها. بيغن يعلن عن استئنـاف المفاوضات مع مصر خلال اسبوع او اسبوعين في اميركا، والأنباء تتضارب حول سفر الشاه، وشهبور باختيار رئيس وزراء ايران الجديد يعلن ان إيران قد توقف تصدير البتـرول الى اسرائيـل، وعشرات من الاطبـاق الطائرة تظهر فوق استـراليا. اجسام زرقاء لامعة تطير على غير هدى فوق الساحل الشرقي للقـارة، ثم يتحـول لونهـا إلى الاحمـر وتـرسل اشارات غامضـة، والعلماء يقولون إن هذه المشاهدات هي كوكب الزهرة الذي يبدو الآن في أقصى درجات لمعانه بحيث يمكن رؤيته اثنتي

عشرة ساعة كل يوم بطريقة تخدع كل من يراه فيتصور أنه جسم متحرك.

عاد وجيه في الثالثة ودهش لأني لم اتناول الغداء حتى عودته وقال إنه من اليوم سنتغدى دائماً معاً. قبل ان ادرك معنى كلامه فكرت في ارتفاع صوته المفاجيء، قال:

ـ سأعمل بالليل شهراً أو شهرين.

إذن سأمضي الليل وحدي. قلت في نفسي وعاد هو يقول:

ـ اظن انه لا حاجة بنا لأحد يسكن معنا. امْ لا تتحمل ميزانيتك نصف الإيجار؟

قلت في حسم:

ـ لسنا في حاجة إلى شريك ثالث ولا إلى هذا البيت نفسه.

ـ كيـــف؟

ـ هل تستطيع العيش الآن في بيت يملكه صالح سنيور التقيفي؟

* * * * *

كدت أنام بعد الغداء أنا الذي اعلنتُ الحرب على النوم الذي أعلن الحرب عليّ.. في يومين متتاليين ضاعت عايدة وواضحة ولم يبق إلا روز ماري التي اعرف انها لن تزيد على جملة عارضة.. والآن أيضاً ضاع سعيد فازدادت للنوم الأسلحة.

لخمسة أيام وأنا استخدم كل سلاح حتى لا انام. استحم اكثر من مرة في اليوم الواحد. اتناول غداءً خفيفاً رغم هزالي بعد العملية. لا اجلس فوق السرير. العب الرياضة في الغرفة وافكر بصوت عال. لكن النـوم مثـل وسـواس خناس ينجح دائماً في اختلاس لحظة

ترتخي فيهـا اهـدابي فيضـع فوق عينيّ دثاراً ثقيلاً من الظلام ويشدني من قدميْ إلى أسفل سافلين ويظل واقفاً فوق راسي يرسل كوابيسه ورؤاه. يصيبني النوم بالرعب الآن وأراه جالساً أمامي في كل مكان في الغرفة يبتسم ماكراً مطمئناً إلى انه سيد الكون. انا يا سيـدي مستعد للاستسـلام بشرط أن تغير رؤاك. لماذا تداهمني بالرعب ولم اخطيء حتى الآن في حق أحد. اغْلقَ كتاب واضحة إلى الابد وخاب حدسي، واختفت ببساطة إغلاق يد وانفتاحها. ولا اظن أن للقصة تتمة غير ما جرى فكل ما احسست به لم يكن غير ظمأ. لم تراك تظن أني اشتهي روز ماري التي دعتني ولا افهم للآن سر دعوتها؟ ها أنت رأيت يا سيد العيون والاجساد، ويا باعث الحياة وسـالب الارواح، اني ضيقت صدري أمـام زوجهـا، ووضعت الجنادل في طريق المياه العذبة السلسبيل. لعلك تلومني من اجل عايدة. أي خطأ في اني لا أفهم المرأة الا للزواج؟ أي خطأ في اني كدت ابوح برغبتي؟ هي التي سدت الطرق وفتحت باب جرح ما له من شفاء. ستبقى هذا عشرين سنة حتى يُشفى هشام الذي دهمته سيارة يوم زيارة نيكسون للبلاد. تحاصرني السياسة أنا المحاصر يا سيـدي لا تنسَ واتـركني أنـام مرة كالاطفال فلم أخطيء يوم صرّحت «لآمـال» اني لا افهم الحب إلا للزواج. من كان يدريني ببسـاطة العقل وشفـافية الروح، انا ضحية الواجب والمباديء العـائلية البالية. لا خطأ لي ولا خطيئة رغم موت «آمال» وضياع الجميع. في زماننا لا يموت أحد بالحب إنما هي قصص قديمة كلها فما خطيئتي إن كان ذلك قد حصل؟ ألا تزال تنظر إلي رغم أني جالس فوق المقعد أقاوم دبيبك النملي واغراءك بأن اغفو ولو لحظة فوق السرير؟ سأستحم الآن ولن اعطيك اليوم فرصة. اليوم على

الأقل. حتى لو عميت عيناي وتحطمت أعصابي.

وتركت المقعد متعباً. وتمددت فوق السرير أقاوم رغبة في البكاء.. أملت حقاً في النساء الثلاث. لم تبق إلا واحدة لا أمل فيها. ثمة خيبات تلو خيبات! خيبات أصنعها بنفسي، وخيبات تلقى في طريقي. وشددت الغطاء فوقي ودخلتْ الوجوه الثلاثة معي تحته. ورأيتهم، أولئك الحرّاس الأشداء سود الوجوه صفر الأسنان ذوي الابتسامة الدائمة والنظرات الممتدة إلى الأفق البعيد العالي يسوون الأرض ويرشونها بالماء ويقيمون جداراً عالياً ويلوحون بأيديهم للسماء فيتساقط منها أولاد صغار وأولاد كبار وشيوخ وشبان ونساء وبنات وترتفع في الأرض أحجار ويمسك بي الخصيان ويلقون بي الى أعلى فأجلس فوق جبل تحيط قمته المياه فلا أستطيع النزول وأرى واضحة مكومة على الأرض جوار الجدار رأسها بين ركبتيها وذراعيها وتستيقظ وترى الذين يدورون حولها بالابتسامات البلهاء والذين نزلوا من السماء أمسكوا الأحجار التي ارتفعت فوق الأرض وتفزع وتجري إلى اليمين فتراهم وإلى اليسار فتراهم وأمامها سدّوا الطريق ولا سبيل لها بتسلق الجدار وأنا عاجز عن النزول وهي تسمع صراخي وترفع لي ذراعيها هلعاً وحجرٌ بعد حجرٍ والدم ينفجر من رأسها وروز تقف على قمة جبل قبالي انشقت عنه الأرض فجأة تضحك وتخلع ثيابها تطيّرها في الهواء وتعود الأرض وتنبسط ويصعد الجميع الى السماء وينزاح من حول الجبل الماء وأنزل بخطوات بطيئة أتقدم إلى واضحة التي تكومت الآن تنهنه كطفل انتهى من الصراخ بعد ان ضربوه ضرباً مبرّحاً وجلس وحيداً في ركن ذليلاً يدرك مبكراً جداً معنى الإهانة ويذوب الجدار قطعاً من الثلج فيصير بحيرة باردة وتمسكني يدٌ من

ذراعي تقيمني أنا الجالس ورأسي بين ركبتي وذراعيّ حول رأسي أنهنه بالبكاء وأرفع وجهي وأراها، عايدة، يترقرق الدمع في عينيها، وامشي معها فتسقط مني في حفرة في الطريق، وأظل أمشي وحدي باكياً أمسح دموعي بيديّ ويطول الطريق وأبدّل فيه ثيابي وأدخل الشارع العام فأصرخ يا الهي ما كل هذا الجحيم؟ جحيمان في لحظات وانا ما جئت السوق الا التماسا للتعب حتى إذا نمت أنام بعد سماء النوم بألف سماء فينساني. لكن سيارات الشارع العام كلها تعود في اتجاه واحد. وتصرخ ويعلو نفيرها، وتكاد تقفز فوق بعضها، وانقدم مسرعاً في الشارع أرى الأفق الجنوبي أسود من الدخان الكثيف الذي يعلو ألسنة اللهب التي ملأت صفحة الفضاء بالاحمرار الجنوني. انفجارات متوالية واخشاب تطير عالياً واشياء ضخمة لا أميزها واشياء صغيرة والرجال والنساء يقبلون مسرعين في ذعر يحملون الأطفال أو يجرونهم جراً بلا رحمة والحمم الحمراء تسقط فوق المنازل القريبة والصراخ يختلط بكل اللغات وأتقدم غير مبالٍ بالاختناق الذي صرت أحسه وأجري مع الغرباء أسحب الساقطين فوق الأرض من الرجال والنساء والاطفال أعود مسرعاً بهم إلى شمال الشارع بعيداً عن النار والدخان وصوت عربات الاسعاف يأتي من الخلف لكنها لا تتقدم من زحام السيارات التي تركها راكبوها الآن وجروا وعلينا نحن الذين لا يعرف واحد منا الآخر أن نحمل الموتى والمختنقين إلى سيارات الاسعاف حيث تقف وصوت عربات الاطفاء يملأ الفضاء وتدور حول الشارع لتدخل من الشوارع الجانبية إلى موقع الحريق الذي يلتهم نصف الشارع العام الجنوبي كله وبرزت الخراطيم الضخمة من الأزقة لكنها فجأة تفلت من أيدي الجنود وتتلوى على أرض الشارع كالثعابين

الضخمة المذعورة وتسقط فوقها حمم النار فتزداد تهوراً في
التواءاتها ويهرب الجنود والمياه تفرق أرض الشارع ولا تتجه إلى
الفضاء ولا النار وتمر غيمة كبيرة في السماء فتظلم الأرض ويرتفع
التكبير بكل اللهجات وترتفع الأذرع ضارعة أن يهطل المطر ولا مطر
فتمر الغيمة غير آبهة لنا ويرتفع في الجو هدير الطائرات المروحية
الضخمة الصفراء واقرأ على جوانبها (القوات الجوية للولايات
المتحدة). أجل. حروف بارزة والطائرات قريبة تلقي فوق الشارع
سحباً من الدخان الأبيض وانهاراً من المياه.

مضى وقت طويل حقاً حتى وجدت نفسي وحيداً بين الخراب
الشامل. كنت مبتلاً بالمياه من رأسي إلى قدمي لكنني لم اكن متعباً.
أي قوة جنونية تلبستني انا الذي لم يمض على خروجي من
المستشفى ثمانية أيام. ولم أشعر بأي ألم في جرحي. فقط صرت
أشم رائحة شواء. فحم محروق أمْ خشب أمْ حجارة أمْ بشر؟ لا
أدري إلا أني أرى عيوناً ذاهلة للرجال والنساء تبحث بين
المحروقين الذين يملأ صراخهم الفضاء، والساكنين بعد أن صاروا
جثثاً متفحمة كُشِفَتْ وجوه النساء جميعاً وسقطت أغطية الرؤوس
عن فوق الرجال وارتفع الآذان من المسجد الكبير وكل المساجد،
واقْتَرَبْتُ من منطقة ام درمان التي لم تُصَبْ بسوء. الجامع يحميها
أم أن أهلها ليسوا من هذا الزمان؟

ووقفت أجتهد لتذكر من الذي كنت ابحث عنه بين الموتى
والمصابين. كان سعيد هو الذي ينزل معي دائماً إلى السوق. سافر
سعيد حقاً وودعته بنفسي في المطار.

٢٠

صار عليّ أن أجاهد لأنسى. لا شيء هنا ينسيك شيئاً. تبوك لا
تنسيك «أمك ولا أبوك».. والمسألة أن الغرباء هم الذين جاءوا
يبحثون عن النسيان.

ساعد انتقالنا الى بيت جديد في انشغال ذهني بعض الوقت
حيث ترك لي وجيه الامر كله. بصعوبة استأجرت بيتاً صغيراً من
غرفتين وعلى نفس الطراز العربي في نفس الحي الذي نسكنه،
الفيصلية غرب البلدة، لكن عند نهايته حين يلتقي بالصحرا. بيت
جديد لا تزال فيه رائحة الملاط والدهان، وتخلصت ايضاً من الاثاث
الزائد ببيعه لأحد تجار «الحراج».

أحسست وأنا ادخل البيت الجديد لأول مرة أني قادم لفوري
من مصر ولم يسبق لي أن عرفت احداً هنا. قلت لعلّ النوم يعيد إلي
ما خلقه الله له، ونمت بعمق حقاً ولم يزعجني الفأر الذي كانما كان
على موعد معي. دَخَلَ وغَشَّشَ في المطبخ، ولم افكر في قتله أو
مطاردته. جلستُ وكتبت خطاباً لعايدة. اغلق كتاب واضحة إلى
الأبد وهو كتاب فَتَحْتُهُ حماقتي، وكتابُ روز ماري خداع كله. فتاة
نُذِرت للموت واضحة وما كان لي أن أخطو على دربها خطوة فأحرك

في نفسي أسى كنت دفنته وأهلت فوقه التراب، وعليّ أن اتوسل لله بالحمد والعرفان، فما جئت هنا لأقتل أو أموت، ولتظل الاوقات التي أمضيتها معها مغامرة حلوة أدركت منها حيوية الجسد، وانفساح الدنيا وكذبة الاخلاق. وروز عاري طمع الريفي الذي يمضي في المدينة يوماً واحداً ويعود لأهله واصحابه يحدثهم عن فتوحات استقاها من تحذيراتهم السابقة له، ولا مهرب لي من عايدة. عايدة فقط تؤاسي جراحي الوهمية، وبها يمتلىء فضائي الذي اكتشفت خواءه الآن..

لم اكتب إلا «لماذا فعلتِ ذلك؟» إجابتها إن جاءت تتم القصة. وكتبت على المظروف «عايدة عبد السلام. مستوصف ضياء» وكأني نفثت نفثة الارتياح تكاد النوم صديقاً طيباً. وكنت اكثر من مرة أقوم أبحث عن الفأر لأبتسم في وجهه المذعور واشجعه على البقاء وانزاح عني كل خوف من أحد أو على أحد. وادركت انه قد مضى شهر لم ارغبه روز ولم اسع لرؤيتها ولا هي سعت كنت مهيئ للنسيان إذن وخطابي لعايدة هو قطرة البلسم الاخيرة لروحي التي اعتلّت بلا سبب. هو بداية الجهد لانتعاش ذاكرة الأنثى الجميلة بأنه لا انثى في هذا العالم مهيأة لما هيأت نفسها له من واجب. ما الذي يمنع حقاً أن اكون فارساً نبيلاً في هذه البلاد؟ كل فارس نبيل أنقذ امرأة في تاريخ هذه الدنيا أحبها وأحبته. واليوم، وقد مضت ثلاثة ايام على خطابي لها. أقود سيارتي إلى العمل بروح أثيرية رغم السحب السود الخادعة غير الممطرة التي تحجب عني السماء، وتعزل الشمس عن ابنائها، وتضم البرد القارس تحتها، فأشعل السيجارة تلو السيجارة في كابينة السيارة مغلقة النوافذ.

* * * * *

رأيت الباكستانيين يقفون أمام الكامب وحقائبهم الكثيرة على الأرض ولا يكفون عن الحركة، وانا اميل بسيارتي عن الطريق الرئيسي لأدخل باحة مكاتب الشركة. رأوا سيارتي ايضاً ولوحوا إليّ بأذرعهم من بعيد. عشرة سيسافرون اليوم الى باكستان في إجازتهم السنوية. تسعة منهم امضوا في العمل خمس سنوات متواصلة، فيهم خمسة أنهوا تعاقدهم ولن يعودوا. العاشر أرشد الذي ينتظم في القيام بإجازته كل عام، وسيعود بعد الإجازة يبدأ عامه الخامس.

ودّعوني امس وأنا أعطيهم التذاكر وجوازات السفر، وسألوني ما اذا كنت احب شيئاً من باكستان. كلهم والذين لن يعودوا ابدوا كرمهم، لكن ارشد كان يبدو مرتبكاً. لم أشأ أسأله. قلت لعلها المشاعر التي تسبق السفر الطويل. بدوا لي اليوم في سراويلهم البيضاء الفضفاضة، والجاكتات الزرقاء والخضراء فوقها، وحركتهم الدائبة أمام الكامب، كأطفال يوم عيد. ودخلتُ الباحة تمرحُ في صدري النشوةُ والابتهاج.

جلست وحدي بعد أن اقبل العمال ووقعوا في دفتر الحضور، وما كدت اشرع في ترجمة بعض التقارير، حتى فكرت لِمَ حقاً لا يأتي وجيه بإحدى زوجتيه لتعيش هنا معه؟ تجاوز وجيه الخامسة والأربعين، ودخل في منطقة الفراش الهانيء والبيت المريح، والنظرة الطيبة للزوجة الطيبة، والسعادة بما يثيره الأولاد من ذكرى وهم يعاودون ولو قليلاً سيرة الأب في العلم والحب والآمال. نمط غريب من البشر وجيه حقاً يشقى ليسعد زوجتين بعيدتين تزوجهما ليبقى عنهما بعيداً!!

ـ شُفْت الباكستانيين؟

قال نبيل وهو يدخل الغرفة باسماً يحمل فنجان القهوة.

- قرود. والله قرود. طول الليل تعال يا نبيل ساعدنا في العثور على حبل، تعال يا نبيل ساعدنا في العثور على كرتونة فارغة، إيش تبغي يا نبيل من باكستان. يا عم لا أبغي شيئاً اتركوني انام. اسهر معنا يا نبيل فلن نراك مرة اخرى.. لقد ظلوا يغنون طول الليل.

- وأرشد؟

- غريب ارشد. لم يتكلم كلمة. لماذا؟ هل تعرف؟

ولم اجد رداً. لا اعرف رداً حقاً.. وسكتنا قليلاً ثم قال نبيل:

- ما هي حكاية الأطباق الطائرة هذه الأيام؟

- أي أطباق طائرة؟

- ألا تقرا الجرائد؟ الا تسمع النشرات؟ أطباق طائرة في استراليا وقلنا بعيد، في نيوزيلاندا وقلنا بعيد، في اليابان وقلنا ايضاً بعيد، في امريكا أيضاً بعيد، لكن في الهند وشمال العراق وتركيا يعني ان المسألة قريبة جداً.

- وماذا يعنينا من قربها يا نبيل؟

- أنت تضحك! الا تعرف؟ أطباق طائرة تعني ان الناس الذين يعيشون بعيداً عنا في المريخ أو زُحل يمهدون لغزو الارض.

انطلقت اضحك بشراسة وهو ينظر الي في خجل ودهشة وابتسامة ذاهلة لم تنته إلا بدخول سيارة وسماعنا صوت عم عبد الله وهو يدخل يتحدث لأحد بالانكليزية.

- يا نهار اسود!

قام نبيل وهُرع إلى البوفيه، وبعد لحظات وقف عابد على باب غرفتي يدعوني لمقابلة عم عبد الله.

* * * * *

- هل لديك مشكلات في مصر؟

سألني عم عبد الله بعد أن صافحني مستر لاري الذي وجدته معه في غرفته.

- مشكلات من أي نوع؟

- مع العمل.. مع الجيش. انا اعرف ان الكثيرين منكم يهربون من الجيش ويزوّرون أوراقهم.

- انا لا مشكلة لي مع أحد.

قلت وأنا اطيل النظر إلى عينيه.

- إذن تسافر بعد يومين إلى القاهرة.. «لاري» يشرح لك.

وانشغل عنا بالتليفون يدق أرقامه فقام مستر لاري وهو يقول:

- يمكن أن نتحدث في مكتبك.

سبقته وتبعني، وجلسنا على مقعدين متقابلين، ولا بد أنه لاحظ شرودي قبل أن يتكلم.

مصر. والآن. نطقها عم عبد الله فاتسع صدري بالفرح. مصر.. والآن. لعل فيها الشفاء من كل شيء. مصر، من ثَم بالاتصال بعايدة بسرعة البرق لأعرف عنوان أهلها هناك فأقابل هاشم المتفائل الذي لم تحب من اخوتها غيره والذي ضرب حولها سوراً من الانتظار صلداً دون أن يدري. أي صلة تربطني بها حتى أرسل اليها برقية

يمكن أن يقرأها أيّ أحد؟ لا تليفون بين تبوك وضبا. لا تليفون؟! اللعنة على البترول والريال والدينار والدولار الذي لم يزل يوسع في المسافات!

- كيف حالك مستر اسماعيل؟
- بخير مستر لاري.
- الرحلة الى مصر جميلة على أي حال.. لقد رشحتك أنت بالذات لهذه المهمة منذ رأتك روز. قالت انك تجيد الانكليزية ونحن نحتاج لها.

- حدثني عن المطلوب مستر لاري..
- في هذا المظروف بوليصة شحن بضائع قيمتها ثلاثمائة الف دولار. عشرة صناديق من المعدات الهامة شحنتها انا منذ اربعة اشهر من سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا ولم تصل حتى الآن. على بوليصة الشحن كما ترى رقم الرحلة وتاريخها والشركة التي شُحِنَتْ عليها. شركة طيران لوفتهانزا الالمانية. وهنا أيضاً خط سير الرحلة سان فرانسيسكو. نيويورك. ميونيخ. القاهرة. جدة. تبوك.
- ولماذا اذهب للقاهرة مستر لاري؟
- لأن الاحتمال الوحيد الآن هو فقدان هذه البضائع في أحد المطارات. ومطار القاهرة هو المرشح لذلك. أنت تعرف مصر اكثر مني مستر اسماعيل.

قال ذلك وابتسم لكني لم أبتسم. عاد اليّ شعوري بالتحدي ازاءه. ذلك الشعور الذي قفز بيننا فجأة بلا سبب والذي أشعر به وقد ازداد اليوم.

- لكن الا يمكن مخاطبة هذه المطارات بالتلكس من هنا!

- فعلنا ولا اجابة حتى الآن. مسالة غريبة مستر اسماعيل، لكن لا تشغل بالك كثيراً، سنجد البضائع في النهاية.

وأخرج من جيب سترته الداخلي رزمة صغيرة من الريالات وورقة وقلماً.

- هذه خمسة آلاف ريال لك مصروف جيب بالقاهرة. انا اعرف ان كل شيء في القاهرة تحركه النقود. وهذا إيصال ارجو ان توقع عليه.

ولم اجد طريقة لارد إليه الاهانة. انه على حق بالتأكيد. ارتبكت لاني لا اعرف كيف انتصر عليه. وقّعْتُ على الإيصال بسرعة فقام يقف مبتسماً ويقول:

- عليك الآن بالاتصال بالخطوط السعودية لتحجز لك تذكرة في رحلة بعد غد، ولا تنس أن تطلب فيزة خروج وعودة لمدة شهر أو شهر ونصف حتى يكون لديك متسع من الوقت.

* * * * *

خرج «لاري» ودخل «ارشد» في نفس اللحظة شاحب الوجه لكن في عينيه غيظ شديد، وألقى بنفسه على اقرب مقعد.
- أرشد.. غير معقول!

ونظرت إلى ساعة الحائط. العاشرة. الطائرة تقلع في التاسعة.
- هل تأخرت الرحلة ارشد؟
رفع عينيه إليّ وهزّ رأسه بالنفي. لا يزال فيهما غيظ وغضب.
- لماذا عدت اذن؟

- بوتو مستر اسماعيل.. بوتو وضياء الحق..

- هل قتلوه؟

– أيدت المحكمة العليا قرار الاعدام السابق ضده. رفضت الالتماس الذي قدمه. بوتو لم يطلب العفو. المحكمة تعمل كما يريد ضياء الحق.

– أرشد.. أنت صديقي . أظن ذلك. هذه المسائل الكبرى لا يجب أن تعطلنا. بوتو يقتل ضياء الحق. ضياء الحق يقتل بوتو. الى الجحيم بالجميع.

– أنا اوافقك مستر اسماعيل.. لكن – وأجهش في البكاء – لقد هيأنا انفسنا للسفر اليوم. ارسلنا برقيات لأهلنا وهيأوا انفسهم لاستقبالنا. كلنا نبكي الآن مستر اسماعيل. كلنا نحب أولادنا وزوجاتنا وآباءنا وأمهاتنا واخواتنا. وفَّاج يبكي. غُلام يبكي. سَرْوَرْ يبكي. خورشيد وجُناح ومحمد. نحن تعساء جداً.

ولم اكن فهمت شيئاً بعد. اصابتني الحيرة ودخل نبيل الذي عرف بنبأ سفري للقاهرة يقول بصوت عال:

- هنيئاً لك السفر.

وتوقف عن الكلام إذ رأى أرشد يبكي.

– ما لك أرشد؟ مالك صديق؟ لماذا تبكي . هل هناك مشكلة حول الكمّون؟

احتجت الى قوة كبيرة أن لا أضحك، ولم يرفع ارشد وجهه اليه. قلت لنبيل:

– لقد حكموا على بوتو بالاعدام مرة ثانية.

- بوتو. بوتو من؟ آه بوتو رئيس الوزراء.. هل هو قريبك أرشد؟

ومرة اخرى كتمت رغبتي في الضحك، وغمزت لنبيل بعيني أن يكف عن الاسترسال في الكلام. سألت ارشد:

– انا لا أفهم سبب عودتك من المطار حتى الآن.

– المظاهرات مستر اسماعيل اندلعت في كل باكستان. الحكومة أغلقت المطارات. قالوا لنا ذلك هنا، وقالوا انه من الافضل إرجاء الرحلة بدلاً من الانتظار في جدة أو في بومباي بالهند.

وسكتنا نحن الثلاثة. كان نبيل لا يزال واقفاً. قلت لأرشد:

– لا أظن أن دولة تغلق مطاراتها اكثر من يوم أو يومين، وغداً أو بعد ليس بعيداً أرشد..

ولم يرد. وعُدنا نسكت من جديد حتى سألني:

– ماذا سنفعل الآن مستر اسماعيل.. نعود الى العمل؟

– لا. ابقوا في الكامب. سأحسب لكم ما تمضونه من انتظار أيام عمل. لا تقلق أرشد.

وقف وقال:

– أشكرك جداً مستر اسماعيل. لا تلومني على بكائي.

وصافحني وظل ممسكاً بيدي لحظات. قلت:

– أنا احبك أرشد. واحب كل الباكستانيين.

فشد على يدي بيده في تواضع كبير وانصرف.

* * * * *

لم يعطني احد فرصة الجلوس وحدي. جلس عابد معي كثيراً

يشرح لي عنوانه بالمطرية بالقاهرة وأعطاني ألف دولار لأسلمها لأبيه. خرج وكان نبيل لم يتحدث معي بعد فيما يريد ولم يغادر الحجرة فحدثني عن امبابه التي يحن اليها، إلى جلوسه في المقهى ولعب الدومينو بين السلخانية والجزارين والبشكارية الذين مهما لبسوا ملابس نظيفة تبقى بها آثار دم، ولم يطلب مني شيئاً، غير أنه سكت مرة سكوتاً طويلاً وقال إنه يحلم هذه الأيام بأنه يقف على شاطيء النيل في الكيت كات ويقذف بالأحجار لتصل الى الشاطيء الآخر في الزمالك. حلم يتكرر كثيراً ولا يفهمه. كان يفعل ذلك وهو صبي وكان زملاؤه يحسدونه ويندهشون من هذه القوة الهائلة في ذراعه وعجزه في نفس الوقت عن السباحة مثلهم في النيل بل وخوفه الشديد من النزول اليه. وسكت مرة اخرى طويلاً وقال لي انه يخاف كثيراً مسألة الأطباق الطائرة التي تتحدث عنها الصحف والاذاعات، ماذا يحدث لو سقط طبق طائر على بيتهم في امبابه؟ البيوت قديمة متساندة بالعافية ويمكن ان تحترق كلها. ولم يصدق أبدا انها خرافات حتى الآن إذ لم يأت شخص واحد بطبق طائر او مخلوق جاء مع الطبق وعرض صورته أو عرضه إلى الناس على شاشة التليفزيون.. لماذا إذن يتحدثون عنها إذا كانت خرافة؟ قلت له أنا لا اعرف مثلك أيضاً لماذا يتحدثون عنها. ولكني اذكر أنهم في مصر قالوا بعد هزيمة «١٩٦٧» إن مريم العذراء تظهر كل ليلة في كنيسة بالقاهرة.. قال «بالمطرية وهذا حصل». لقد ذهب مع امه ونساء الشارع ورآها. قلت له لقد وضح بعد ذلك أن هذا كان من ترتيب المخابرات المصرية لينسى الناس الهزيمة. فضرب جبهته بيده وصرخ «يا دين النبي»، وقال إنه لا يصدقني. فلم أشأ الاسترسال، فقال إن الصحف تتحدث عن أطباق طائرة في بلاد كثيرة وهذه

علامات الساعة. وخَرَجَ ورأيت الساعة الثانية عشرة فالتفت إلى الباحة انظر الى اليمني فوجدته واقفاً بباب الغرفة فوقفت في ذهول. سيكلمني. وتقدم وصافحني مبتسماً ابتسامته الواسعة:

ـ تسافر الى مصر..؟

ـ أجل. هل ترغب في شيء أحضره لك معي؟

وانقبضت اسارير وجهه وتجهم وتركني وخرج يجلس مكانه يمضغ السواك. ماذا كان يريد مني ولماذا سألني؟ لم افهم. ودخل عابد الى الغرفة وقال إنه فكر وقرر ألا يرسل شيئاً لأحد الآن لأنه أرسل مبلغاً اكبر منذ اسبوع. فأعطيته الالف دولار وأنا في دهشة مما يفعل. لكن منصور الذي انقطع كثيراً عن الظهور دخل الباحة بعربته فأثار زوبعة من الغبار.

* * * * *

ـ بلغني انك تسأل عني؟

قال وهو يدخل من الباب والقرد فوق كتفه ولم اكن سألت عنه. فكرت فيه مرة. أردت ان أخبره بانتهاء خطوبة وداد وسعيد، ليس حباً فيه، ولكن كرهاً في وداد التي لم ارها، والتي دفعت سعيد للاحتفال الذي أنهى وجوده هنا. أنا لا أعرف ماذا كان يُبيِّت منصور لهما، لكني لا اظن انه يبيت إلا شراً. هل افعلها الآن وأخبره.

قلت بعد أن جلس خلف المكتب المجاور للخازنة، ووجه نظره نحوي ينتظر اجابة:

ـ لم اسأل عنك وإن كنت أحببت ان أراك.

- لقد عرفت القصة كلها.

- اي قصـــة؟

- قصة راس السـنة. لقد وشّى صاحبك.

وسَكَتُّ. كيف عرف بسفـر سعيد هل يعرف صالح شيئاً عن منصـور أيضاً؟ تجاهلت منصور وشرعت اترجم ما لم ابدأ فيه بعد من تقـارير. لم يتحرك منصور من المكتب. رايت القرد يقفز على المكتب ثم إلى الأرض ويقف ينظر إليّ كأنه يعرفني او يحاول يتذكرني.

- تعال.

صرخ فيـه منصور، وكنت أنا وقفت مذعوراً من نظرات القرد الصغير الذي احمرت عيناه، وبدا متحفزاً لعمل ما لا ادركه. خرج منصور من خلف المكتب ووقف يمد ذراعه أمام القرد الذي لم يتجاوب.

- تعال يا كلب.

ولم يتحرك القرد. فقط نظر يميناً ويساراً. خلع منصور العقال الأسود المجدول بإحكام وطوح به في الفضاء فأحدث صوتاً كصوت سوط مروض للأسود، وأحنى القرد رأسه ومر السوط من فوقه. فزع القرد وقفز إلى الخلف وتشقلب في الفضاء فصار وجهه إلى الباب فأسرع يجري قافزاً إلى الضوء في الباحة الواسعة. «قف لا تتحرك يا كلب». صرخ منصور وهرول خلفه والعقال في يده فانزلقت الغترة من رأسه إلى كتفه إلى الأرض وصار في الباحة يطوّح بالعقال خلف القرد الذي صار يصرخ بصوت رفيع متقطع ووقفت أنا عند الباب

ورأيت نبيل يقف عند باب البوفيه واليمني جالساً في مكانه لا يتحرك أو يهتم، فقط توقف عن تحريك السواك واتسعت عيناه ولمحنا ووقف منصور يصرخ تعال. تعال. والقرد يقف بعيداً ينظر اليه في رعب فاندفع منصور ناحيته وطوح بالعقال في الهواء بقوة جعلتني أفكر انـه لو طال القـرد لشطره شطرين لكن القرد قفز أعلى السيارة الكاديلاك البيضاء لعم عبد الله الذي غادر المكتب في المرسيدس الصفـراء اليـوم. دار منصور حول السيارة والقرد يتحرك فوقها عاجزاً عن الهروب أو هكذا بدا لي ولم ينقطع منصور عن فرد ذراعه اليسرى ليقفز القرد فوقها والتلويح بالعقال بهدوء في الهواء.. وكأن القرد كان يعرف نية منصور ففي اللحظة التي طوّح فيها بالعقال بقوة قفز إلى أعلى وصرخ صراخاً طويلاً رفيعاً متشنجاً وعاد يقف فوق السيارة ينظر في شراسة الى منصور. اتركه. سينزل وحده.. هتف نبيل الذي يقف بعيداً أمام البوفيه لكن منصور لم يكن في وضع يجعله يستمع الى أحد فقد قفز يصعد السيارة من الأمام وقفز القرد قفزة كبيرة من فوق راس منصور وهو يصعد فانزلقت قدم منصـور وسقط بوجهه فوق زجاج السيارة الأمامي وشهقتُ خوفاً لكن الزجاج لم يتهشم ورأيت القرد يجري نحو باب الباحة لكنه لم يخرج. دار مع السور وفزع اليمني الذي لم يترك مكانه فقام لاول مرة لكنه تعثّر وانكفأ على الأرض وتجاوزه القرد المصروع حتى وصل إلى البوفيه فدخله نبيل بسرعة واغلق الباب ودار القرد مع الجدران فكاد يصطدم بي لكني تراجعت خطوة فمر من امامي وكان منصور قد استجمع نفسه ووقف بباب الباحة يسده بتلويحه بالعقال اللامع ووقف القرد قريباً منه لا يتحرك. كل منهما ينظر الى الآخر في تحفز ورايت شعر منصور اسود طويلاً ناعماً لكنه صار

منكوشاً. وجحظت عيناه واحمرتا بالشرر. وأرخى منصور ذراعه تاركاً العقال فوق الأرض وتقدم ببطء فارداً ذراعه للقرد. تعال لا تخف. تعال يا أخي. لكن القرد جرى من جديد وبسرعة مذهلة ناحية البوفيه الذي ظهر نبيل على بابه مرة أخرى وقفز قفزة جبارة إلى أعلى تجاوز بها البوفيه وسور الشركة معاً. خرج منصور مسرعاً من باب الباحة لكني كنت أعرف أنه لن يلحق به. عاد وحده ولم يفه بكلمة وركب سيارته ومضى. ووقفت أنا أفكر اين ذهب القرد الآن. لا بد قد لحق بالكلب الأبيض الشارد في الرمال التي لا نهاية لها.

٢١

هذه هي القاهرة.

نحن فوقها الآن. لكني لا أرى شيئاً. عاصفة ترابية تعطل هبوط الطائرة. يعلن الطيار اننا قد نضطر للهبوط في مطار الأقصر. وأنا الذي احببت أرى النيل والاهرامات لا أرى إلا فضاء أصفر من خلف زجاج النافذة الصغيرة التي حرصتُ على الجلوس جوارها إذ في ذهابي جلست كيفما اتفق وكنت مشغولاً بالخوف من ركوب الطائرة لأول مرة.

في إيابي اليوم خيبت العاصفة رجائي، ولم ار من مصر كلها إلا لساني البحر الأحمر منفرجين صامتين وها هي الطائرة تحوم دائرة فوق القاهرة أكثر من مرة وأشعر بدورانها والعاصفة الترابية لا تتيح لي أن أرى شيئاً. وأفكر فجأة أن لا أعود إلى المملكة فلن يسأل عني أحد ولن أضر احداً والخمسة آلاف ريال التي أخذتها تركتُ في عملي اكثر منها راتباً لم اتقاضه ومكافأة وإجازات لم اقم بها. وعلى السادة الركاب البقاء في مقاعدهم وربط الاحزمة استعداداً للهبوط وأنشغلُ بالجلوس في وضع مستقيم واسمع تمتمات بآيات قرآنية حولي وأرى الصمت الرهيب معلقاً فوق الرؤوس إذ سيهبط

الطيار رغم العاصفة، ورجاء إطفاء سجائركم ويطول الصمت حتى لكأن الطائرة حجرٌ ترتطم عجلاتها بالأرض بقوة ولا صوت فزع ويعلو صوت محـركـاتهـا ويشتد صراخها وهي تجري الآن فوق الارض نهنئكم بسلامة الوصول والساعة الآن الثالثة بعد الظهر بتـوقيت القاهرة ودرجة الحرارة في الخارج خمسة مئوية واسمع صوت عربات الاسعاف والحريق لكن المضيفات المصريات يقفن يبتسمن لنـا هي اذن مجـرد استعدادات ويطول الوقت قبل ان تنفتح الابواب وتنفتح فنجري الى الاوتوبيسات الصغيرة تصل بنا بسرعـة إلى صالة الوصـول فنراها خالية تقريباً وما تكاد تنتهي اجراءات دخولنا حتى تصل حقائبنا وكل شيء يتم بسرعة مستر لاري ولا تقل لي انها العاصفة الترابية ألغت رحلات كثيرة اليوم وأخرجُ من المطار فلا ارى الفضاء الواسع امامه بل أرى الناس تجـري مخفيـة وجـوهها في صدورها وتطير ثيابها والغبار يدخل الحلوق والأنـوف ويشد فوق العيون جفونها فأدخل أول تاكسي يقابلني وأشير للسائق ان يضع حقائبي في حقيبة السيارة.

- حمداً لله على السلامة.

- الله يسلمك.

- الى أين؟

- الاسكندرية.

- في هذا الجو! الاجرة ثلاثون جنيهاً.

- موافـــق.

- إذن خذ سيجارة مني.

ويلتفت السـائق يعطيني سيجـارة ويبتسم بوجهـه الأسمر

النحيـل المحـاط بكوفية تغطي الراس أيضاً وتلتف حول العنق، وينطلق بالسيارة، ويدير مسجلها، فينساب صوت ام كلثوم.

- لا تخش شيئاً. سنصل بالسلامة. شريطان فقط ونصل. الاول «جددت حبك ليه» والثاني «ذكريات» يا استاذ. - وضحك - أم تحب تسمع «اروح لمين»؟

ويضحـك أكثـر وابتسم أنا ويدير مكيف السيارة الليموزين فيسري الدفء في جسـدي والاطمئنان معه ولا يطول الطريق إذ أصـل وكـأني ركبت منـذ دقـائق وتُضْرَبُ حولي حلقة الاستقبال والابتهـاج ودموع أمي وتضحك والتليفزيون يبث نشرة الأخبار سقـوط طهـران في يد انصـار الخميني والغموض يحيط بمصير باختيار والملك الحسن يعلن أن الشاه يبقى بالمغرب كمواطن عادي والشاه يشكر السادات على الأيام التي قضاها في مصر بعد خروجه وضياء الحق يرفض الاستجابة للنداءات الدولية بالعفو عن بوتو ويقول انه لا حيلة له في حكم المحكمة وارشد يقول لي صباح أمس لا مفر من اعدام بوتو ما دام ضياء الحق اعلن كذباً انه لا يتدخل في عدالة المحكمـة ويبتسم وهـو يعلن لي ان المطارات فُتِحَتْ في باكستان وانه سيسافر اليوم في طائرة المساء. رحلة طويلة مستر اسماعيل لكنها جميلة. تبوك جدة. بومباي. لاهور. بيشاور. آمنة زوجتي وزينب ابنتي ثم اصدقائي مستر اسماعيل والوجوم لا يزال على وجه أمي إذ رأتني شاحباً وعرفت أنه اجريت لي جراحة للزائدة وأقول لها لقد حدث ذلك منذ اكثر من شهرين الآن ولا اظن اني شاحب كمـا تقولين وأضحك وتضحك أختي سناء وتقول إني في احسن صحة ويقول أخي بهاء إني في احسن حال وهذه ساعة رادو

وزجاجة بارفان شانيل وثلاث بلوزات مونتيجو فرنسية وقطعة من الحرير الطبيعي تصلح فستاناً وقطعة من الصوف الهيلد الانكليزي تصلح تايير لك يا سناء وقبلة من أختي على خدي والفرحة تكاد تقفز من عينيها وهذه ساعة اوريينت وقطعة صوف لبدلة وطقم اقلام شيفرز وابتسامة وشكراً بلا قبلة من بهاء وهذه طرحة من الحرير وقطعة قطيفة وبالطو اسود شيك وعباءة مغربية لك يا أمي وكثر خيرك يا ابني ودموع وهذه الحقيبة بما فيها لروحية وولديها وعليّة وبنتيها ولا يقترب منها احد ونضحك والحقيبة الثالثة بها فستق ولوز وتفاح وشاي ليبتون وعصير برتقال جاف وصابون لوكس وفلفل اسود وهيل واشياء كثيرة تستطيعين يا أمي تقسيمها بالعدل ولا تضحكوا هكذا يفعل المصريون جميعاً وانا تعلمت منهم وانت ماذا احضرت لنفسك؟ الكثير يا أمي تركته هناك.. هناك هناك. إذن ستعود. ليس لاني اشتريت شيئاً تركته ولكني أحس بالحنين للعودة ويزداد الحنين كلما مر يوم بعد يوم وأمشي في شوارع الاسكندرية فكأني ارى مدينة لا اعرفها فالزحام خانق والمواصلات بطيئة والارض طينية والمباني باهتة الطلاء والتليفزيون يبث برامج غريبة ليس فيها الالفة التي ربطت بيني وبين «مجلة التليفزيون» ولا «من كل بحر قطرة» او «ابجد هوز» ولا «تلي ماتش» «والرجل الاخضر» ولا «الشيخ الطنطاوي» وصوت الآذان ليس جريحاً ولا ذبيحاً ولا فيه رنة حزن قادم من فوق جبل بعيد ولا يصحبه دعاء شجي ينقل الروح الى بحار الوداعة وليس هنا هواء جبل أحد الجاف ولون الجبل الأحمر القاني الوديع. اريد أن اعود حقاً فأنا انتظر رسالة من عايدة التي تمضي الليل وحدها على سطح بناء مخيف في بلدة يسكنها الصمت والاشباح ولا يكفيها

ابداً صوت عبد الحليم. مالك يا اسماعيل كل يوم تقول لي امي ذلك وتراني دائماً متلبساً بابتسامة لا تعرف أني أرد بها على اليمني غريب الأطوار أو متلبساً بضحكة ولا تدري اني استمع لنبيل أو نرتسم الحيرة على وجهي ولا تدري أن أمامي يجلس منصور متجهماً والقرد على كتفه أو يعلو الضيق سحنتي ولا ترى عايداً يعطيني خطاباً من واضحة عرف أنه من الرياض. خطاب واضحة!؟ أين هذا الخطاب الذي لم افتحه.. اخذته الى البيت، أم تركته في العمل؟ كيف مضى كل هذا الوقت دون أن افتحه.. وأعصر ذهني لأتذكر أين خبأته وينتابني القلق من عايد الذي يمكن ان يجده في المكتب فيفتحه ويقرأه.. وأمنّي النفس بأني اخذت الخطاب معي الى البيت ولا بد انه بين أوراقي هناك وأعود وأقول ولو وجده عايد وقرأه ماذا يمكن ان يحدث اكثر مما جرى؟ راحت واضحة وانتهت قصتها الى الابد ولماذا انت صامت يا ولدي ولا تسأل أختك عن احوالها الدراسية ولا أخاك ويا لها من ام امي لا تريدني ان أنسى مؤامرة ابي عليّ وينتهي اسبوع واقول هذا يكفي بينكم وعندي عمل بالقاهرة ويسكت الجميع وتأخذني امي الى غرفتي التي حرصوا على نظافتها في غيابي كما قالوا وتقول ان علاء ابن عباس الحلواني تقدم لخطبة سناء وينتظر عودتي ولا تنتظر ان ابتلع دهشتي «علاء تخرج من كلية الحقوق العام الماضي كما تعرف» وأتذكره الولد «الهادىء الوديع» الذي أقام ابوه وليمة كبيرة للفقراء يوم نجاحه «علاء طموح يفكر في فتح مكتب للمحاماة» وتغلق امي كل الطرق ويمضي اسبوع آخر يحضر فيه علاء وابوه ويشكو لي الرجل من غلاء السكر والدقيق والسمن والزيت والمشروبات والألوان الصناعية والالبان والسمسم والشيكولاته وكل شيء يدخل

في صناعة الحلوى وأنه لا يكسب إلا بالنمو الفول والفلافل والمقاولون واللصوص والتجار الكبار وتزغرد أمي واختاي الكبيرتان ويمتلىء البيت بالضيوف ويُقام فرح بسيط وتتم الخطبة وأزهو بجمال سناء جوار علاء وتفر من عيني دمعة الآباء والأمهات وإلى محل مصطفى درويش اصحبهم للعشاء وتبهرني الاضواء البيضاء والمناضد البيضاء والمفارش البيضاء وثياب العاملين البيضاء ويتحدث علاء عن مشروعه في امتلاك الشقة والمكتب فهو جاهز لهما الى حد ما. الى حد ما؟ وتقول سناء ان علاء يحبك جداً وكيف قال انه لن يتحدث في الخطوبة مع أحد إلا انت حتى لو أتيت بعد عشرة اعوام. لم يكن ممكناً البقاء عشرة اعوام يا سناء، ولا أتكلم وأرى البحر مظلماً واسع الظلام ونوبة البرد شديدة حقاً غير كل عام فوق الاسكندرية المشهورة بالدفء وفي البيت تقول أمي لا يجب ان تنتظر سناء اكثر من عام فسترة البنت الزواج.. ما رأيك؟ رأيي؟! لقد رتبتم كل شيء. ولا اتكلم واقوم لأنام فتاتي خلفي. الم تفكر بعد في بنت الحلال؟ أبتسم ولا أرد واسعى للنوم الذي لا يسعى الي وأدخل تحت الغطاء فعليّ ان اعود واكمل عامي الأول وأعطيه لعلاء وسناء. في أي ركن من الظلام كان يقبع علاء هذا وينتظرني. ليكن. لكل مؤامرة نهاية ولا اظن ان عايدة ستنصاع للفارس النبيل قبل أقل من عام.

أنام واصحو مبكراً جداً اسأل أمي عن فاروق الذي اتذكره فجأة فتسكت قليلاً وتقول أنها لم تعد تعرف عنه شيئاً إذ تقدم اليها يخطب سناء فرفضت. كيف تزوجها له هو الذي له من زوجته السابقة ولد. اندهش وتستمر تقول إنها عرفت منه انه يعمل في شركة لتقسيم الأراضي بالساحل الشمالي ويكسب اكثر مما كان

يكسبه في السعودية ولكن سناء قرأت في الصحف أن شركته قد استولت على أراضي الدولة وقسمتها وباعتها للناس بملايين الجنيهات وعجز الناس عن استغلال ما اشتروه من أرض وهناك قضايا كثيرة مرفوعة على الشركة الآن وأقول لأمي أني عقدت العزم على السفر الى القاهرة وتبكي لكن لا بد أن أسافر وتفرّ دمعة من عين سناء، ويشد بهاء على يدي وأخرج دامعاً. لا يوجد حقاً وداع طيب في هذه الدنيا فما بالي اريد الرحيل في اسرع وقت.

اصل الى القاهرة في الحادية عشرة صباحاً. ينزلني الاوتوبيس أمام فندق هيلتون وأرى ميدان التحرير امامي مخيفاً واصعد الكوبري العالي أدور فوقه وانزل عند أول شارع سليمان كما وصف لي عايد قبل سفري وأحس فجأة بالارتياح فالشارع رطب وارتفاع العمارات على الجانبين واتساعها يعطيني الاحساس بأني أمشي في قبو لو أردت فمن الممكن أن أنام فيه.

لا امشي كثيراً حتى أجد مكتب لوفتهانزا على يميني فأدفع الباب الزجاجي الثقيل وأخاطب واحدة من الفتيات الثلاث الجميلات فتصحبني إلى الدور الأعلى لأقف امام رجل باسم أنيق متوسط العمر. تفضل بالجلوس. اجلسُ وأتكلمُ. أين بوليصة الشحن؟ ها هي. يتأملها ويبتسم. بوليصة مزورة. نعم؟ مزورة انظر إلى هذه. ويعطيني واحدة أمامه. هل تجد فرقاً؟ لا أجد. نحن نعرف كيف نميز بينهما. للأسف الشديد هناك عصابات دولية كثيرة تعمل في هذا المجال وفي اميركا بالذات. مالك ترتجف؟ انا لا أفهم شيئاً يا سيدي.. هل انت صاحب الشركة؟ أنا أعمل فيها. إذن عد واخبرهم بما قلته واستطيع أن اعطيك خطاباً بذلك. ما لك ترتجف؟ ولم اقل

إن أحداً لن يصدقني. انا ولاري فلاري يكسب. اطلب مني أي شيء افعله. اشكرك يا سيدي. أريد إرسال تلكس لكل هذه المطارات وآخذ ردود التلكس معي. هذا سهل وحتى تطمئن أكثر اذهب إلى صالة شحن لوفتهانزا بالمطار هناك ستقابل المهندس «مجدي». سيبحث معك عن البضائع وسيرسل ما تشاء من تلكس. ولا استطيع القيام ويشرح لي هو ما كنت في غنى عن شرحه.

- تخيل انك ذهبت تشتري بضائع بمليون جنيه لشركة وقابلك أحد رجال العصابات وأغراك بأن يعطيك بوليصة شحن مزورة نظير عشرة بالمائة من ثمن البضاعة التي لم تشترها ووافقت واخذت البوليصة. ستفوز بتسعمائة ألف ويفوز هو بمائة ألف وكل منكما لم يتعب في شيء. كثير من المندوبين الذين ترسلهم دول الخليج لشراء بضائع من امريكا يفعلون ذلك. لا يهم ما يحدث. سيهرب بالمبلغ وتدخل الدولة أو الشركة التي أرسلته في قضايا خاسرة مع شركات الشحن وشركات التأمين. لا أحد حتى الآن يستطيع القضاء على هذه العصابات الامريكية. تفضل هذا تصريح لدخول المطار وصالة شحن لوفتهانزا.

وقمت أمشي غير مصدق. خمسة آلاف ريال مستر لاري انهي بها العمل في القاهرة وانت ثلاثمائة الف دولار. كل دولة لها ما تستحقه حقاً. لقد نجحت لاري في اختياري واحكمت وروز خطتكما. مصري فقير ذكي يعرف ان عم عبد الله لن يستمع اليه.. ليكن. إلى الجحيم بكل الناس وكل البلاد وكل أموال النفط فها هو شارع سليمان ينتهي ولا استطيع عبور الشارع المقابل فأقف. في الجو لفحة من برودة والاوتوبيسات الحمراء الضخمة ترمح في

الشارع الواسع تنفث دخاناً أسود وتزمجر وحولها ترمح الميكروباسات الصغيرة وسيارات الأجرة والملاكي والناس تتكاتف مزدحمة عن الرصيف وتعبر الشارع مسرعة من كل نقطة وعند تقاطع الشارعين يقف عدد من ضباط المرور والجنود لا حيلة لهم في هذه الفوضى المرعبة. هل اعود مرة أخرى الى شارع سليمان الذي تمشي فيه السيارات بطيئة من زحامها لكن لا تجري فيه الاوتوبيسات ويمشي الناس متزاحمين فيه لكن على الرصيف؟ لقد نحت أكثر من سينما فيه فهل أعود وادخل احداها حتى ينتهي هذا الزحام؟ لا أظن انه ينتهي الا بالليل. إذن أقفز السور الحديدي الذي يحد الرصيف واجري اعبر الشارع فها انذا اقرأ لافتة «جراند اوتيل». هذا المبنى الضخم القابل ليس سوى فندق.

- اريد غرفة بسرعة.

اقول لموظف الاستقبال وأنا الهث بعد عبوري الشارع، وأقف أمامه أحاول تنظيم انفاسي. وهو صار يتأملني بإمعان فأقول:

- آسف. هل لديكم غرفة لشخص؟

والتفت حولي دون قصد ولا ازال مرتبكاً فأعود أقول:

- آسف جداً. انا خائف من مدينتكم. انا من الاسكندرية ولم تعود هذه الفوضى وهذا الزحام. أنا أيضاً جائع جداً. هل يوجد طعام في هذا الفندق؟

- لدينا كل شيء.

وارى الابتسامة التي يتكلفها موظفو الفنادق تأخذ مكانها أخيراً، وأعطيه جواز السفر وخمسين جنيهاً تحت الحساب. وفي الغرفة التي يصحبني اليها الرجل النوبي العجوز استلقي فوق

السرير ناسياً جوعي وهلعي. يا الهي! كم مرة أتيت القاهرة. ثلاث مرات. الأخيرة كانت يوم سفري، فلم أدخل المدينة. والثانية كانت لاعتماد أوراقي، فلم ابتعد عن ميدان التحرير إلا الى القنصلية السعودية بقاردن سيتي. والأولى كانت من زمان.

عام ١٩٦٨ جئنا في رحلة مدرسية معتادة لطلبة الثانوية العامة يزورون فيها أسوان والقاهرة. في القاهرة أمضينا يومين نزلنا خلالهما لوكاندة كئيبة جداً بشارع كلوت بك. زار زملائي والمدرسون الازهر والحسين والقلعة والمتحف الاسلامي والمتحف الحربي والاهرامات. هربت منهم في الازهر والحسين مشيت كثيراً في شوارع الجمالية وجلست بمقهى رخيص في شارع بين القصرين. مقهى يكاد يكون تحت الارض.. لم أر وجهاً واحداً يذكرني بأحمد عبد الجواد ولا فهمي ولا كمال الصغير ولا ياسين الطائش ولا عائشة التي تَرَصَّد لها القدر ولا آمينة ولا خديجة ولا الأحفاد. رأيت نساء ذوات عجائز ضخمة ونساء شديدات التبرج وسمعت الفاظاً قليلة الحياء من الرجال والنساء وتساءلت كيف ومن اين كتب نجيب محفوظ ذلك كله. وكانت هذه أول مرة ادرك أن الكتابة ليست كما يحدث لي: شعور جميل وزهو بما اكتب إنها مشقة كبرى تساءلت بعدها: هل يعطيني الزمان القدرة على ذلك الشقاء الجميل؟ ولما رأيت زقاق المدق القصير جداً الضيق الاسود الرطب تعجبت كيف عاش فيه كل أولئك الذين عشت معهم وضحكت وبكيت ولم يدهشني إلا شكل البواكي على جانبي شارع كلوت بك ومحلات الأحذية والشنط الكثيرة والمقاهي الصغيرة الضيقة والنساء العجائز يجلسن فيها غير قادرات على الحركة ويدخن النارجيلة وتعلو وجوههن مساحيق مضحكة. بدت لي

القاهرة في ذلك الوقت مدينة أقدم من الاسكندرية.. أقدم من الزمان. وكانت السواتر الحجرية قد أقيمت امام مداخل البيوت والنور ينطفيء في الشوارع مع المساء ودخان الهزيمة لا يزال في الفضاء. القاهرة الآن مدينة سافرة بالجهامة لا تدري بشيء ولا تحب أن يزورها أحد. مركباتها تطحن أقوى العظام فلن ابقى فيها طويلاً.. وها أنذا يمر بي يوم بعد يوم كئيب طويل ممل. اخبرني الخادم النوبي اني استطيع أن اتناول طعاماً احسن من طعام الفندق في المطاعم المجاورة بالتوفيقية وأشرب الشاي في مقاهيها. وأول ما قابلني كان مطعم الشامي فدخلته ووجدته واسعاً انيقاً لكني كل يوم اتناول الطعام فيه وحدي ورأيت على الجهة الاخرى كافيتريا «كازابلانكا» الصغيرة فصرت أشرب فيها الشاي مع واحد او اثنين جالسين في صمت ومن بائع الجرائد الذي يقف أمام الفندق أشتري كل الصحف والمجلات وأدخل الفندق اقرا وأتمرغ فوق السرير. ولم اذهب للمطار غير مرتين. في كل مرة آخذ تاكسياً من امام باب الفندق وفي الأولى اخبرت المهندس مجدي بقصتي، وفي الثانية بعد خمسة أيام سلمني ردود التلكس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو ولا بضائع وصلت الى نيويورك أو ميونيخ أو القاهرة. هل كان يجب ان تاتي الى القاهرة لتفعل ذلك؟ وابتسم. يا مستر لاري لقد رفض أن يأخذ رشوة مليماً واحداً. وانا الآن امضي النهار في الفندق انتظر مرور الأيام الخمسة وأقرا الصحف والمجلات التي تتحدث عن اقتراب سفر الوفد المصري وعلى رأسه مصطفى خليل إلى امريكا للتحضير للتوقيع النهائي على معاهدة كامب ديفيد، وعن جرائم الاغتصاب الكبرى والشقق المفروشة للدعارة وصورة السادات في كل صفحة تضحك بالبايب الشهير. انا

لا أخرج الا بالليل أعبر الشارع بثبات الآن وادخل سينما مترو لأرى فيلم (الزلزال) لأني أحب آفا غاردنر وادخل في اليوم الثاني سينما مياصي لأشاهد (رجب فوق صفيح ساخن) ولا أضحك مع عادل امام إلا قليلاً. وفي الليلة الثالثة ادخل سينما كايروبالاس واشاهد ممثلة جديدة اسمها ماري فرانس بيزيه لأن معها راف فالون ذا الوجه الحاضر ولا يدهشني تدخل الرقابة كل لحظة في الفيلم الجميل الذي اسموه (الرغبة المدمرة) واسمه (الجانب الآخر من الليـل) والوقت أيضـاً لا يمر فأبدأ بعد التاسعة مسيرة على الأقدام الى الحسين. لماذا افعل ذلك؟ أريد التعب. تعب الليل يعني نوم النهار وانقضاء الايام الخمسة رغم برودة الليل هنا في القاهرة. كل ليلة أرى أشجار حديقة الازبكية كأنها مُردة سوداء والظلام يلفهـا وتبـدو لمبات الكافيتريات التي اقيمت شيئاً مشوهاً بتعدد الوانها الخضراء والحمراء واقطع الحديقة مع الصمت وانظر وكثيراً ما أجد نياماً يلتفون بالخيش وادخل شارع الأزهر فاجده خالياً أغلقت محلاته ولا أحد يمشي معي غير سيارات قليلة تسبقني ولا أفتأ أفكر كيف كانت حديقة الازبكية حين أجرى الفرنسيون فيها تجـاربهم على المنـطاد بين عيون المصريين المدهوشة الخائفة ولا اجلس في حي الحسين بأي مقهى ولا آكل في اي مطعم إذ يحدد لي رجال البوليس الذين انتشروا طرق السير فأدور خلفه اشم رائحة نتنة في الأزقة وأعود وأحاول ان أتذكر ما كنت قررت ان افعله في القـاهـرة. الليلة، وهي الاخـيرة، تذكـرت. غداً في الصباح ازور سعيداً. لقد ترك لي عنوانه قبل رحيله. كم يكون رائعاً أن افاجئه باكراً بزيارة. اقول لنفسي وأنا عائد إلى الفندق والساعة قد تجاوزت الواحدة بالليل وانا أمشي وحدي في شارع ٢٦ يوليو واقترب كثيراً

من الفندق وإذ بيد تمسك بي من كتفي تشدني بعنف الى زقاق جانبي مظلم وتدفعني الى الحائط. اثنان هما. رجلان، ماردان في عيونهما شرر مخيف. واحد يحمل سيفاً والثاني يمسك بسلسلة طويلة سميكة من الحديد.

ـ طلع اللي في جيبك يا بن القحبة.

اسمـع صاحب السلسلة، وارى عينيه فيهما نذيـر الموت، وصاحب السيف يبتعد للوراء ويرفع سيفه إلى اعلى. واتلكأ. ذعراً اتلكأ موتاً. فيتراجع صاحب السلسلة ويصوب لي ضربة قاصمة على ذراعي، تشعـل النار في رأسي، فيناولني الأخرى على جانب قدمي اليسرى، فاسقـط فوق الأرض. ازحف رعباً فينهالان على ظهـري ركلاً ثم يحملني صاحب السلسلة الجبار ويسندني إلى الحائط وصاحب السيف يصرخ بصوت مكتوم: «اتركه لأذبحه».

ـ ارجـــوك.

اتوسل بصوت لا يخرج إلا بالكاد.

ـ ترجوني يابن..

ـ خذ ما تشـــاء..

فيتركني واسقط على الأرض ممدداً ويقلّبان جيوبي يأخذان ما فيها.

ـ معه ريالات ودولارات. أنت منين يا واد؟

ـ اسكندرية.

ـ حرامي في الميتا يعني.

ويركلني كل منهما في ضلوعي ويسرعان بالاختفاء.

ملمس الأرض بارد وأنـا عاجز عن النهوض يداهمني التعب

فأكاد أنام وأتذكر أن بقية نقودي في الفندق، وفي الفندق جواز السفر، فأشعر ببعض القوة وأتحامل على ذراعي، وأزحف حتى الشارع. ومستنداً الى الجدران اقف وامشي مرهقاً أكاد اقع في كل خطوة. كان من الممكن أن يقتلاني حقاً. ولا أرى حولي إلا اعمدة النور تضيء خلاءً من الظلام ولا توجد حتى النسمة الباردة.

٢٢

لا عايدة ولا واضحة ولا روزماري ولا أرشد ولا منذر ولا نبيل. لا عابد ولا منصور ولا وجيه ولا صالح سنيور الثقيفي. لا شيء يشدني للعودة ولا شيء يشدني للبقاء إنما هو شعور غامض يدفعني للأمام وشعور غامض آخر يشدني للخلف. مسافر أنا من مصر الى تبوك الآن وجئت منذ عشرين يوماً من تبوك الى مصر فمن أي البلاد أنا وفي أي بلد ثالث ولدت ونشأت؟

اقلعت الطائرة في الخامسة بالتوقيت المحلي ووصلنا في السابعة والنصف بالتوقيت المحلي!.. الرحلة تستغرق ساعة ونصفاً لكنهم يسبقوننا بساعة من الزمان.

وصلت الى البيت في الثامنة والنصف، فوجدته مظلماً. سأمضي الليل وحدي، فوجيه لا يزال يعمل بالليل.

دخلت وبدّلت ثيابي وبحثت عن طعام فلم اجد، فأعددت كوباً من الشاي، وتمددت فوق السرير وتحت الغطاء، ورحت آكل بسكويتاً تركته في الغرفة من قبل، واحتفظ به دائماً لفطوري، ورحت ابتلعه بالشاي الساخن وأدهشني ضيق الغرفة. هذه غرفتي، وهذا

بيتنا فتحت بابه بمفتاحي. قفزت وأشعلت التليفزيون، فاتسعت ولما سمعت حركة الفأر في المطبخ ابتسمتُ، لكني قررت أن ابدأ من الغد في مكافحة الفئران.

* * * * *

ـ الم تحضر لي خطاباً من أمي؟

ـ سألني نبيل وهو يدخل إليّ بقهوة الصباح. لا يزال الصباح هنا مكرساً للبرد القارس رغم انتهاء شهر فبراير. استيقظت اليوم ولم يكن وجيه قد عاد من المستشفى، فكتبت له ورقة تركتها في المطبخ، أعلمته فيها بحضوري، وطلبت ان يعد لنا غداء.

كان عابد اول من قابلني ولم يسألني عن المهمة ولم اشأ أن أخبره بشيء، فقط اعطاني خطابين قال ان أحدهما من الرياض والثاني من ضبا، وسألني هل تعرف احداً في ضبا ايضاً.

ولم ارد. رحت أبحث في مكتبي عن خطاب واضحة السابق فلم اجده. لا استطيع أن اسأله عنه، ولأبحث جيداً في البيت اليوم.
ـ أنت لم تطلب مني ذلك يا نبيل ولم تعطني العنوان.

وتأملت لحيته التي اطلقها وبسمة الحزن التي لم اعهدها على وجهه، وقبل ان أسأله عما ألمّ به في غيابي، قال:
ـ ربما فعلاً لم اطلب ذلك منك، لكن كان عليك أن تذهب.

وانصرف وترك الوجوم معي في الغرفة، ولولا أني انتبهت للخطابين في يدي لنسيت أمرهما أيضاً. وضعتهما في جيب سترتي وبدأت استعد لاستقبال العمال الذين اقبلوا يوقعون في دفتر

الحضور ويبتسمون لي، ووقف منذر وحده يكلمني بعد أن أخذني في صدره وربت على ظهري بقوة وقبّل وجنتيّ بشكل حميم.
ـ لقد تركت البيت يا استاذ.
ـ أي بيت يا منذر؟
ـ البيت الذي اسكن فيه قلت لك عندي حكايات ولم تعطني الفرصة.
ـ الا زلت تذكر يا منذر؟

ـ انا والله اريد أن أنسى، لكنها اخت القحبة لا تتركني. لقد استأجرتُ بيتاً عربياً. تصور من كان يعارضني، زوجتي. بلهاء يا استاذ.
ـ لو حكيت لها القصة ما عارضتك.

ـ ايه يا استاذ. يا مصري، احكي لزوجتي. مجنون انا. النساء صغيرات العقول. إنها لن تصدقني ابداً وستقول لي علاقة بالمرأة وتتحول حياتي إلى جحيم. إن اخيب الرجال هم الذين يحدثون زوجاتهم بصدق. المرأة يا استاذ لا ترى إلا ما في رأسها..

وتركني اضحك ورحت اخرج التقارير المركونة التي لم يستطع عابد ترجمتها في غيابي. لكن وَصَلَ عم عبد الله وسمعته يسأل عابد عني فأدركت أنه سيطلبني.

* * * * *

ـ ايش سويت يا اسماعيل؟

سألني بعد أن دخلت مكتبه ورأيت مستر لاري معه. صافحني

لاري بحرارة، صافحني عم عبد الله بلا مبالاة. لم ارد على سؤاله وقدمت له ردود التلكس.

- إيش هـذا؟

تعمدت ألا انظر الى لاري، وقلت :

- هذه ردود التلكس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو، ولا بضائع وصلت الى مطار من مطارات الرحلة.

امتعض عم عبد الله، ونظر إلى لاري الذي رأيته يبتسم جامد الأعصاب.

- ماذا نفعل يا لاري؟

سأله عم عبد الله بالانكليزية . أجاب لاري.

- من الأفضل الآن أن يسافر احد الى سان فرانسيسكو.

ازداد عم عبد الله امتعاضاً، وقال:

- إذن جهز نفسك للسفر.

وقام ليغادر المكتب، لكنه ابتسم فجأة وقال:

- لا تنس أن تأخذ روز معك. لا تتركها وحدها في الكامب.

وضحك عم عبد الله، فضحك لاري وخرج يغادر المكان خلفه.

* * * * *

لم يمض نصف ساعة على انصراف عم عبد الله ولاري إلا ودق التليفون. وجدت لاري على الناحية الأخرى يطلب إليّ أن اقبل دعوة جديدة الى الغداء اليوم.

- لا اعتقد أني استطيع اليوم مستر لاري.

- هذه رغبة روز مستر اسماعيل وعليك تلبيتها.

- لكني بالفعل مشغول اليوم مستر لاري.

- إذن ننتظرك على العشاء مستر اسماعيل.

وقبل ان اتكلم قال:

- لا تحاول الاعتذار مستر اسماعيل.

لم يتـرك لي أي فرصة، وأنا أيضاً لم اندهش من كذبه. متى عرفت روز بحضوري حتى يقول إن هذه رغبتها. انا أعرف خاتمة القصة وسأذهب فقط ليعرف اني اعرف.

وتحسست سترتي أتأكد من وجود الخطابين اللذين لا استطيع قراءتهما في الغرفة، ليس خوفاً من أحد، ولكن أخشى لو أخرجت اياهما يضيع. من اليوم عليّ ترتيب مكان في البيت للرسائل التي لا أظن انها ستنقطع.. مَنْ؟ منصور؟! هتفت وأنا أراه يقف بالباب على كتفه قرد صغير.. نسخة من القرد السابق إلا ان الهالة التي حول رقبته رمادية.

- كيفك اسماعيل؟ كيف حال مصر؟

قال وهو يدخل ليجلس خلف المكتب الثاني كعادته.

- بخير منصور.

- لعلك رأيت الأسرة ووجدتها بخير.

- كل شي طيب في مصر يا منصور.

- اعرف اخي اسماعيل. لقد كنت هناك ايضاً.

- في مصـــــر؟

- طبعـاً. سافـرت إليها أولاً وأمضيت أسبوعاً ثم سافرت إلى السودان. اما رأيت سعيداً في مصر؟

- كنت أود أن ازوره لكن الوقت لم يساعدني.

لم أشأ أن أحكي ما حدث لي في الليلة الأخيرة، وكيف عجزت في الصباح عن الاستيقاظ إلا عند الظهر، فكدت أتأخر على موعد الطائرة.

ـ أنا زرته أخي اسماعيل.. مسكين سعيد. صارت له لحية ومسبحة ولا يتحدث لأحد.

ولم يتركني منصور أفكر. قال:

ـ حصّلت عنوانه من وداد.. تعرفها؟

لم أرد.. ولا كنت قادراً على الرد.

ـ وداد الآن تستعد لإنهاء عملها هنا وستسافر قريباً للكويت.

ـ سوف تتزوج قريباً لها.

ـ لا. لن تتزوج أحداً. ما رأيك في هذا القرد؟

ابتسمت. بدا لي منصور مهرجاً شديد الحماقة.

ـ سافرت من مصر إلى السودان، واشتريت عشرة قرود شحنتها إلى تبوك. هل تبغي قرداً؟

ـ لا أبغي شيئاً يا منصور. فقط لديّ عمل أريد أن أنهيه.

ـ ارتاح أخي اسماعيل. أتركك في أمان الله.

خرج وتركني أكاد أختنق. لم تعد بي رغبة في العمل، ولا في الحديث إلى أحد، ولا أظن أن هذا اليوم سيمر بسلام.

أمضيت الوقت أفكر في الأحاجي التي ألقاها أمامي، ولم أصل إلى شيء مفهوم. وفي الساعة الثانية عشرة نظرت إلى الباحة فلم أجد اليمني العجوز.

* * * * *

ماذا يحدث لو ذهبت إلى «روز» و«لاري» في موعد الغداء؟ سترتبك كل خططهما وسأفضي لهما بما أعرف وينتهي الأمر وأعود إلى بيتي وقد تخلصت من روز إلى الأبد، وأقرأ خطابي واضحة وعايدة على مهل. خطاب واضحة لن يزيد على كلمة وداع طيبة. كيف بالله تكتمل القصة إلا بذلك. وليأخذ بعد ذلك خطاب عايدة الليل كله. ترى ماذا فكرت فيّ وقد تأخر ردّي عليها كل هذا الوقت الذي أمضيته بمصر. يا لمصر التي تضيع منا كل شيء. على يقين أنا أن عايدة لن تغلق الباب إلى الأبد. يا بؤس هذا العمل الذي يقذف إليّ اليوم كل لحظة بمجنون. آه. كم أود أن أقرأ خطاب عايدة الآن ولا أستطيع. ها هو نبيل يدخل صامتاً يحمل القهوة.

ـ لم أطلب قهوة.

ـ لم تكن تطلبها من قبل. هل أعود بها؟

تأملت وجهه الحزين ولحيته الطويلة.

ـ اجلـس.

جلس مطرقاً إلى الأرض.

ـ ماذا حدث لك في غيابي. هل ضايقك هنا أحد؟

ـ اطلاقـاً.

ـ لماذا تبدو شاحباً وتطلق لحيتك؟

ولم يرد. تأملني بعينين كسيرتين.

ـ ألا تقرأ الصحف؟ ألا تسمع الإذاعات؟

ولم أرد. ماذا في الصحف يزعج نبيل كل هذا الانزعاج؟ دانت إيران للخميني واختفى شهبور باختيار وكارتر يستعد لاستدعاء بيغن والسادات للتوقيع على معاهدة السلام وأمس افتتحوا كوبري

السادس من اكتوبر في مصر وملكة بريطانيا تزور المملكة ويقيمون لها سباق الهجن ولا أظن أن شيئاً في هذا كله يخص نبيل.

- لا تريد أن تصدقني حين أقول لك إن الاطباق الطائرة ليست خرافة.

- الا زلت تذكر يا نبيل؟ لم تعد الصحف تتحدث في ذلك.

- لكنها ستعود وستعود الصحف تتحدث عنها وأنا خائف.

ابتسمت مشجعاً وقلت:

- مم تخاف يا نبيل؟

- لو سقط واحد منها هنا لاحترقنا جميعاً. هل تظن غير ذلك؟

لم أرد. لا أصدق ابداً أن ما يقوله هو سبب حزنه وإطلاق لحيته. لن يصرح لي بشيء ولا حاجة لاستمرار الحديث. هناك تقارير كثيرة متأخرة لم ابدا فيها بعد فلأبدأ ولا أظن احداً سيشغلني في الوقت القليل الباقي.

* * * * *

- مستر اسماعيل. غير معقول!؟

هتفت روز التي فتحت الباب غير مصدقة. ابتسمتْ ابتسامة واسعة باهرة ودعتني للدخول.

- لاري ليس هنا الآن لكن لا بأس. سيصل حالاً. لا بد أنه تأخر لأمر ما مع مستر عبد الله. لقد أخبرني بحضورك على العشاء. تفضل واختر اي مكان للجلوس أعطني دقائق أصلح من شأني.

كانت تتكلم بسرعة غريبة وارتباك واضح. وتركتني فتقدمتُ

وجلستُ تقريباً في المقعد نفسه الذي جلست فيه المرة السابقة، واختفتْ وسمعْتها تتحدث هامسة مع شخص لم أتبين صوته، فابتسمتُ. لا احد يمكن ان يكون هنا غير لاري وهي امرأة ذكية أحسنت التصرف، لكني ادركت فجأة حماقة ما فعلت. إذا كنت أعرف سرهما فلماذا جئت؟ لا يكفي ابداً أن آتي لاقول لهما ذلك. ما جدواه الآن؟ لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس الا عداوة تأصلت في نفسي منذ صباي وأول شبابي، وانا لم اصدق ابداً ما يردده السادات عن الصديق الامريكي، ولم أكره رؤية أحد مثل رؤيتهم يوم نزلوا الاسكندرية بعد زيارة نيكسون ومشوا في شوارعها في زي البحرية طوال عراض يتأملون الناس والمحلات ويلوحون بالتحية لكل من يقابلهم ورؤوسهم محلوقة على الطريقة الانكليزية الشهيرة. تذكرت يومها أفلام البحرية الامريكية، وجين كيلي وتوني كيرتس، حين كان الواحد منهما يترك سفينته وينزل المدينة فيثير معركة في أحد باراتها. كانوا كثيرين جداً في الاسكندرية بعد زيارة نيكسون يمشون على الكورنيش يمرحون ويركبون الحنطور ويغنون وصاروا قليلين الآن لا تكاد تراهم.

وأدركت أن زيارتي لا معنى لها، وفكرت في القيام، لكني رأيت روز تقبل نحوي متألقة يسبقها عطر يتغلغل إلى الحواس يكاد يهدمها هدماً، وترتدي فستاناً أزرق له فتحة صدر كبيرة يكشف عن أول النهر بين ثدييها ويكشف عن ذراعيها البضتين. واستدارت روز الى الثلاجة فرأيت جزءاً كبيراً من ظهرها وشعرها الاصفر الغزير ملموماً في رباط ازرق رفيع، وتقدّمتْ بكأسين من النبيذ وجلستْ امامي بعد أن وضعتهما على المنضدة المنخفضة بيننا وقالت:

- لم اكن استطيع السفر دون ان اراك.
- اشكـرك.
- لا بد انك جائع مستر اسماعيل. نأكل معاً او ننتظر لاري.
- لست جائعاً تماماً.. وأنا كما تعرفين لا أقرب الخمر.
- إذن دعني أُرك شيئاً جميلاً.

وأخذت بيدي، فنهضت ممتثلاً، ووجدت نفسي اقف في غرفة النوم.

- لا تظن بي شيئاً مستر اسماعيل. ليست هذه الطريقة التي اغريك بها.

وابتَسَمْتُ. هذه روز التي بهرتني اول مرة، وهي نفسها التي شاركتني النوم في الاحلام، وهزأت مني في الكوابيس. راقت لي مرة، اشتقت اليها مرة، اعترف. لكنني الآن أراها مثل قطعة لحم فاسد.

- ما هو الشيء الجميل الذي ستريني إياه؟
- اجلـــس.

واشـــارت الى السرير، فجلست على حافته، وجلست هي على حافته أيضاً جواري.

- أنت ذكية للغاية يا روز.

- أنا لم اوافق لاري فيما فعل. انا في النهاية زوجته ولا بد أن احميه.

- كنت احب فقط ان تختارا غيري. ما الذي أوحى إليكما بي؟
اقتربتْ مني وهمست.

- لن تصدقني اسماعيل. انا كنت سأفعل ذلك مع غيرك، لكني أعجبت بك واحببت أن اجد سبباً للوصول اليك.

- ليس لي في الأمر حيلة يا روز. انا مصري فلن يصدقني الناس هنا ويكذبونكم. ما كان الامر يحتاج الى كل هذا الترتيب. هل تعرفين ما يضايقني حقاً؟ اتذكرين لقاءنا الأول هنا في بيتكم؟ لقد كنت فظاً إلى حد كبير لكن لاري أيضاً كان اكثر فظاظة. كان يريد ان يبدو متفوقاً عليّ. ما كان عليه أن يفعل ذلك. هل يحق له ان يفعل ذلك وهو..؟

ولم اكمل وصمتنا كثيراً.
- ارجوك دعني اقبلك.

وتركتها تأخذ وجهي بين يديها وتلثم شفتيّ وخديّ وأنفي وتعود الى شفتيّ وتضغطهما ولم تحاول الاقتراب مني بجسمها أكثر ولا أنا حاولت. كنت مشغولاً بالنظر إلى عينيها اللتين اغْلَقَتْهما وحين فَتَحَتْهما كانت النشوة تملأهما فقمتُ واقفاً.
- وداعاً يا روز.
- وداعاً اسماعيل.

ورأيت في عينيها ألماً فاسرعت بالخروج. لم تأتِ خلفي. وعند الباب الخارجي سمعتها تصرخ.

- أنت اغبى رجل في العالم يا لاري ولن اتركك تفوز بكل شيء.

٢٣

«اسماعيل:

لماذا تركتهم يفعلون بي ذلك؟ أنا أحبك. لا تنسني»

«واضحة»

* * * * *

ليتني لم أبدأ برسالتك: لقد عدت من عند روز أسابق سيارتي حتى أخلو إلى نفسي وأفض الرسائل. هل تعرفين أني بدأت برسالتك إهمالاً وإدراكاً بأن القصة تمت فصولها وما حدث لا يعدو نزوة أو جنوناً؟ واضحة بنت سليمان بن سبيل صغيرة كعصفور أنت فماذا تريدين أن تصنعي بي أنا القادم من بلاد النيل تمتد ورائي آلاف السنين. أم لهذا السبب تتعلقين بي؟ لماذا تختارينني أنا؟ تدور بك الشرطة يوم وصولي ويختلج جسدك أمام عيني ويختارني صديقي لأخيك لألقاك وجهاً لوجه ولا أستطيع الفرار. لقد تقدمت غير هياب. هل تنسين؟ شانئي منكم وعاذلي منكم. صالح سنيور الثقيفي أقوى منا جميعاً. مسلح هو بالحماقة، بالبراءة الخائبة. يا واضحة. أنا لم أتركك. هل تتركينني قليلاً أقرأ الرسالة الأخرى؟ ليست رسالتك

الأولى. لا اعرف كيف وأين ضاعت مني. لم يكن ذلك بالفأل الحسن.

* * * * *

وأدركت فجأة أني حين عدت الى المنزل لم اجد وجيهاً. إنه لا يخرج الى المستشفى قبل الساعة السادسة. لم أجد غداءً كما كتبت له في الصباح. لم اقابله حتى الآن، ولا تناولت غدائي.

فتحت الثلاجة، فوجدتها فارغة إلا من علب العصير. دخلت غرفته، فوجدت على منضدة صغيرة علبة تونة أخذتها وأكلتها بسرعة، وتمددت فوق السرير اقرأ.

«لم يكن أمامي يا عزيزي اسماعيل إلا القبول. القدر يساعدني دائماً. انا لم أسع الى ضبا. طلبوا واحدة منا فأصاب الجميع الرعب. وتطوعت أنا في لحظة أدركت فيما بعد ان واحدة غيري هي التي أبدت استعدادها وليس انا. واحدة غيري هي التي تكلمت ووافقت لكني غير نادمة. ضبا ليست الجحيم، على العكس، انها بلدة صغيرة جميلة قريبة من البحر، البحر الأحمر، والناس هنا طيبون. الصيادون يمرّون على المستوصف كل يوم يقدمون لي أفضل ما عندهم من سمك بالمجان. لدي هنا سمك يكفي تبوك الآن. هل تراني استطيع أن آكل هذا السمك كله؟ لا احد يقبله مني، لا أحد إلا وعنده اكثر مما عندي من سمك. شيء غريب أن احدثك عن هذه الأشياء لا تهمني. فقط احببت أن أطمئنك إليّ، فأنا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك. رأيتك اول مرة يوم جئت تسهر مع الدكتور وجيه وأنا أعرف اني سأراك مرة اخرى، لكن. كل الناس هنا يحبونني.

والنساء يعرفن بوحدتي فيأتين بعد العمل ليجلسن معي فيمضي الوقت سهلاً. بعضهن يرسلن بناتهن ليبتن معي. شجاعة غريبة على نساء المملكة. ربما ليست غريبة فالكرم شيمة العرب. عرفنا ذلك في كتب المدرسة. كيف يكون كرم النساء للنساء الا على هذا النحو. لا تهمني على ركاكة اسلوبي. كثيراً ما أتذكر زميلاتي وأضحك. ماذا يصيبهن من هذا المكان الهادىء الجميل؟ حقيقة لو فكر الواحد في هذا الاتساع حوله، وفي بلدة ضبا القديمة التي هجرها أهلها الى ضبا الجديدة لربما يصاب بالجنون. ضبا القديمة ليست بعيدة. أرى بيوتها القديمة المهدمة بالليل من فوق السطح كالمقابر المليئة بالأشباح، لكني لا أحاول النظر ناحيتها. وبالنهار اراها كالمناطق الاثرية تستحق الزيارة ولا أزورها. أنا باختصار أستطيع ان انجو من الشعور بالوحدة بأعمال كثيرة. اعيد ترتيب الغرفة. أعيد ترتيب الأدوية بالصيدلية. أنا هنا أفعل كل شيء بعد مواعيد العمل. المستوصف كبير جداً لكني أغلقه بقفل من الداخل. المرضى بعد مواعيد العمل يذهبون للاطباء في بيوتهم ويأتون إليّ فأعطيهم الدواء من فتحة صغيرة بالباب. لا يضايقني إلا المرضى الذين يأتون في منتصف الليل. لكن النور هنا يملأ كل الغرف. أنا أتركه مضاء فيها كلها. بالنهار يكون ضوء النهار أكبر من كل ضوء. انا لا أفزع من طارق الليل ابداً. لا يضايقني إلا البرد وأنا اترك الغرفة وأنزل لألبّي طلب احد. هل لا يزال البرد شديداً في تبوك؟ هاشم أخي كان يقول دائماً قل لمن يحمل هماً إنّ هماً لا يدوم، مثلما يفنى السرور هكذا تفنى الهموم.

كان يقول لي ذلك فجأة فيخرجني من شرودي. احياناً كان يغنيها لي. لماذا كنت أشرد بذهني كثيراً وانا تلميذة صغيرة؟ كل

الناس كانت تتعجب من ذلك. اهي واخوتي وزميلاتي والمدرسون والمدرسات.

أنت تعرف انني لا أحب في الدنيا هذه مثل هاشم. كنت دائماً اصدقه، ولا زلت».

وأعدت قراءة الرسالة وكدت أصرخ. اي جنون خبيث يتسلل إلى ذهن عايدة ولا تدري. كل كلمة في الرسالة تقول ذلك. وأعدت قراءة الرسالة لارد على كل كلمة فيها، لاعيد ترتيبها واكتشف لها أنها تمضي في طريق الهلاك، انها تركب فرس العناد. لكنها لن تستمع لي. لن تستمع لاحد. لا يُجديها نُبل الفرسان، وليست في حاجة اليه.

ووضعت الرسالتين أمامي فوق السرير، ورحت أنظر إليهما، وأصاب عقلي شلل، وامحى خيالي، وسمعت المفتاح يدور بالباب الخارجي، فأسرعت باخفائهما تحت وسادتي.

دخل وجيه ومعه الطبيب الشاب الذي رأيته في المستشفى يوم ترحيل المرأة اللبنانية الصغيرة. اذكره جيداً رغم ما يبدو على وجهه من شحوب وحزن. ربما لذلك أذكره.

صافحني وجيه، واحتضنني بقبلتي، وارتفع صوته دهشة بحضوري المفاجيء، وبدا الطبيب الشاب ذاهلاً عنا إذ راح يقضم اظافره بأسنانه، بدا مرهقاً للغاية حتى إنه استند إلى جدار الحائط.

ـ تفضل يا دكتور احمد.

قال وجيه. وأشار الى مقعد في غرفتي. فجلس أحمد، وظل يقضم

اظافره ذاهلاً عنا. وسألني وجيه:

ـ متى أتيت؟

ـ أمــس.

ـ أنا لم أعد اليوم من المستشفى في الصباح.

كان يبدو مرهقاً للغاية أيضاً. لم انتبه لذلك إلا الآن. وقفز يتمدد على سريري وقال:

تستطيع أن تدخل غرفتي. ستجد تحت السرير كرتونة صغيرة بها بيض ومعلبات اشتريتها منذ يومين ولم أجد الوقت لأضعها في المطبخ. نحن في حاجة الى عشاء ثقيل.

وراح ينظر الى السقف بعد أن عقد ذراعيه تحت رأسه، وخرجت أنا الى غرفته مندهشاً كيف لا يجد الوقت لوضع الأطعمة في المطبخ، مع ان الذي يأتي من الخارج يمكن ان يتجه الى المطبخ مباشرة.

أعددت عشاء من البيض المسلوق وشرائح الجبن واللانشون والزيتون، ودخلت الى الغرفة أحمله على صينية كبيرة ففوجئت بأحمد يقف.

ـ لا بد ان تأكل شيئاً.

قال وجيه. لكن أحمد ظل يقضم اظافره.

ـ تريد ان تنام؟؟

هز احمد رأسه، فقام وجيه، وأخذه الى غرفته، وعاد يقول قبل أن يجلس:

ـ يوم لا يمكن أن يُنسى. هيا نأكل.

وضعت الصينية فوق الارض، وجلسنا حولها، والتقط وجيه بيضة وضعها في فمه كاملة، وتكلم:

- هل تذكر الدكتور رأفت؟

- طبيب المسالك البولية الذي عاد إلى مصر منذ شهور؟

- أجـــل.

وانشغل ببيضة جديدة وضعها في فمه أيضاً ثم تكلم:

- ذهب إلى امريكا، واشترى معدات العيادة كاملة، ومات قبل أن يفتتح العيادة.

وسكتُ ولم أرد. رحت آكل على مهل، وعاد هو يلتقط البيض بيضة فبيضة يضعها في فمه كاملة، وقال:

- شيء غريب. أليس كذلك؟

ولم ارد. سعيد الذي قرر العودة النهائية آخر العام يُجبر على العودة قبل الموعد. رأفت الذي كان سعيداً بقدرته على حسم موعد عودتـه يعـود ليموت. لماذا لم اقابل وجيهاً امس؟ لو قابلته امس لتحدثنا في شيء آخر. أنا أريد أن اقرأ رسالة عايدة مرة رابعة. اريد الكتابة اليها. لماذا يؤكد الجميع في درس هذه البلاد؟ هنا أرض تأبى إلا ان تمسك بما يسقط فيها ولا تتركه. إذا تمرد تقتله. بضربة قدر أو حظ عاثر أو خطأ ساذج تقتله. تقتله في كل الأحوال. القتل هو الغاية. وعايدة تعرف وتذهب إلى حتفها بيدها. وصالح سنيور الثقيفي إبن بار لهذه البلاد، يحب وهو الصغير الهش، أن تكون له اليد الطولى حتى في الإحسان. لقد امتلك البدوي الثروة، ولا يفطن أنها ليست من صنع يده، فالويل كل الويل لأبناء الحواضر والمدن.

* * * * *

كيف اكتب رسـالة إلى عايـدة الآن ووجيـه ينام على سريري الضيِّق يشخـر ولا يتـرك لي إلا مساحة ضئيلة لا أستطيع فيها حركة. قال إنه أخذ اليوم راحة لأنه كان من المستحيل ان يستمر في العمل ليلتين بلا نوم بالنهار. انشغل بالنهار مضطراً مع أحمد الذي لم يكن مناسباً له ان يترك مصر. وجيه قال ذلك. وقال إنه يعرف أسرة أحمد، وبينه وبينها صداقة قديمة، وفرح جداً بمجيئه الى المملكة، لكن أحمد شخص رقيق مثل الدانتيللا لم يتحمل. لم يمض اسبـوع على مجيئه هنا وكلفه مدير المستشفى بمصاحبة المرأة اللبنانية الصغيرة إلى المطار. واليوم كلفه المدير بالذهاب إلى القاعدة العسكرية لحضور اعدام جندي سبق له أن اطلق النار على ضابطه. لم يكن الاعدام بالسيف بل بالرصاص عن الطريقة العسكـريـة، وكـان على أحمـد أن يذهب ليضع علامة بالدهان الأبيض حول قلب الجنـدي ليقـوم فريق الاعـدام من الجنـود بالتصويب اليها ثم يكشف على الجثة بعد ذلك ويثبت موتها. رفض احمد كثيراً، لكن المدير صمم، فذهب المسكين، ووضع العلامة حول القلب، وانطلق الرصاص، فاصاب كل جزء في الجسم إلا القلب. لقد حملوا الجندي واحمد في سيارة اسعاف واحدة الى المستشفى. الجنـدي إلى الثلاجة وأحمد منهاراً الى غرفة الاطباء. سيسافر احمد الى القاهرة بعد ايام. طلب إنهاء تعاقده بمجرد أن أفاق من الانهيار الذي أصابه، وامضى وجيه اليوم كله معه، وعجز عن إثنائه عن عزمه عن الرحيل فاصطحبه معه اخيراً الى البيت خوفاً عليه.

٢٤

لا رسائل من أحد.

«لا تلوميني إذا تأخرت عليك. كنت سافرت إلى مصر عشرين يوماً قضيتها هناك. مهمة عاجلة لم استطع الاعتذار عنها. هل كنت محتاجاً لذلك ولا أدري؟ هناك أحسست بحاجتي إلى العودة. والآن أريد أن اسافر ليس إلى مصر. إذا كان هناك شيء له شأن في عودتي إلى هنا مرة ثانية فهو أنت.. لا استطيع الاستطراد.

أود أن أزورك وأخاف. ما معنى أن تستقبلني بحفاوة ثم أعود؟ أخاف أن أطيل فأفسد الأمر كله.

النهار هنا مثل النهار عندك. الليل هنا مثل الليل عندك. السماء فوق هذه البلاد واحدة، وريح العجاج تضربنا جميعاً لكن ليس لي قوتك. خلقت أنت للبذل والعطاء. خلقت أنا للمعرفة المتأخرة. أريد أن أفوز مرة واحدة باليقين في موعده. رأيتك كثيراً في يقظتي ومنامي تأخذين يدي بعيداً عن الموت.. أريد أن آخذ يدك بعيداً عن اختيارك المستحيل. هل تقبلينني يا عايدة زوجاً أم ترى تلومينني؟».

ولا رسائل..

كل يوم انظر في عيني عابد. هو الذي ينزل البلدة أكثر من مرة ويمر بالبريد، وعابد لا يحمل إلا اوامر بالانتظار حتى يعود مرة أخرى.

مضينا قُدُماً في شهر مارس. وطرد وجه الربيع كثيراً من برودة الصباح بما جاء به من ضوء، ولم يمنع هبوب ريح العجاج.

* * * * *

ـ أين ارشد؟

سألت الباكستانيين الذين عادوا من اجازتهم ودخلوا مكتبي مبتهجين في صباح هذا اليوم الجميل.

ـ سَرْوَرْ يعرف. إنه يسكن بالقرب منه في بيشاور.

ودخل سَرْوَرْ بعد لحظات. قصير يكاد يقفز في مشيته، وبارق العينين، مبتسم دائماً.

ـ اين أرشد يا سَرْوَرْ؟

ـ أرشد مسكين مستر اسماعيل.. في السجن الآن.

ـ سجـــن؟

ـ اجل مستر اسماعيل. قبضوا عليه لحظة وصولنا. لن يعود هنا مستر اسماعيل.

ـ .....

ـ أرشد يعمل مع المعارضة مستر اسماعيل. المعارضة ترسل رجالها إلى بلاد كثيرة في الخليج لجمع الأموال. هكذا تقول الصحافة مستر اسماعيل.

ـ .....

ـ انا آسف مستر اسماعيل.. انا اعرف أنه كان خير صديق.

وخرج سَرْوَرْ. إذن لن يعود ارشد ابداً. يا الهي! ماذا يفعلون به الآن؟ «العسكريون اغبياء مستر اسماعيل». قال لي ذلك فهل سمعه العسكريون؟

ورأيت عابداً يقف عند الباب مبتسماً، ويسألني:

ـ شفت منذر؟

ـ لم يأت حتى الآن.

ـ لن يأتـــي.

ـ ....

قُبض عليه أمس بتهمة محاولة اغتصاب، ولا يزال في الشرطة.

ـ انا لن اعمل اليوم.

وقمت مسرعاً إلى سيارتي، وانطلقت بها غير مبال بنداءات عابد المتكررة لي بالعودة، ولا بالدهشة المروعة التي علت وجهه حين قلت ذلك.

* * * * *

الضوء أمامي يوسع في الدنيا، والرمال متراميه في جلال باهر، وفوقي ندف متفرقة من سحب واهنة، وفوقنا كلنا سماء شديدة الزرقة والصفاء. لماذا يا ربي منذ أتيت الى هذه البلدة لم أر طيراً واحداً في السماء؟ حتى العصافير التي كنت أسمع شقشقاتها في المستشفى خارج النافذة لم أرها، ولم تدخل واحدة لتقف لحظة على افريز النافذة تنظر الينا وتفرّ عائدة. بلد بلا طيور. كيف ذلك؟ أم أنني لم اعد ارفع بصري إلى أعلى؟

بالقرب من الموقع الذي رأيت فيه الكلب مرة جاهدت أن لا أنظر. لماذا تجتاحني الرغبة اليوم في النظر؟ نظرت، ورأيته. لم يتغير الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد.

وظللت أقود سيارتي بجنون حتى انتهى الشارع، وهدأتُ من سرعتي استعداداً للانحراف الى الشارع العام. الآن فقط أدركت أني ذاهب إلى الشرطة لأقابل منذر. والآن فقط سألت نفسي: هل هذا ممكن؟ ولم أنتظر الإجابة. ولم تنتظر السيارة الكابريس التي انحرفت نحوي فاندفَعتُ بسيارتي بعيداً، لكني تركت نهر الطريق وصعدت الرصيف الصغير الذي يتوسط الشارع، ودخلت في النهر الآخر، وهنا اصطدمتُ بسيارة أخرى، واصطدم صدري بمقود سيارتي وأنا اندفع برأسي في الزجاج الأمامي، ولم أشعر إلا والناس تشدني من فوق مقدمة السيارة ومن بين زجاجها الأمامي الذي تهشم تماماً والألم في رأسي ووجهي يشويني وفي صدري يكاد يخنقني.

ـ خيراً. خيراً.

يقول الوجه المصري البشوش للشاب الصغير الذي لا أعرفه، والزحام حولي شديد، وأنا ممدد جالساً فوق الرصيف أغالب الشعور بالاغماء، وأشعر بالدم الساخن على وجهي، ورأيت ضابطاً سعودياً شاباً يصرخ صائحاً بلا انقطاع:

ـ أنــت!؟

أطلّ وجه وجيه من بين الزحام.

ـ هيا الى المستشفى. ضعوه في سيارتي.

ـ خيراً. خيراً إن شاء الله.

يقول الشاب المصري البشوش، الصغير السن وهو يأخذني من ذراعي، استند اليه، ويمشي بي الى سيارة وجيه.

ـ لن يذهب إلى المستشفى. الشرطة أولاً.

صرخ الضابط بوجيه، فصرخ به وجيه أيضاً:

انا الدكتور وجيه رئيس قسم الجراحة بالمستشفى. هذا الشاب سينزف حتى الموت هنا أو في الشرطة. هل تتحمل ذلك؟

ـ إذن انت مسؤول عن تسليمه.

ـ أنا مسؤول عن تسليمه.

وأخذني وجيه من ذراعي الثاني، وركبنا سيارته أنا والشاب المصري البشوش، الصغير السن الذي لا يزال يردد:

ـ خيراً. خيراً إن شاء الله. لا تقلق.

ولم يكف عن الابتسام في وجهي، فابتسمتُ له. رأيت ابتسامته شديدة العذوبة. قلت:

ـ ماذا حدث؟

ـ حادث بسيط.

قال الشاب، لكن وجيه قال:

ـ ليس بسيطاً. لقد صدمت بسيارتك سيارة شرطة يا استاذ. احمد ربك اني عائد من المستشفى الآن ورأيتك.

ـ هل تعرفه يا دكتور؟

ـ طبعاً. نسكن معاً.

ـ الحمد لله. إذن أنزلني أنا هنا. لا أظن أنكما ستحتاجاني في شيء. هل تحتاجاني في شيء؟

ـ لا، نشكرك جداً.

قال وجيه وابتسمت انا ومَدَدتُ يدي بصعوبة أُصافحه، فربّت عليها بيديه ونزل.

* * * * *

لم يأخذني وجيه الى المستشفى. أخذني إلى العيادة الرئيسية بالشارع العام. هناك تمددتُ فوق طاولة الكشف وراح هو وممرضة مصريـة سمراء ينقّيان جروح رأسي الصغيرة من شظايا الزجاج الذي لم يكن كثيراً، لكنه احتاج إلى أن يحلق لي شعر رأسي كله.

كان يضحك وهو ينظر إلى رأسي بعد الحلاقة، ولم يجد في وجهي الا شطيتين صغيرتين في جبهتي، وارتاح كثيراً حين وجد ضلوعي سليمة.

وقـــال:

ـ لا بد ان أكتب تقريراً كبيراً حتى أعزز موقفك امام الشرطة.

ـ هل يحتاج الأمر لذلك؟

ـ طبعاً. لقد انحرفت عن الطريق إلى طريق آخر وصدمت سيارة شرطة. في الحالات العادية يمكن أن تدفع للمتضرر ثمن الخسائر، لكن مع الشرطة لا اعرف ماذا يمكن ان يحدث. الم تجد غير سيارة الشرطة تصدمها؟

ـ انـا لم أصـدم احداً. رأيت كأن سيارة كابريس تهاجمني فانحرفت ولم أدر كيف صعدت على الفاصل بين نهري الطريق.

وضحـــك.

ـ يمكن أن ترى شكلك في المرآة وتضحك على كل حال. سألف راسـك بالشـاش رغم عدم حاجتـك اليه حتى تبدو امام الشرطة شخصاً يستحق الشفقة.

لفّ رأسي ونظر في ساعته وقال:

ـ لم يأت أحد. يمكن أن تذهب الى البيت الآن.

ـ لكني اريد الذهاب إلى الشرطة.

ـ تعـــم!!؟

ـ أنا تركت العمل للذهاب الى الشرطة.

ـ لمـــاذا؟!

ولم أرد إذ دخل الضابط الذي كان يصرخ وقت الحادثة وطلب ان اصحبه، وقبل أن يقول وجيه شيئاً قلت:

ـ استطيع الذهاب معك.

ورأيت وجيهاً ينظر إلي بغيظ ودهشة، وقال:

ـ سأذهب أنا أيضاً معكما.

* * * * *

كانت خطة وجيه أن يتصل تليفونياً بأبي حكيم قبل ذهابنا. لقد حاول مرتين فلم يجده. كان يخشى ان يتحول الأمر الى المحكمة في غياب ابي حكيم، وفي هذه الحالة لا أقل من شهر حبس، لذلك أراد ان يماطل الضابط ولم يدر اني أود الذهاب بأسرع وقت حتى أرى منذر قبل ترحيله أو نقله إلى السجن. لماذا حقاً أريد أن ارى منذر؟

ووصلنا واستقبلنا ابو حكيم، ورأيت وجيه يتنفس بارتياح.

ـ ازعجناكم يا اخوان يا مصريين. لا تؤاخذونا. سوف تعطيك

الدّية يا أستاذ اسماعيل لو تنازلت للكلب المخبّل بن المخبّل.

قال أبو حكيم فجأة بعد أن جلسنا، ومر علينا الشيخ المسن بابريق الشاي، ونظر إلي وجيه في دهشة، وداس على قدمي. ففهمت أنه يطلب مني الصمت. وعاد أبو حكيم يقول:

- أمسكنا بسائق الكابريس. دلّنا عليه الناس. ما لهذا الولد لكم يا دكتور؟ هذا الفاسق لن ينجو من يدي سأوقعه، لكن في مسألة تستحق. إيش يبغي منك يا أخ اسماعيل؟

- أنا لا أعرف عمن تتحدث.

- صالح الثقيفي. أظن انكم تركتم بيته.

ردّ وجيه بعد أن نظر إلي يحذرني من الكلام:

- تركناه بسلام وعلاقتنا معه طيبة ولا اظن ان صالحاً يقصد شيئاً..

كنت أنا أفكر في كلام أبي حكيم. هل كان صالح الثقيفي هو سائق الكابريس حقاً؟ ماذا كان يريد مني؟ هل أراد قتلي أم توريطي في حادث كبير؟ لا استطيع أن أصدق. من يضمن بقاء الشعرة بين توريطي وموتي؟ قلت في استسلام:

- أنا أيضاً لا اظن أنه كان يقصد شيئاً.

ضحك أبو حكيم وقال.

- انت يا دكتور صرت تعرفنا لكن صاحبك ما يعرفنا بعد. اتركه يا اخي يتحدث بحرية - وخاطبني - لا تخش شيئاً يا أخ اسماعيل هنا قانون وشرطة يمكن أن تحميك.

- اشكرك. لكن هذه هي الحقيقة.

- والديّة هل تتنازل عنها ايضاً؟

- اتنازل عنها.

- أحوالكم احوال يا مصريين!

ومر بنا الشيخ المسن يحمل إبريق القهوة مرة ثانية، فشربت فنجاناً منها لأول مرة، واحسست بالمرارة التي لا أطيقها في حلقي. فشربت فنجاناً ثانياً وقلت:

- لي مشكلة صغيرة هنا يا أبو حكيم.

* * * * *

جاء منذر منكسر الوجه، شديد الشحوب. رآني، ورأيت عينيه حمراوين بينما يبتسم ساخراً. «تركت العمارة يا أستاذ الى بيت عربي. بيت قديم جميل به شجر نخيل وشجر ليمون. زوجتي حامل وقلت الحديقة للولد. جهاد. سأسميه جهاداً. ماذا جرى يا استاذ؟ منذر لا ينسي. منذر لا يكل ولا يتعب. كل شيء بلا منذر يتوقف. جاءني الملعون زوجها. الشيخ المسن الذي بالكاد يمشي ويتكلم وبالكاد يفعل اي شيء، وطلب أن أذهب معه لاصلح تكييف العمارة. من شقة لشقة تنقلت حتى وصلت شقته. دخلت ودخل معي وخرج وأنا لا أشعر وجاءت الشرطة وأنا اقف فوق السلم أعالج الكابلات. فيلم سينمائي يا استاذ. سفري. لن يحاكموني ولن أدخل السجن. سأرحّل من البلاد». ترحيلك صعب يا منذر. الفلسطينيون يحاكمون ويسجنون ويعاقبون ولا يرحلون. «الفلسطينيون يا أستاذ! الآن أنا أردني وانا غير حزين. ترحيلي يعني ان لي وطناً أعود اليه. وجدوا لي وطناً يا استاذ. ولا احد يرفض الوطن».

«هيا يا ولد». أشار أبو حكيم للشرطي أن يأخذ منذراً. وأنا لم استطع إلا أن احتضنه واقبله. «سامحني يا استاذ. أنا احبك. احب المصريين جداً. لا اكره إلا السادات يا استاذ. أنا أحد جدودي مصري. مصري رفض أن يحفر في القنال وهرب الى الشام». لكن الشرطي جذبه وترك منذر نفسه له.

- لا تحزن يا مصري. هذا حال الدنيا كما تقولون في مصر. لا تصدق رواية هذا الولد.

كيف سمعه أبو حكيم وهو يتحدث الي بصوت خفيض.

- حياك الله.

- في امان الله.

مدّ وجيه يده يصافح أبا حكيم. لم أمد يدي أصافحه ولم يفعل هو أيضاً. خرجت غير مصدق أنه كان لبيت منذر الجديد حديقة بها نخيل وشجر ليمون. لا أعرف هنا إلا بيتاً واحداً فيه ذلك، وفيه سيد الغريب ينتظر.

* * * * *

مُرهقاً عدت الى البيت. دخل وجيه إلى غرفته لينام. في غرفتي استلقيت فوق السرير. «كمين منصوب لي يا استاذ وأنا أعرف». ذهب للكمين بقدميه وبكامل الوعي. وتناولت إحدى المجلات الملقاة جوار السرير فوق الأرض اقرأ عنوانها. لماذا فتحتها على الصفحات الأخيرة أتأمل رسائل القراء؟

• جاءنا من الصديقة واضحة بنت سليمان بن سبيل بالرياض رسالة تقول فيها إنها تحب مصر جداً وإنها كانت تتمنى لو لم

يذهب الرئيس المصري إلى اسرائيل حتى لا تستمر هذه القطيعة بين البلدين، وتسأل هل تقبل الجامعة المصرية الشباب السعودي الآن؟ هل توافق الحكومة السعودية على التحاق شبابها بالجامعة المصرية؟».

والصديقة واضحة تقول اننا كنا نتمنى معك، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. هذا مثل عربي قديم. وبالنسبة للألتحاق بالجامعة المصرية، ففي بلادنا الآن جامعات على اعلى مستوى، لذلك لا أظن أن هناك معنى لاستكمال شبابنا تعليمه في مصر.

تطلّ عليّ واضحة إذن في رسائل غير مباشرة. من قال لها اني اقرأ المجلات المحلية؟ تعرف أن الوقت لا يمر رغم سرقة الأعمار.

لا بد.

٢٥

جميلة هي الدنيا والحياة جديرة حقاً بأن تعاش فنحن لا نحياها إلا مرة واحدة. يا الله هنا، والآن. تنشقُّ رأسي شيئاً فشيئاً وتنسكب فيها حيوية الصبا واندفاعته وأتذكر كل كتاب قرأته. من قال ذلك يا إسماعيل؟ اوستروفسكي وهو يشق صفوف الجيش الأبيض بسيفه ورصاصه والتفاؤل بالمستقبل يسبقه. لكني خبير قديم بأكاذيب الكتّاب ولا يجب أن أنخدع الآن فيبدو الأمر مضحكاً، وأنا بحق لست في حاجة إلى آلام جديدة. ها أنذا أرى الفضاء حولي أنثى تخلع كل يوم عن جسمها رداء فتزداد سحراً، وتتقدم في شهر مارس فأتخفف كل يوم في ثيابي، وحارس الريح حبس «العجاج» في كهفه، وقتل ديكه الأغبر إذ اكتشف أنه بعد أن مزّق جناحيه راح ينفث التراب من منقاره. لكن لم يأتني رد من عايدة حتى الآن، وكل يوم أقرر السفر إليها، وكل يوم أنتظر.

رتبت للفئران مقتلة، وصنعت لوحاً خشبياً تحت حوض المطبخ يصنع مع الجدار زاوية حادة، ورحت أطاردها حتى تدخل بين اللوح والحائط، وأدوس اللوح بقدمي فأدهسها بينه وبين الجدار. قتلت ثلاثة حتى الآن، واليوم فكرت أن أبدأ في إحصاء قتلاي. لقد

استيقظت نشطاً. وافطرت مبتهجاً ببيضتين، وجريت في الردهة وقفزت انظر الى السماء الصافية. وفتحت فمي للهواء النقي، ووقفت فجأة وقررت إحصاء قتلاي.

في حجرتي وقفت وكراسة الخطابات في يدي لأسجّل فيها عدد القتلى الذين لا اعرف اسماءهم. اليوم هو السادس والعشرين من مارس عام ١٩٧٩. واتسعت الغرفة بي كانما انسكب في صدري ماء منعش بارد. لماذا لا ابدأ من اليوم كتابة المذكرات؟ كتابة المذكرات تجعلني شخصاً ثالثاً أرى بعين لا تثقل القلب بالأوجاع. من ذلك الخبيث الذي قرأت له ذلك مرة؟ لا اذكر ولا يهمني ذلك الآن، ولأذهب مسرعاً الى العمل.

* * * * *

ولم اكتب المذكرات ابداً. لم يكن سهلاً أن أصبح شخصاً ثالثاً. اخترت وقتاً غير مناسب لادعاء القوة. دَخَلَتْ سيارة عم عبد الله إلى الباحة فاثارت زوبعة التراب. دائماً يدخل عم عبد الله مسرعاً، وحتى الآن لا ينتهي التراب من فوق الارض، الذي يطير من فوقها بالنهار تعود الشياطين وتفرشه فوقها بالليل.

دخل عابد غرفتي والهلع يكاد يقفز من عينيه:

ـ هل اخطأت في شيء؟

ـ لا.

ـ عم عبد الله غاضب جداً. يطلبك فاذهب ولا ترد عليه.

نهضتُ تاركاً مكتبي في دهشة، وافكر ايضاً في الرقة التي تفيض من عابد فجأة.

ـ إيش سوّيت في مصر؟

ـ ......

ـ إيش سويت في مسألة البضائع؟

ـ لا شيء. لم أجدها في أيّ مكان. اخبرتك بذلك.

ـ خــذ.

والقى عم عبد الله بورقة صغيرة لم تصل إليّ ولم تستقر على مكتبه، فانحنيت والتقطتها من فوق الأرض. وصرخ فيّ:

ـ اقــرأ.

«معذرة مستر عبد الله. لن اعود إلى المملكة. وداعاً. لاري».

ـ أتدري معنى هذا؟

ـ لن يعود مستر لاري.

ـ لاري لص سرق ثلاثمائة الف دولار وأنت مصري فرعون خبيث ذهبت الى بيته اكلت وشربت خمراً ونمت مع زوجته. نمت مع روز أم لا؟

ـ لا.

وسكتنا وسكتت الدنيا حولنا. قلت لا بصوت لا يكاد يسمع. وكدت اقول انك انت الذي تنام مع روز وان حجرة عابد ونبيل هي فراشكما، وانك أنت الذي تخالف قوانين المملكة فتسهل لها العمل في حضانتك. وتسهل لزوجها نهب الأموال فالشركة ليست شركتك، وما أنت إلا مدير لا ترعى الا مصالحك التي تستخدم فيها عابداً اكثر مما تستخدمه في العمل، لكني وقفت صامتاً لا أدري من اين يأتي الانفجار بعد هذا الصمت.

- امش.. امش من امامي.

قال بألم واضح، وخرجت غير مستاء. ضايقني فقط أني لم أنم حقاً مع روز.

* * * * *

لم يظهر اليمني اليوم أيضاً. نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية عشرة، ونظرت إلى الباحة فلم أجده. نسيت أنه لم يظهر منذ أيام، كما نسيت أن أسأل عن السبب.

ودخل نبيل الغرفة يحمل القهوة بلحيته التي لا يزال يطلقها والتي ازداد طولها. وبدا انه يريد أن يتحدث معي. وقف قليلاً متردداً ثم جلس وهو يسألني:

- ماذا سيحدث الآن؟
- فـيم؟
- مكوك الفضاء الامريكي.
- ذلك الذي تعطل في الفضاء؟
- اجـل.
- سيسقط في أيّ مكان. الاذاعات تقول ذلك.
- وهل أنت راضٍ عن ذلك؟

أربكني نبيل. قلتُ مبتسماً ومتحيراً:

- وماذا أستطيع أن افعل؟

سكَتَ قليلاً وقال:

- لم يقل احد أين سيسقط بالضبط.
- لقد قالوا ان استراليا هي أكثر الاماكن احتمالاً لسقوطه.

- لكنه لم يسقط حتى الآن. انتحر ثلاثة في استراليا فزعاً ولم يسقط.

وسكتنا وأنا لا أستطيع أن أضحك. أفكر بجد في طريقة أعالج بها ما يسيطر على ذهنه من أفكار، وأعجز، ولا أدري سرّ هذا التحول في عقله. قلت:

- لقد انتهت ظاهرة الأطباق الطائرة ولم يحدث شيء. سينتهي المكوك أيضاً بسلام.
- لا أظن. هذا مكوك حقيقي له أصحاب معروفون.
- نبيل حدِّثني عن نفسك أفضل. كيف حالك هذه الأيام، ألا تصلك رسائل من مصر؟
- وصلتني رسالة من أمي تقول فيها أن خطيبتي تزوجت من سائق التاكسي.

وعدنا إلى الصمت. رأيت دمعاً يكاد يترقرق في عينيه.

- اعتنِ بنفسك يا نبيل. الانسان يمكن أن ينسى كل شيء مع الوقت. يمكن دائماً أن يبدأ من جديد.
- لا أظن أن أمي صادقة.

قال ذلك وتركني.

* * * * *

عدت إلى البيت وتناولت الغداء مع وجيه. لم نتحدث كثيراً. كنت أود الانتهاء من الطعام بسرعة لأنفرد بنفسي في الغرفة. لقد أحضر لي عابد اليوم رسالتين. أعطاهما لي والتفت يغادر المكتب، لكنه بعد خطوة أو خطوتين عاد يلتفت لي ويبتسم. كان اسم عايدة ظاهراً

خلف مظروف إحدى الرسالتين، واسم اخي على الأخرى. افقدني فرحتي بالرسالتين، وتوقعت ان يعود الى المكتب مرة أخرى ليراني اقرأ فيهما. لا أدري لماذا تذكرت في «يورياه هيب» في رواية ديفيد كوبر فيلد التي شرعت يوماً في ترجمتها ولم أتمها. لم اصدق أن اليوم انتهى، وانه يمكن ان اعود الى البيت وانفرد بنفسي اقرأ أسراري.

«وصلتني رسالتك وأنا استعد للسفر. يبدو انك لم تمض وقتاً طيباً في مصر. أنت لم تفصح عن شيء، لكن كل الذين يذهبون إلى مصر يأتون ويقولون ذلك. لماذا؟ ويذهبون هناك يشكون من هنا ايضاً.

طبعاً كان يمكن أن تزورني. لا اجد حَرَجاً في ذلك. المهم ان تأتي في وقت مبكر. لم يكن صعباً أن اقدمك لزميلاتي وزملائي كصديق عزيز. الآن لا تستطيع أن تزورني لأني سأسافر في الصباح. كم كان بودي ان استقبلك حقاً.. لا استطيع ان افعل شيئاً الآن. زار المستوصف وزير الصحة وسمع عن امتيازي. ضحك كثيراً حين عرف أني أبيت وحدي في المستوصف. تعجب كيف لا يصيبني خوف أو جنون. وقال لا بد من تكريمي، وأمر بنقلي إلى «ابها» في الجنوب. «ابها» مدينة جميلة بحق. يقولون إنها اوروبية المناخ جاءت زيارة الوزير في وقت دقيق. كنت بدأت أفقد شيئاً من قوتي وبدأ الخوف يجد مسالك الى قلبي. ما أبشع المستوصف بالليل السماء فوقي جميلة لكن هل يمكن ان أمضي الليل انظر إلى أعلى لا تليفزيون هنا فالإرسال لم يدخل البلدة بعد. الراديو هو صديقي والراديو لا يبث إلا الألم. صارت حركة الاشياء تحت الريح فوق

السطح تصيبني بالرعب، وكل طارق للباب من اجل دواء أظنه رجل امن جاء للقبض على هاشم. كانوا يأتون بالليل دائماً. هل تعرف ما شغل ذهني في الأيام السابقة؟ سؤال غريب. ضبا بلدتان. بلدة قديمة وبلدة جديدة بالقرب منها. هجر الناس القديمة. لكن الجديدة لا تختلف عن القديمة في شيء. كيف تفسر هذا الأمر؟

حتى أرسل لك عنواني الجديد لك السلام والامان».

ولا اجابة عن سؤالي. سمعت خشخشة فأر في المطبخ، فقمت وطاردته واخرجته من خلف دولاب الأواني وادخلته بين اللوح الخشبي والحائط ودهسته.

* * * * *

لم يخرج وجيهاً اليوم الى العمل.

ـ هناك شيء اخفيته عنك يا اسماعيل.

ـ ......

ـ انا سأنتقل إلى مستشفى «الملك» بالمدينة المنورة.

ـ ....

ـ يمكن ان ارشح لك احد المصريين يعيش معك.

ـ ستنتقل نهائياً؟

ـ تقريباً.. وسأسافر غداً.

ـ لا حاجة بي لأحد.

ـ ستعيش في البيت وحدك؟

لم ارد. كأنه لا يعرف أني اعيش وحدي منذ أن اتيت. وهو أيضاً لا يعرف أن رسالة اخي خلّفت خبراً بمرض امي وأنهم بحاجة إلى

مائتي جنيه. لم يوضح لي أخي اي مرض أصاب امي. انساني لدقائق خطاب عايدة، وأنساني حديث وجيه الخطابين معاً، وانساني المذيع الذي يتحدث أمامنا الآن كل شيء. قال إنّ الارسال سينتقل إلى اذاعة خارجية لينقل مراسم التوقيع على معاهدة كامب ديفيد في البيت الابيض الاميركي. «نحن لا ننقلها على الهواء تأييداً ولا تيمناً. إنما ليرى الشعب الخيانة بعينيه».

كارتر يقف مبتسماً وسط مائدة بيضاء طويلة وبجواره على اليمين يقف السادات وعلى اليسار يقف بيغن والزهور فوق المائدة تكاد تخفيها وعلى الناحيتين الحديقة الواسعة وحشود من رجال السياسة وعشرات من الصحافيين يترقبون ويلتقطون الصور التذكارية. كارتر يتحدث عن الجهود المضنية التي بذلها الزعماء الثلاثة للوصول الى هذه الاتفاقية، والآمال الكبيرة لانهاء الصراع في الشرق الأوسط. ويتحدث عن السلام في العهد القديم وفي القرآن. «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» يقولها بالعربية. ويضيع صوت كارتر ويبرز صوت المذيع المحلي: «والقرآن أيضاً يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». صدق الله العظيم.

* * * * *

في الفجر قمت وجلست فوق السرير، وأضأت نور الغرفة وقلت لن أنام بعد اليوم في هذا البلد. دخلت مسرحاً كبيراً بلا مقاعد، كُلّه خشبة مربعة، والمتفرج الوحيد هو أنا الجالس على المقعد الوحيد عند الباب، وفوق الخشبة تسعة عشر رجلاً وامرأة وطفلاً وطفلة، يقفون على الناحيتين، وفي قلب الخشبة البعيد امرأة مربوطة من

ذراعيها إلى ظهر سرير، مثنية ساقاها عند الركبتين وغطى نصفها الأسفل ملاءة بيضاء، وتصرخ وترتفع بنصفها الأعلى فيظهر العرق غامراً وجهها وتجحظ عيناها بألم رهيب، وتجحظ عيون الرجال والنساء والأطفال بالخوف والهلع، وأعلى المرأة جلس الشيطان في مقعد معلق، وله قرنان أزرقان ووجهه ملطخ بالألوان الحمراء والزرقاء والصفراء ويزداد الضوء على وجهه.

الشيطان: (صارخاً بالضحك) يمكن أن أزيل خوفكم.

الرجال: (في ضراعة) كيف يا سيد النار والظلام؟

الشيطان: (يقهق) تختارون واحداً يموت.

(يتبادل الرجال والنساء النظرات في ألم، وتمسك النساء بأيادي الأطفال في خوف).

الرجال: ما أصعب الاختيار. (يرتكزون بسيقانهم على الأرض ويرفعون أيديهم في ضراعة) لماذا تفعل ذلك بنا نحن الذين اخترناك معلماً لنا وهادياً؟

الشيطان: (ضاحكاً) من أعمالكم سُلّط عليكم.

النساء: (في جرأة للرجال) لا تستمعوا إليه. هذا مخاتل خدع آباءنا وسبب لنا كل هذا الشقاء.

الشيطان: (ضاحكاً بصوت مجسم) إذن انتظروا حتى تلد. ها هو المخاض يشتد.

تسقط أضواء زرقاء وحمراء على المرأة المربوطة بالسرير، ويختلط

صراخها بموجات الضوء السريعة، فلا يعرف أحد ما اذا كان يرى أو يسمع، ويقفز شاب في حوالي الثلاثين الى الخشبة فجأة. أراه فأدرك انه انا. كيف قمت من مقعدي وقفزت دون ان ادري؟

انا: (صارخاً بالرجال).. لن يموت منكم احد. هذا ليس بشيطان. ما الذي يجعل الشيطان يعذبكم هكذا؟ هذا ضميركم يستيقظ امامكم بعد مئات السنين، هذا أول الغيث. ستلد المراة ولن يموت منكم احد. هل عشتم في عصر محمد؟

الرجال والنساء: لا.

انا: هل رآه احدكم؟

الرجل والنساء: لا.

أنا: هل سمعتم أن الله يعذب الأبناء بذنب الآباء؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: لو جاء اليكم الآن هل تمنعوه ماءكم؟

الرجال والنساء: لا.

انا: (للرجال) إذن قفوا وانصرفوا حتى تلد المراة، المراة تتعثر لانه لم نسمع عن امراة ولدت وسط الرجال. (يقف الرجال لكنهم لا يتحركون).

الرجال: اقدامنا مقيدة بالارض.

الشيطان: (يضحك بشراسة ويحدثني) هل تعرف حقيقة هذا البلد؟

انا: (أتقدم نحوه وأتطلع عالياً إليه والضوء الازرق يغمرني) أعرف.

الشيطان: هل جئت تنقذها من لعنتها؟

انا: أجل.

الشيطان: كان عليك ان تضحي من أجلهم (يخاطبهم) اسألوه إذا كان مستعداً لأن يفعل ذلك.

(ينظر الجميع نحوي. يتقدم الاطفال يتعلقون بساقي باكين. لا احد يتكلم. يُسمع صوت بكاء طفل وليد).

الشيطان: (ضاحكاً) ها هي المراة وضعت. سيموت منكم واحد الآن إن لم تقدّموا واحداً طواعية واختياراً.

ويسقط الرجال يتقلبون على الارض في الم، وتُهرع النساء إلى الاطفال، تحتضن كل واحدة طفلها في صدرها. أتراجع أنا الى الخلف شيئاً فشيئاً. وقبل أن أسقط من فوق الخشبة يقف الرجال وبسرعة يهجمون عليّ ويرفعونني في الهواء يقذفون بي إلى الشيطان الجالس عالياً. فيحملني من ذراعي، ويقذف بي إلى هاوية سحيقة بين جبلين عاليين ووسط بخار أبيض وازرق وأحمر يحاصرني ويدخل ساخناً إلى صدري يكاد يخنقني وأنا انقلب ساقطاً ولا تلحق بي الذراعان اللتان ميزت بينهما وجه أمي فزعاً ولا أصل إلى قرار الهاوية.

٢٦

ازداد هجوم الفئران وازداد هجومي. وحدي أنا الآن وقد مضى أسبوعان على سفروجيه إلى المدينة، وأرسل الحر لنا لفحة من نيرانه استغرقت خمسة أيام تشوي البلدة، ثم تراجعت مفسحة الطريق لريح العجاج تهب كل ساعة وفي القلب من كل ساعة، ولا رسالة تأتي من عايدة تخبرني فيها بعنوانها الجديد، ولا تفسير للرسائل المتكررة باسم و. س. س في المجلات المحلية والعربية التي صرت احرص على شرائها.

«أرسلت لنا الاخت و. س. س من الطائف تسأل هل يمكن أن تصدر فتوى في المملكة تمنع الزواج إذا تجاوز الفارق في العمر بين الرجل والمرأة عشرين سنة؟».

بالطبع يا أخت و. س. س لا يمكن أن تصدر فتوى ولا تشريع بذلك.

«ارسلت لنا الاخت و. س. س من الدمام تسأل ما الحكمة في سفور المرأة في الأماكن المقدسة، وحجابها في بقية البلدان؟ والحكمة يا اخت واضحة ان الناس في الاماكن المقدسة تتوجه إلى

الخالق عز وجل، والمفترض ان يغض الجميع البصر كما أمرنا الدين الحنيف. أما في بقية البلدان فالناس أصحاب مصالح وتجارة وعمل وعلاقات متداخلة. ويجب ان يستعينوا بكل الطرق على خمد نيران الشهوة».

«ارسلت لنا الاخت واضحة بنت سليمان بن سبيل من الرياض تسأل عن قائل هذا البيت من الشعر وما هو البيت الذي يليه.

«مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان»

وقائل هذا البيت هو ابو الطيب المتنبي شاعر العربية الاكبر حين زار بلدة بوان في فارس، والبيت الذي يليه هو:

«ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان»

والاخت واضحة تتحفنا دائماً برسائلها التي تتضمن كثيراً من الأبيات الراقية. فلدينا رسالة اخرى منها تأخرنا في الرد عليها تسأل عن معنى هذا البيت.

«والأسى قبل فرقة الروح عجز
والأسى لا يكون بعد الفراق»

وهذا ايضاً لأبي الطيب المتنبي الذي اشتهر بالحكمة البالغة، فهو هنا لا يدعو إلى الصبر على موت الاحياء كما قد يتصور سذج الشارحين، ولكنه يوضح إلى أي مدى يقف الانسان عاجزاً امام حقيقة الموت المعلّق على رؤوس العباد. كم هو بائس وتعيس هذا

الانسان الذي لا يستطيع ان يواجه حقيقة الموت إلا بالصمت».

تقتلني واضحة بالشعر الذي تسأل عنه وهي تعرفه. واضحة ذات الاسم الواضح، فمن تكون و. س. س التي تراسل كل هذه المجلات من كل هذه البلاد؟ امس الجمعة قال الشيخ علي طنطاوي:

«وصلتنا رسالة مكتوبة بخط جميل على ورق جميل ايضاً من المعذبة و. س. س. «والمعذبة» هذه بتأثير المجلات المصرية، ما علينا، المصريون بلهجتهم الحلوة يدخلون كل البيوت. تسأل المعذبة و. س. س هل يبيح الاسلام زواج رجل في السبعين من فتاة في الثامنة عشرة؟ وانا اقول للمعذبة أن هذا اشر أنواع التعذيب، ولكن الاسلام يسمح لحكمة، فالله لم يخلق الانسان الا ووضع فيه العقل وميزه عن البهائم، وكل صاحب عقل لا يفعل ذلك، لكن المال أفسد كثيراً من الرؤوس الآن، وعلى اهل الفتاة ان يرفضوا مثل هذه الزيجات ولا جناح عليهم. البعض قد يحتج عليّ ببعض الصحابة والتابعين، لكن كان هذا عصراً وكانت تلك اخلاق وكان في الرجال مروءة وفحولة. استغفر الله العظيم...».

كم واضحة بنت سليمان بن سبيل ترسل إلى المجلات رسائلها الآن، وكلها رموز شفرية لي أنا العاجز الذي لا أستطيع أن أفعل شيئاً ولا رسالة من عايدة تسليني ولا خطاب من اخي يطمئنني إلى امي ويشرح لي مسألة مرضها.

* * * * *

ضحكت حتى كدت اقع من فوق المقعد وانا اقرأ رسالة وجيه التي احضرها لي عابد. قال:

- هذه رسالة من الدكتور وجيه الذي كان يسكن معك.

قرأ اسم الراسل كعادته ولم اهتم. أستطيع أن اقرأ هذه الرسالة في العمل. لقد تزوج وجيه في المدينة بامرأة لبنانية فاحشة الجمال كما يقول، أهلها شديدو الثراء، لهم في المدينة تجارة عظيمة. هذه هي الثالثة يا اسماعيل وتبقى واحدة. لا اظن أني سأفعلها، هذه المرأة بمئات النساء جمالاً وغنى.

ودخل نبيل إلى مكتبي مندهشاً من ضحكاتي التي وصلت الى البوفيه وابتسم يقول:

- الا تخشى أن يسمعك عم عبد الله؟

- اخيراً ابتسمت يا نبيل. عم عبد الله غير موجود. اجلس معي قليلاً.

جلس وزاغت ابتسامته وقال:

- لقد صليت ركعتين منذ يومين، وطلبت أن يسقط مكوك الفضاء بعيداً عن رأسي. واستجاب الله لدعائي، وسقط المكوك في المحيط قرب استراليا..

- يبقى تحلق ذقنك!

- لن احلقها إلا بعد سفري الى مصر.

- ستسافر حقاً.

- آخر الشهر القادم. مايو. أنا لا اصدق ان خطيبتي تزوجت. لا بد أنها مريضة أو افسدت أمي كل شيء. المشكلة ان هذا ليس موعد إجازتي السنوية. سأرسل لأخي يرسل لي برقية يقول فيها ان أمي ماتت. ما رأيك؟

- لا داعي لذلك. أستطيع ان اقنع عم عبد الله ان يوافق على إجازتك. سأشرح له ظروفك وسيوافق.

- لقد رفض عابد أن يفعل ذلك. كلب.

* * * * *

دخل منصور المكتب باسماً.

- حياك الله أخي اسماعيل.

- حياك الله يا منصور.. أين كنت؟

- في الكويت.. عدت أمس.

- ....

- طبعاً تندهش. تقول إني مجنون؟

- لا.

- إذن تعرف لماذا ذهبت؟

- لا.

- إلى وداد.. لقد فسخْتُ خطبتها من سعيد تماماً.

- لقد حدث ذلك منذ وقت طويل.

- لا. كانت هناك شعرة. كانت ترتدي الخاتم

- ....

- واتفقت معها على الزواج.

- لكني اعرف انها سافرت لتلحق بقريب لها.

- لا. هذه قصة لفقناها لصاحبك. أنا الذي أحضرت لها فيزة عمل بالكويت، وأنا الذي اخترعت لها حكاية قريبها المحاسب.

- .....

- ما رأيك في هذا الحل؟ بوليسي. مثل الافلام المصرية.

وقام واتجه نحو الباب وقال:

- استعد يوم الجمعة القادم سأسوّي كبسة كبيرة هنا. تعرف الكبسة؟

- اعرفها ولم اتذوقها.

- حتى الآن؟

- حتى الآن.

- سأسوّي ذبائح كثيرة وسيحضر كل العمال. هنا في الباحة ستتذوقها.

ومضى مسرعاً والقرد ينظر الي من خلف ظهره.

* * * * *

تجاوزت في القتل الخمسين فأراً. وصرت اصطادها في الليل أيضاً، صوت آذان الفجر يملأ فضاء البلدة التي فرّغها الحر من الهواء فصار الصوت ضئيلاً فأصحو واقضي الساعتين الباقيتين في مطاردة الفئران.. أمارس القتل في النهار وفي الليل والقي بالموتى من فوق الباب واسمع صوت شجار القطط التي اعرف انها في حجم النمور. لقد ذهبت الى المستشفى لاقابل وردة وقابلتها. لم تضحك ولم تبتسم. غاض الدم من وجهها وغطاه الأسف.

- جئت تسأل عن عايدة؟

- أجل. أريد عنوانها في «ابها».

- عايدة انتقلت إلى المنطقة الشرقية. إلى الدمام.

وسكتنا واقسمت في نفسي ان أقتل اول من يكلمني في الطريق. ولم اقتل أحداً ولا كلّمني أحد. رحت أقتل الفئران، لكنني لا أصطاد

إلاّ الفئران الصغيرة - العمياء - البلهاء عديمة الخبرة. هي التي تتسلل إلى حقل القتل الذي أعددته لها. لم يعد اللوح الخشبي يوضع منفصلاً. ثبّته بالحائط بمفصلات بحيث إذا ضغط عليه بقدمي عاد إلى الحائط ولا تكون هناك أية امكانية أن ينقلب اللوح فيهرب الفأر. فئران صغيرة وبيضاء أيضاً لها بطون حمراء لم ينبت بها شعر بعد ولها اصوات صراصير. اين الفئران التي تلدها وكيف تتركها تاتي إليّ وكيف لا تدرك ان اطفالها يقتلون كل يوم؟ الليلة داهمتني الفئران الكبار. أنت اسماعيل خضر موسى.. أنا.. لماذا تقتل آباءنا واخوتنا الصغار كل يوم دون وجه حق. أنا لا أقتل جزافاً. أنا هنا غريب في بلد غريب أحب ان يستأذن ضيوفي في الدخول عليّ واخوتكم وابناؤكم يقلقون نومي في الليل والنهار. أنت كاذب لانك تكره النوم. لكن النوم لا يكرهني ويغلبني في كل نزال فتقلقني فئرانكم، هل تريدونني آكلها؟ لقد سددت أسفل الباب وكل الفتحات التي يمكن ان تدخل منها لكنها تدخل. أنت لا تقتل الفئران فقط ولكن تستخدم وسيلة بشعة. وأنا ادفع للبشاعة ثمناً من التقزز. أنت خائن للطير والحيوان معاً، فنحن الفئران لسنا من عالمكم لكن بيننا وبين الطير والحيوان مودة وصلة. الحيوانات تكرهكم والطيور. القط مثلاً، يأكلكم والحدأة أيضاً. ليس القط ولا الحدأة، انه الجوع الذي يفسد الأخلاق. انظر إلى الحمامة كيف لا تأكلنا. الحمامة وديعة، وأصدقاؤنا من هذا الصنف كثير منذ انقذ أبونا الحمامة المطوقة من شبكة الصياد. هذه خرافة كتب. هذه حقيقة وأنت لا تدري ولا بد أنك لاتعرف أيضاً ان الأسود تحبنا. الاسود المفترسة ذات الهيبة والكبرياء. هذه افكاركم فلا هيبة ولا كبرياء للذي يعيش على ما تجمعه له زوجته من طعام، هذه

واحدة، والثانية أن أبانا الفأر خلّص الأسد يوماً من شبكة الصياد أيضاً. إننا معشر الفئران قد نكون تافهين لكننا مثل كل شيء صغير في هذا الكون لنا فائدة، وأنت جاهل لا تعرف أن الله خلق الكون متوازناً لا يحق لأحد أن يفسد توازنه. هذا كلام فارغ لأن الجراثيم مخلوقات أيضاً لكننا نطاردها ونقتلها قبل أن تقتلنا، وأنتم جبناء تحملون القمل فتنشرون الطاعون الذي قتل «أبو عبيدة بن الجراح» في الشام وأهلك جيوش نابليون في فلسطين ودمّر نصف المصريين أيام المماليك والآن تتلفون الزرع في مصر وتقتلون الأطفال في الريف وتنشرون الأمراض في مدن القنال التي ترعرعتم في خرائبها قبل انتصارنا وكأنكم بالفعل لا تريدون أن يكتمل انتصارنا. أنتم عدوٌ لي وأنا عدوٌ لكم إلى يوم الدين. إذن لا فائدة في الحوار معك.

وقفزت فوقي الفئران السوداء فغطت جسمي كله، فقمت فزعاً إلى المطبخ، ووجدت واحداً منها بين اللوح الخشبي والحائط فدهسته بوحشية فائقة.

٢٧

فجأة فكرت أن مرض أمي ليس عادياً. لا أظن أن هناك حاجة إلى ذكر المرض العادي في خطاب. وحينما وصلتني رسالة من أخي يطلب فيها ألف جنيه في أسرع وقت، قطع الشك اليقين. لكنه لم يذكر نوع المرض ولا الخطوات التي اتخذوها للعلاج. كنت بالقاهرة منذ شهرين، وكانت أمي في أحسن حال. صحيح أنها تجاوزت الخمسين، لكن هذه ليست السن التي تغتال فيها الأمراض صاحبها. صغيرة أمي على أمراض العجز والشيخوخة. كانت صغيرة دائماً على أبي. هل كان ذلك سبب الشجار الكثير بينهما في الأعياد؟

كتبت إلى أخي ليعلمني بالحاصل، وأرسلت إليه من الجنيهات الفين. وانتبهت إلى حديث البلدة الذي وصل إلى مكاتب الشركة يضحك الباكستانيون منه، ويضحك عابد، ويضرب نبيل كفيه في بعضهما دهشة.

- هل يمكن أن يحدث ذلك؟
- ليس غريباً على كل حال.
- يعني لو ضربتني أو ضربتك على رأسك يفقد أحدنا الوعي

ويستطيع الآخر أن يفعل به ما يشاء؟

ـ قديماً قبل اكتشاف البنج، كان المريض يدخل عيادة الطبيب فيخرج له واحد من خلف الباب يضربه بمطرقة خشبية على رأسه وبعدها يُجري الطبيب العملية.

تحسس نبيل رأسه وضحك.

ـ لكنها ضربته بالحلة البيرستول؟

ـ الحلة أثقل من المطرقة.

ـ وخصته!

ـ هذا ما يقال.

ـ هل يمكن أن تفعل امرأة ذلك؟

ـ الغيرة قاتلة.

وضحك نبيل.

ـ لقد ذهب المسكين إلى المستشفى فوجدوا إحدى خصيتيه معلقة في بنطلونه.

وسكتنا.. وقام وهو يقول فجأة:

ـ لقد سافر منصور أمس إلى الكويت. وهرب من عزومة الكبسة. بخيل. أنا اعرفه جيداً.

* * * * *

لم يعد إذن في العمل أحد أتحدث معه غير نبيل.. «وهاج» الذي صار مسؤولاً عن التغذية في الكامب يأتي، وينصاع عابد لكل طلباته بسلاسة. وأتذكر دائماً ارشد وهو يسأل:

«لماذا يفعل عابد بي ذلك؟» تمنيت لو ماطل عابدٌ وهاج. لو

خالفه، وعصى له مطلباً. يبدو انه يعرف ما أريد. ودائماً أتذكر حيرة أرشد وضيقه وقلة حيلته. وتمنيت أكثر من مرة أن أرى أرشد داخلاً فجأة. فيزة أرشد تنتهي بعد ثلاثة أشهر. تبقى له الآن أيام قليلة. هل يفعلها أرشد ويعود؟ لا أظن. أشاع «شوّي» خبر القبض عليه لأسباب سياسية، ولا اظن ان له فرصة في العودة أبداً. يستطيع أرشد ان يسافر بعدسجنه إلى اي بلد إلاّ المملكة. ويستطيع أرشد ان يحلم في سجنه بأي بلد إلاّ المملكة. لا بد أنه نسي الوقت الذي أمضاه هنا. ولا بد ان سعيد يفعل الآن نفس الشيء، ومنذر أيضاً والمرأة اللبنانية الصغيرة والدكتور أحمد، ورأفت وفيليب المسكينان اللذان لا حاجة لهما الآن إلى التذكر أو النسيان.

قطيعة غريبة تحدث بين العائدين الى بلادهم وبين هذا البلد. منذ البداية تبدأ القطيعة فلا أحد يأتي هنا الا ليعود. هل يعرف اليمني العجوز ذلك؟ أتراه يبتسم لي لهذا السبب؟ يسخر من الأمر كله ويرى الدنيا حوله مهزلة؟ ما باله لا يظهر الآن؟ سألت عابداً عنه امس، فابتسم وسألني:

ـ هل يهمك أمره؟

ـ فقط أسأل.

وهز كتفه بلا مبالاة.

* * * * *

ـ أليس هناك طريقة للاتصال بها في الدمام. أليس لديكم رقم التليفون أو العنوان؟

سألت وردة التي ذهبْتُ إليها في المستشفى بعد خروجي من العمل.

ـ من الصعب عليك أن تتصل بها في الدمام، نحن لا نعرف بالضبط في أي مستشفى تعمل هناك.

ـ .....

ـ ألم تكن تكتب لها؟

ـ كنت اكتب..

ـ الم ترد عليك؟

ولم أرد عليها. قمت وصافحتها ومشيت.

* * * * *

كرهت العودة إلى البيت.. كرهت صيد الفئران. إنني اغسل اللوح الخشبي كل يوم بالصابون والسافلون. لا رائحة نتنة في المطبخ حقاً لكني اشمها في الفضاء. فكرت جدياً أن ابحث عن شقة صغيرة في عمارة. ستكون فرصة الفئران اقل. البيوت العربية الطراز لا تزيد عن احجار في طريقها تتسلقها او تمر من تحتها. ودخلت الشارع العام بسيارتي. احسست اني بحاجة ان ارى عربة الشرطة تطوف بأحد. اي أحد.

ورأيت نفسي أركب حماراً ووجهي إلى الخلف وهو يمشي إلى الأمام. ويضحك الناس علي رجال ونساء، ويقذفني الاطفال بالاحجار. ولولا أني سمعت نفير السيارات لاصطدمت بالسيارات أمامي.

سمعت ان أوامر صدرت بالغاء التشهير بعباد الله في الاسواق..

من الذي فعل ذلك رغم حاجتي اليه الآن. تركت سيارتي ومشيت. ذاهب أنا الى بيت سيد الغريب. لا بد أن أتحدث مع أحد.

ـ أمـش.

هتف الشرطي في وجهي.

ـ امش.

اشار إليّ سيد الغريب بيده من الشرفة التي يجلس فيها.

ـ ليش واقف؟

ـ هل يضايقك وقوفي؟

ـ يضايقني. قلت لك أن تمشي.

ـ أين اذهب؟

سألتُ الشرطي فجأة مندهشاً ومرتبكاً.

ـ لو لم تمش وضعتك معه في البيت لا تخرج منه.

مشيت. عدت إلى الشارع العام، واشتريت الصحف والمجلات. قابلت صالح في الطريق فتجاهلته وتجاهلني. ما كاد يصبح خلفي حتى وقف وناداني. وقفت، وعاد إليّ:

ـ اريد أن اعطيك هدية يا استاذ.

لم أرد.

ـ اعذرني إذ لم آت لأعتذر اليك بعد تنازلك عن الشكوى بالشرطة.

ولم أرد.

ـ تبغي بطانية جلد نمر؟ استطيع أن أوصلها الى بيتك الجديد. مرتاح يا استاذ في البيت الجديد؟

ـ الحمد لله.

ـ حياك الله يا استاذ.

وتركني، وعادت الشمس فوقي شديدة الوهج تكاد تحرق البشرة. والشارع العام صار مزدحماً بالبضائع، ومكتبة خالد أخو واضحة مغلقة. خالد شبيه واضحة لولا الشارب الصغير والغترة البيضاء والعقال ولا أثر في الشارع للحريق الآن.

ركبت سيارتي ورأيت الأشياء تجري الى الخلف. كل شيء يبتعد عني إذن وليس لي الآن الا انتظار خطاب واحد من أخي يعلن فيه شفاء أمي. ورأيتها تجلس جواري بالسيارة تربِّت على كتفي.

«لا تبكِ يا اسماعيل».

ومَسَحَتْ دموعي بيدها الباردة وحملتني وخرجت بي من زجاج السيارة ووضعتني فوق السرير الصغير الأبيض وغطتني بالغطاء الابيض وجلست جوار راسي تضع فوق جبهتي مناديل مبللة بالماء البارد وسمعت اذان الفجر. الحمد لله راحت الحرارة يا ابو اسماعيل. الحمد لله. وانحنى أبي يقبلني. قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم.

اللهم خذ مني لصحته وعافيته وارزقني برزقه وأعطني العمر لأرى ذريته. اللهم إني شكوت لك همي بالليل وتعبي بالنهار فاستمع لي وقربني منك وخذ بيدي في ابني يا عالماً بحالي يا غفور يا

تواب يا رحيم. اللهم إني نذرت أن اذبح على باب مقام سيدي إبراهيم الدسوقي كبشاً واعود واذبح على باب بيتي كبشاً فاشفِ لي ولدي اسماعيل. اللهم اشفِ مرضانا وارحم موتانا ولا تجعلنا مع القوم الظالمين.

والبنتين يا ام اسماعيل؟ بخير. شفتيهم؟ شفتهم. نايمين وكويسين. شقري عليهم يا ام اسماعيل. شقَّرت قلت لك. خلاص ما تزعليش حقك عليّ.

ويعلو نفير السيارات من كل جهة.

ـ ليش تقف وتعطِّل الطريق؟

ـ آسف.

ـ مُر بسرعة.

ومررت بسرعة وكل ما اخذته من البنتين الأكبر مني صار عليّ أن ادفعه لسناء وبهاء الأصغر مني. صَدْرُ الفرخة كان لي واللحم الأحمر والبيضة ذات الصفارين وزجاجة الكوكاكولا كاملة وفطائر السمن وافخاذ الأرانب وكبد الطيور وعناقيد البيض الذي لم يكتمل في بطنها والماء الساخن في الشتاء والصابون أبو ريحة والملابس الناعمة ورحلات المدارس وزيارة الحدائق. ملاذا كنت أحب دائماً من أبي أن يذهب بي الى محطة السكة الحديد أتفرج على القطارات الداخلة والخارجة وحركة الناس وفرق الموسيقى في الميدان امام المحطة؟ ورأيت صالح سنيور الثقيفي يقف امام الباب ومعه صاحب البيت.

ـ السلام عليكم.

ـ يا هلا.

رد عليّ صالح بصوت بارز وابتسامة واسعة وألق شديد في عينيه بينما غمغم المالك العجوز بصوت لم اسمعه.

ـ خيـراً.

ـ خيراً إن شاء الله. افتح لنا ندخل يا استاذ.

رد صالح بثقة غريبة. كيف وصل الى هنا قبلي وقد رأيته منذ قليل في الشارع العام، وكلمني دون أن يشير لذلك.

فتحت البـاب، واتجهنا الى غرفتي. ولم اشأ أن اطلب منهما الجلوس، لكن صالح جلس على حافة السرير، وجذب صاحب البيت من ذراعه يُجلسه جواره، وظللت انا واقفاً.

ـ لا تسوّ لنا شاياً ولا قهوة يا استاذ. سنخرج بسرعة.

ـ .....

ـ طبعاً أنت استأجرت البيت من الشيبة هذا. الآن انا اريد البيت.

ـ أي بيت؟

ـ هـــذا.

ـ لكني اسكنه.

اعـرف يا استاذ. انا اشتريته من الشيبة، واشتريت الذي يجـاوره. سأتزوج في هذا واهدم الثاني واجعله حديقة. سأزرع أشجاراً مصرية. سأعطيك مهلة شهر يا استاذ تبحث عن سكن آخر. تكفي هذه المدة؟

ـ تكفـي.

ولم أشأ النظر إلى أحدهما بعد ذلك. لا معنى أن أسأل المالك

الأول عن صحة ما سمعت. لم يصحبه صالح ليتآمر أو يكذب. لقد اشترى صالح البيت بحق وعليّ أن اتركه، سواء تزوج فيه وهدم الذي يجاوره، او تزوج في الذي يجاوره وهدمه، أو هدم الاثنين معاً ولم يتزوج.

* * * * *

أكلت بشهية لا اذكر انني أكلت بمثلها منذ أن أتيت. شويت كمية هائلة من لحم الضأن والكبد، ورحت التهمها وأنا واقف في المطبخ ودون خبز. استطيع اليوم أن آكل خروفاً كاملاً.. جَمَلاً لو اردت. وربمـا خرجت إلى الطريق هائجـاً اذبـح كل من يقابلني واشويه وآكله. احتاج الآن الى نوم كبير.

تمددت فوق السرير، وامتدت يدي تمسك بمجلة مما ألقيته من قبل على الأرض قريباً من رأسي.

«جريمة تهتز لها المملكة. ثاني حادث من نوعه خلال شهر. فتاة في السابعة عشرة تضرب زوجها على رأسه بآنية الطبخ البريستول الثقيلة ثم تخصيـه. الزوج المسكين مات من الصدمة حين أفاق وعرف ما حدث له. الزوج هو ع. ع. ص البالغ من العمر سبعين سنة. والزوجة القاتلة الصغيرة هي و. س. س من الرياض، وهي تلميذة في المدرسة المتوسطة».

وقلّبت المجلة مجنوناً الى بريد القراء.

وصلتنا أكثر من رسالة عاجلة بالتليفون تسأل هل و. س. س صاحبة الرسائل المتكررة إلينا هي القاتلة. والإجابة بالنفي. ونحن نطمئن قراءنا الاعزاء الى ان صديقتنا و. س. س هاتفتنا بالتليفون

بعد الحادث تسأل هل صحيح ستقوم حكومة الخميني في طهران باغلاق المدارس والجامعات وتعود إلى التدريس في المساجد. والحقيقة انه لا إجابة واضحة لدينا حتى الآن، ونحن مثل صديقتنا تستمع لكثير من الاشاعات عن حكومة طهران الجديدة، لكن المؤكد انها مشغولة بتخليص الحكم لنفسها من المعارضة واعوان الشاه المندسين في البلاد، والمؤكد ايضاً أن الحجاب عاد يظهر فوق وجود النساء في سائر بلدان إيران، وهذه خطة محمودة للحكومة الجديدة نرجو ان تتبعها خطوات اخرى في طريق الدين الرشيد. وأنا الذي رأيت دكانة خالد مغلقة منذ ساعات بالسوق قفزت من فوق السرير، ودخلت في ثيابي، واندفعت أركب سيارتي أسرع بها على الطريق القادم من الشمال، واضحة. واضحة ولا أحد غيرها، ورحت أنهب الطريق غير مبال بالفراغ الواسع الرهيب حولي، ولا بالظلام الزاحف ضارباً قلب الفضاء. وهناك، بعيداً بعيداً وأنا اقترب من «حالة عمار» بوابة الحدود مع الأردن، أدركت أنه لا بحر قابلني في طريقي لألقي بنفسي فيه.

٢٨

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون...

عائد الى حيث جئت لا محالة وكل شيء اقتربت منه ابتعد. كيف نسيت أن اكون مرآة لامعة تنزلق فوقها حبات المطر؟

الليل والنهار ورجل واحد بينهما هو انا. الليل والنهار سمّاهما العرب الملوين لانهما يملآن الآفاق نوراً وظلمة. كيف ترى حقاً في النور الساطع وكيف ترى في الظلمة القاتمة؟

الليل والنهار سماهما العرب بالجديدين لتجددهما بالضياء والإظلام على الدوام. لا شأن لهما بأحد. لم يقف النهار معي مرة يحدثني ولا الليل فعل. سُمي النهار نهاراً لظهور ضوء الفجر يجري كالنهر من المشرق الى المغرب معترضاً حتى يأتي على الظلام. معركة يخوضها كل منهما مع الآخر ولا شأن لهما بأحد يقف تحتهما أو بينهما. يطل عليّ النهار الآن فأسرع الى العمل غير مصدق أني نمت وصحوت وأن الليل انقضى، وأعود أردد في نفسي ومن شر غاسق إذا وقب، خوفاً من شدة ظلام الليل، ودخوله كاسحاً بلا هلال ولا بدر

ولا نجوم، واختلطت عليّ أيام الشهر، ورأيت أبي يخرج قبل المغرب يبحث عني في الشــارع لأدخــل البيت قبــل الظلام، ويقول عن الرسول جنبوا صبيانكم فحمة العشاء.

سَمّى العرب الليل بالكافر لأنه يستر الناس، فالكَفر هو الستر، والكافر يجحد نعمة الله ويسترها، والكفور هي القرى النائية عن المـدن، لأن ساكنهـا يغيب عن جمهــور النــاس ويستتــر عنهم، والرســول قال: «لا تسكنــوا الكفــور فســاكني الكفــور كساكني القبور»، وتبوك بعيدة عن حواضر المُدُن، في مصر آلاف الكفور.

أرى الليل الآن كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، وأخرج يدي فلا أكاد أراها، وكل ليلة انتظر النهار، وانتظر معه شيئاً يحملني الى مكان آخر، شيئاً لا ادرك كنهه، وإن كنت أعرف انه ليس رسالة من احد.

*****

عاد منصــور من الكـويت ولم اقــابله. اخبرني نبيل أن يوم الجمعة ستتم وليمة الكبسة التي وعدنا بها منصور من قبل ولم يتمها. ستكون وليمة ضخمة، قال نبيل، وسيرانا منصور لآخر مرة إذ سيسافر مرة ثالثة إلى الكويت ويبقى هناك، سيتزوج المصرية التي دوخته. مسكين منصور وُلد ليهوى المصريات، وضحك نبيل وسألني لماذا أنا مندهش.

كنت افكر كيف يتكرر سفر منصور هكذا وفي وقت قصير. لا بد أن مسألة زواجه من وداد لم تكن منتهية كما حاول ان يقنعني آخر

مرة. لكن لماذا لا يأتي إلى العمل بالنهار لأراه؟ لماذا يرسل إليّ نبأ الوليمة مع نبيل؟

فكرت أن اتخلف عن الحضور، ووجدت انه لا معنى لذلك. الآن انتهت كل آصرة لي بشي أو أحد. ضاعت عايدة في الرمال البعيدة، وواضحة هي القاتلة، وسينفذ فيها القصاص بالسيف لا محالة، ولا يعنيني ان و. س. س. لا تزال ترسل اسئلتها للصحف من كل المدن، فمنذ أيام لا اشتري الصحف، والبيت الذي سيأخذه صالح ليهـدمـه أو يعمّره بامرأة وأطفال ليس فيه ذكريات، وفي الذاكرة البعيدة الآن ينام كل من عرفتهم رغم قرب الزمان. ها هو «إله تبوك» السحري يعود الى جعبته يطلق منها على روحي سهام النسيان، وها هو «العم» يثور كل وقت صارخاً أن البلاد غير البلاد، وبهاء أخي أرسـل يقـول إن أمي صـارت بخـير. لم يطلب نقوداً أخرى ولم يحدثني عن تفاصيل المرض. لقد شفيت والسلام. سأحضر إذن وليمة الجمعة.

*****

دائمـاً كنت اعتذر عن عدم تلبيـة دعـوات وجيـه وسعيد لي بمصـاحبتهمـا لمثل هذه الولائم. الآن اشتاق الى حضور واحدة منها. لم اشتق إليها يوماً والآن استعد لاستقبالها فرحان. هدأت روحي بعد يقيني بانقطاع كل الحبال. ربما، وربما لأن صاحبها منصور.

أحس، ويا لغرابة هذا الاحساس المفاجيء، أني اقف على باب الطائـرة وهـواء المكيف في ظهـري، ووجهي وصـدري يواجهـان

الشمس، وأخطو أول خطوة دون أن يدفعني اليها احد. هل سأعود مرآة لامعة؟ عليّ انا أن أعرف جيداً كل ما أراه. أدقق في تفاصيله كمشترٍ حصيف، وأشرع في كتابة المذكرات التي تجعل ما يحدث لي لا يحدث معي. المذكرات تعني الوعي. الوعي يعني هزيمة الوجدان، ولا يأتيني الحزن بعد ذلك. لو أتذكر الكاتب الخبيث الذي قال هذا الكلام. آه. كل الكتاب خبثاء، وكل القراء أغبياء يصدقونهم فيعيشون حياة غير حياتهم. سرقة مع سبق الإصرار للوقت والعمر الجميل ولا يشكو احد. لقد قيل إنه حين نشر غوته آلام فرتر انتحر مئات الشباب في المانيا الرومانتيكية التي هتك نابليون عرضها بقوة. قتل غوته شباب أمته بكتاب صغير بكى في كتابته مرة أو مرتين، واحتاج نابليون الى جيوش لقتلهم. ولم تنقذ أشعار لوركا جنود الجمهورية الذين حملوها في جيوب ستراتهم جوار قلوبهم. وفي زيارتي الأخيرة للقاهرة مات «صلاح منصور» صاحب العينين النافذتين. ترك فراشه ووقف جواره يلقي مونولوغ هاملت الشهير، وما ان قال اكون او لا اكون حتى عاد لينام فوق الفراش. نوم الابدية.. ترى كم قتل شكسبير بأميره الوسيم طوال القرون الخمسة الماضية. ولماذا أذهب بعيداً هكذا انا اسماعيل خضر موسى الذي يفطن دائماً للحقائق بعد فوات الأوان؟ ضيعني أحمد عاكف ونجيب محفوظ. صدقتهما فقتلت «آمال». اجل. قتلّ عمد مو. عرفت ما لم يعرفه أحمد عاكف مبكراً، انا لن أفوز بشيء، فلم أشأ إرهاق قلبي وتحطيم قلوب العباد. نجحت في الأولى وأخفقت في الثانية فقتلت من حيث أردت الحياة. حتى الكتابة قرأت من أجلها مئات الكتب إلا ادب الكاتب والكامل والبيان والتبيين، ثم تركت الكتابة أيضاً تتسلل من قلبي الى قدميّ إلى الطريق يدوسها

النسيان ويعلوها الصدأ. هل كنت أعرف أني سأصل إلى هذه النهاية، أم جئت هنا، على هذا البعد، لأتقصى الأسباب؟ يا الله، هنا، على بعد مئات الأميال من كل ما هز القلب أو تحجّر أمامه، هنا، والآن، اكتشف اني استطيع العودة واكتب. لكني لا أريد أن أدمي قلبي، أنا كاتبي وانا قارئي فأنا قاتلي لا محالة إذ ستصل الخدعة إلى الغاية رغم أني الكاتب المخادع الخبيث. إذن فلأشرع في كتابة المذكرات حيث يطغى العقل عن الوجدان فلا يندفع الدم بين القلب وبقية الجسد.

* * * * *

ولم أكتب المذكرات، ولا يبدو اني سأكتبها يوماً، وعاد الليل اثقل.

في الحزن يطول الليل فلماذا يطول الآن وقد تقطعت بيني وبين كل شيء هنا كل آصرة؟ ليلي ثقيل من السخف نشأ. ليلي مقيت في تكراره لكني وصلت إلى صباح الجمعة، وانتظرت في البيت حتى انتهت الصلاة، وتغديت، واستلقيت فوق السرير اتابع برامج التليفزيون ليتابني قلق مفاجىء، فأنا أريد بحق حضور الوليمة. وكان التليفزيون كريماً معي. بث فيلماً مثيراً عن غرق السفينة بوزايدون. أنا لا اعرف شيئاً عن هذه السفينة، وما إذا كانت قصة غرقها حقيقية أم لا، لكن من منا لا ينجذب إلى هذا النوع من الافلام الذي يصور الناس في مأزق كبير، ويجلي أمامنا الإرادة الانسانية في أقوى صورها، ويعرض صور الصراع بين النفوس في لحظات الضعف والقوة. كل هذه الأفلام يعرف المشاهد نهايتها التي لا تخذله فتنتهي دائماً بالنجاة. أعرف ذلك انا ايضاً، ولكني

أمام السينما أتحول الى طفل بريء مأخوذ ومفتون. وكان النوم أيضاً كريماً معي، ما كاد الفيلم ينتهي حتى ثقل رأسي، وانفصل عني جسمي، ورأيت مرة أخرى «جين هاكمان» القسيس الورع الذي يعظ راكبي السفينة أن لا ينسوا رحمة الله ولم يضعف رغم سخريتهم به حتى إذا بدا انه لا فرصة للنجاة بعد أن بذلوا، وبذل معهم، جهداً خارقاً، يهتف في غضب وخيبة أمل نحن لا نريد مساعدتك، فقط نريدك ان تكف عنا، أن تتركنا نواجه ما يحدث دون تدخل منك لأجلنا أو علينا، فجعلني أضحك من يأسه وحيرته.

ولما صحوت وجدت التليفزيون يبث برنامج «مجلة الاسبوع» والدنيا ظلام، فأسرعت كالملدوغ بالخروج، وركبت سيارتي منطلقاً إلى الشركة خائفاً خوف الموت أن تكون الوليمة قد فاتتني.

* * * * *

اقتربت فوجدت عدداً كبيراً من السيارات تقف أمام باب الشركة من الخارج. سيارات كابريس ومرسيدس وكاديلاك وبيجو، وبينها تبرز سيارة عم عبد الله الكاديلاك البيضاء، وجوارها سيارة مرسيدس سوداء ذات ستائر داخلية خلف زجاجها، ويرتفع وسط سقفها، تماماً كسيارة عم عبد الله، إيريال إرسال واستقبال.

تركت سيارتي نصف النقل القديمة بالخارج، ودخلت على مهل أفكر من يا ترى دعاه منصور إلى الوليمة الليلة.

كانت الأضواء تكاد تُشعل المكان وسط فضاء واسع من الظلام، وكانت لمبات اضافية قد وُضعت حول سور الشركة، فبدا الأمر كأنه عرس يقام وسط الصحراء.

دخلتُ إلى الباحة، فشد عيني مشهد الجالسين في صفين متقابلين من اهل البلدة، يتصدرهم عم عبد الله الذي رفع لي وجهه ثم تغافلني كعادته، وجواره شخص أسود الوجه، يرتدي فوق الجلباب عباءة سوداء مطرزة بقصب الذهب، وفوق رأسه غترة خضراء متقاطعة خطوطها الحمراء. رفع لي هذا أيضاً وجهه وانشغل عني، وأنا ترددت في الاقتراب منهم. كانا يتكلمان ويضحكان. وظهر نبيل قادماً من ناحية البوفيه يحمل ابريقاً وكأساً ويتوجه في صمت ناحيتهما.

لمحت عابداً يتحدث في التليفون في غرفته. فتقدمت اليه أشعر بالارتباك في خطواتي وعز وجهي. ما إن دخلت حتى ابتسم لي وهو يضع السماعة وقال:

ـ مفاجأة، أليس كذلك؟

ـ من كل هؤلاء؟

ـ هؤلاء شيوخ البلدة، وكبار موظفي الإمارة، يتوسطهم عم عبد الله والأمير.

ـ هل هذا هو أمير تبوك؟

ـ ألم يسبق لك أن رأيته؟

ـ أجل.

ـ انه شخص مهذب جداً. تعال سلم عليه.

وقبل ان اتكلم أخذني من يدي، ولم أجد الفرصة لأقاوم من خوف غريب استبد بي، فتركت له نفسي، ثم سحبت يدي من يده بعد خروجنا من باب المكتب. لا يصح ان يبدو أمامهم أنه هو الذي يدفعني لمصافحتهم.

لم يقدمني عابد الى احد بالطبع. اقتربنا من الأمير فتركني، واشتبك بالحوار الضاحك مع أحد الشيوخ، واندفعت انا تخلصا من الموقف كله أصافح عم عبد الله اولاً. «هلا» قال في اقتضاب. وصافحني الامير. مد الي يده وهو جالس، وقال عم عبد الله:

– هذا اسماعيل. يعرف الانكليزية جيداً. يمكن أن تستفيد منه في الامارة.

– حقاً؟

تساءل الامير دون أن يبدو أنه تكلم أو حرك شفتيه. وما كدت أرد بالإيجاب، حتى هز رأسه مرتين مغمضاً عينيه. وبدا أنه انصرف عني بذهنه، ووجدت نفسي أسرع بالاتجاه إلى البوفيه دون أن استمر في مصافحة بقية الجالسين.

جلست على المقعد الوحيد ارتجف. شملني الخوف الذي لا أعرف مصدره. كيف حقاً أرسل اخي يقول إن أمي شفيت من المرض دون ان يذكر لي مرضها وطبيعته التي استدعت أن ارسل إليهم كل ما أرسلت من نقود. وفكرت كيف أن البساط الاحمر الممتد بين الصفين من الشيوخ، يمتد أيضاً إلى ما بعدهما من الجهة المقابلة للأمير وادركت أن العمال الباكستانيين قادمون ايضاً للحفل وربما دعا منصور الاميركان. أين إذن سيكون مكاني؟ ليس أمامي إلا انتظار بقية المدعوين لأجلس بينهم. لا استطيع الجلوس بين الشيوخ وكبار البلدة. لا شيء لديّ اقوله لأي منهم، ولا سابق معرفة لي بأحدهم. ولم آتِ للصمت والأكل. لا بد أن يحدثني أحد. وعابد سيجدها فرصة ليتحدث مع كل الشيوخ أمامي، ويتبادل معهم الضحك وكلاماً لا أفهمه. لن يتحدث عابد لي بكلمة منذ الآن،

ونبيل مشغول عني بتقديم الشاي والقهوة العربية حتى يأتي منصور وطعامه.

ويدخل نبيل البوفيه وقد احمرّ وجهه بشكل مثير.

– ربك يستر.

قال هامساً. وسألته:

– أين منصور؟

– سيأتي بعد قليل ومعه عربة محملة بالطعام. سيطهوه في البلدة. في بيته. هكذا قال. لماذا لا تخرج وتجلس معهم؟ فرصة أن تتعرف عليهم؟

ابتسمتُ. تركني وحمل إبريقاً آخر من الشاي وخرج. هل استطيع ان أتعرف الليلة على كل هذا العدد من الشيوخ والكبراء ذوي الفُتر المدرجة، والعباءات الفضفاضة، والوجوه النضرة ذات اللحى الصغيرة اللامعة؟ وبقيت جالساً في مكاني، إلا اني حركت المقعد بحيث أراهم من خلف الباب المفتوح ولا يرونني، ورأيت عابداً لا يكف عن المرور حولهم. يقف يتحدث مع واحد لحظة، ويضحك مع الثاني، وينحني يقبل رأس الثالث، وأحياناً كتفه، وترتفع أصواتهم بكلام لا أفهمه، وكثيراً ما يضحك بعضهم، وأرى الأمير من الخلف لا يهتز ولا يبدو انه يتحدث.

كثيراً ما تحدث وجيه وسعيد أمامي عن «الكبسة». قالا إن الأكل فيها يكون بالأيدي. باليد اليمنى فقط. لا يصح استخدام اليدين. اليد اليمنى تنهش من لحم الخروف الصغير المشوي، الموضوع كله فوق صينية الأرز الكبيرة التي قد يصل قطرها الى المتر والأرز كوم عال، أرز غارق في السمن، مخلوط باللوز والزبيب والصنوبر

والفستق، وعلى الواحد أن يأخذ بيده الأرز الساخن، ويضغطه في كفه قبل أن يقذف به الى فمه، وكلما نزّ من يده السمن، كان دليلاً على كرم صاحب الوليمة، وحذار إذا وجدت ملاعق أن تستخدمها. الملاعق لا تظهر إلا في حالة تقديم «السلاطة» مع الاكل. يكون عليك أن تحمل السلاطة بالملعقة، وتلقي بها فوق الأرز ثم تترك الملعقة، وبيدك تعود تأخذ الأرز والسلاطة معاً وتكورها لتأكلها. ومن مراسم الكبسة أن لا تبدأ تناولها إلا بعد أن يبدأ كبير الجلسة، وكبير الجلسة اليوم هو الأمير صاحب العينين الصغيرتين المدفونتين تحت جفنين عاليين. عليّ اذن أن أراعي كل هذه الآداب.

وسمعت ضجة عالية خارج الباحة، ثم اندفع العمال الباكستانيون إلى الداخل يجرون ضاحكين، وفجأة توقفوا مصعوقين من رؤيتهم للشيوخ والكبراء. صار بعضهم يُحذّر القادمين مندفعين بعده، وبعضهم خرج بسرعة يحذر القادمين من الخارج، وتوقفوا حائرين لا يعرفون ما يفعلون، فتقدم عابد إليهم وأشار إلى الناحية الخالية حول البساط الاحمر، فراحوا يجلسون في صمت، لكني أرى على البعد وجوههم التي اشتعلت احمراراً.

عاد نبيل الى البوفيه أحمر الوجه أيضاً.

ـ لقد تأخر منصور كثيراً.

لم أرد. كنت أتابع الصمت الذي ران على الجميع. الشيوخ أيضاً وعابد الذي خرج يقف عند باب الباحة قلقاً. وكان الضوء في الباحة شديداً ونسمة من هواء منعش هبت علينا، وبدا لي كل شيء طيباً ندياً، لكن أخذني القلق. قلت لنبيل:

ـ هل تراه لا يأتي؟

ـ لا أظن. لقد دعا الأمير كما ترى وشيوخاً كباراً. أبوه أيضاً يجلس هنا. ألا تعرفه؟

هززت رأسي بالنفي فقال:

ـ صاحب العباءة البنية.

دققت النظر حتى رأيته في الصف المواجه لي. شيخ هرم أغمض عينيه وأغلق فمه، ويكاد رأسه الذي يهتز يسقط على صدره من النعاس.

ـ لكن لماذا تبقى هنا؟

فاجأني نبيل بالسؤال ثم قال:

ـ يجب أن تأخذ مكانك الآن، سيفطن الناس إلى غيابك وهذا عيب كبير، ما دمت حضرت فعليك بالجلوس معهم.

* * * * *

لم يكن هناك مكان لي إلا الصدارة من الناحية الأخرى المقابلة للأمير وعم عبد الله. على جانبي وامامي صفا العمال الباكستانيين يلتحمان بصفي الشيوخ.

من الممكن أن يجلس عابد جواري، ومن الممكن أيضاً أن يتسع المكان لمنصور. لا بد أن يجلس منصور في الصدارة حين يأتي، فأكون أنا على يمينه وعابد على يساره، أما نبيل الذي لم يجلس حتى الآن، فلن يجلس. سيكون عليه اعداد الشاي والقهوة لتقديمها بسرعة بعد الأكل لكل هذا العدد. ربما يأكل نبيل مما يتبقى. يتبقى دائماً الكثير يُلقى به للقطط فتصير نموراً وتحسدها الكلاب الطريدة الممنوعة من دخول الحواضر. الليلة ستحسد

القططُ الكلابُ إن سيُلقي بما تبقى في الصحراء.

جاء عابد مسرعاً من ناحية الباب، وجلس جواري وهو يقول: «وصل الطعام».

كان يهتز ارتعاشاً لا أعرف لماذا. وكان يبتسم، وأنا راحت عيناي تتأملان الأمير الذي بدا لي قصيراً سميناً لا يكاد يرتفع رأسه الى أحد.

- بالخارج الآن سيارة نصف نقل تحمل صواني الطعام لكن منصوراً لم يأت معها.

قال عابد لي والخوف يكاد يقفز من عينيه. وشممت حقاً رائحة السمن تتسلل الينا في الفضاء؛ ثم دخل من الباب يمنيان يحمل كل منهما صينية مغطاة بقطعة شاش بيضاء، ووقفا حائرين فتقدم نبيل منهما، واخذهما ناحية الأمير. فوضعا الأولى امامه والثانية بعدها بقليل، وعادا مسرعين إلى السيارة بالخارج. وجذب نبيل ثلاثة من الباكستانيين فقاموا على الفور، وراحوا مع اليمنيين يحملون الصواني المغطاة بالشاش الأبيض، وامتلأ الفضاء برائحة الإدام، وخرجت أطراف الألسن تمر بين الشفاه، وتحركت الحناجر صاعدة هابطة بابتلاع اللعاب، وراح الشيوخ يتحدثون عن عدم حضور منصور ويضحكون. وترتفع أصواتهم ثم تنخفض، ويشيرون إلى أبيه الذي يفتح عينيه ويتكلم بصوت لا يسمعه أحد؛ ثم يعود يغالب النعاس، وتململ الأمير، لكنني أدركت من الحوار الذي تبادله معه عم عبد الله، ومن ضحكهما الهامس، انهما لن ينتظرا حضور منصور.

رحت أعد الصواني فاكتملت عشرين، ووقف اليمنيان حائرين بعد أن عاد الباكستانيون الثلاثة إلى اماكنهم، لكن نبيلاً أشار إليهما ان يقفا عند البوفيه فامتثلا، وحط على الدنيا صمت. ينتظر الجميع الآن أن يبدأ الأمير، وأنا انتظر ان يقع فوق رأسي حجر من السماء، واكاد انكمش وأتلاشى، وتمنيت بحق أن ارى منصوراً.

رفع الأمير قطعة الشاش، فامتدت الأيدي ترفع الشاش فوق الصواني التي امامها، وامتلأ الفضاء بالأصوات الغاضبة. ضباب. ضباب. إيش سوى هذا المعتوه؟ ضباب يا أبو محمد. ضباب يا أبو منصور. ضباب يا عبد الله..

لم تكن فوق الصواني خراف. حيوان غريب قصير مثل تمساح صغير له ذيل كثير الفقرات.

- هذا ضب.

قال لي عابد هامساً. ولم يكن مهماً أن اعرف. كنت أتابع الغضب على وجه الامير وفي عينيه، والدهشة على وجوه الباكستانيين، الذين قام واحد منهم مفزوعاً يصرخ، وخرج جارياً مغادراً الباحة كلها، وعاد الصمت يحط، وبدا الارتباك على وجه عبد الله، وما زال ابو منصور يغالب النعاس، ولم يفطن أحد لما فطنت أنا اليه. لم يكن فوق كل صينية «ضبٌ»، ولكن كان فوق ثلاث او اربع منها حيوان آخر له أربع أرجل كبيرة وبلا رأس، لكن إليته الضخمة المرتكزة المثلثة توضّحه اشد توضيح. ورفع عابد قطعة الشاش التي فوق الصينية التي أمامنا، فوجدت نفس الحيوان، وشعرت بمعدتي تكاد تقفز، وكأنما قفزَتْ من بطني الى

فمي ضفدعة. هكذا احسست بالضبط. فأمسكت بطني بيديّ، ونهضت جارياً إلى دورة المياه، لكني لم أنجح في أن أمنع نفسي عن التقيؤ قبل بابها، ولحق بي نبيل بسرعة، وأخذني من إبطي من الخلف، ومشى بي الى البوفيه أكاد اسقط مغشياً علي، وسمعت صراخاً وهرجاً، ووقف نبيل بالباب يرى ما يحدث. الله. الله. ما هذا؟ ووقفت متحاملاً جواره فرأيت شخصاً لم تسبق لي رؤيته، يطارد بالباحة اليمنيين، ويشبع كل من تصل اليه يده منهما ضرباً حتى استطاعا الهروب من باب الباحة، فوقف هو يرفع غترته التي انزلقت الى الأرض، ويتقدم نحو الأمير الذي قام في غضب ومضى بسرعة خارجاً لا يتوقف له، وهو يحاول الاقتراب منه، ولم يفلح إلا عند باب الباحة في تقبيل راسه وانفه وكتفيه، وملأ الشيوخ الباحة بالحوار والصيحات والضحكات ايضاً. وصرخ عبد الله في الباكستانيين ان يحملوا الأكل ويلقوا به في الخارج، ورأيت ابا منصور يمشي منحنياً ولا يكف عن هز راسه.

٢٩

ادهشني ظهور اليمني العجوز من جديد. اليوم جاء مبكراً في حوالي التاسعة. ظهر جالساً في مكانه والسواك في فمه ولا يكف عن النظر إليّ ولا عن الابتسام.

يزداد ابتساماً اليمني العجوز منذ ظهوره. لابد أنه عرف حكاية منصور كلها. مسكين منصور. في اللحظة الأخيرة عرف أخوه الأكبر بأمر الوليمة. قيل إن امه اخبرته وهو يدخل البيت عائداً من الدكان، أن منصوراً ذبح القرود التي اشتراها من السودان، وأنه اتفق مع بعض اعراب البادية على صيد عدد من الضباب، وأنه استجلب يمنيين ليطهوا له هذا كله، لكن اليمنيين كانا قد حملا شيئاً في السيارة ومضيا، ولحق الأخ الأكبر بمنصور وهو يركب سيارته الكابريس فمنعه من الحضور. هاجمه وضربه، وضربه منصور أيضاً، لكن الأخ الأكبر نجح في النهاية في ربط منصور إلى نخلة كبيرة بباحة البيت، وأسرع يحضر الى الشركة. إنه هو الذي رأيته يضرب اليمنيين بجنون، ويحاول بعد ذلك استرضاء الأمير.

في البداية لم أصدق القصة، لكن خبر نَقْل منصور إلى مصحة الامراض العقلية بالطائف أكدها لي. عابد هو الذي اخبرنا، ثم

تحدث فيها الباكستانيون الذين عرفوا ذلك من زملائهم بالشركات الأخرى. عرفت تبوك كلها القصة والنهاية، فلم يعد هناك شك في الخبر. لقد ذهب منصور إلى الكويت للمرة الثانية فوجد وداد تزوجت قريبها. لم يساعدها منصور في أي شيء، وكل ما قاله لي خيال اصطنعه هو وصدّقه. عاد منصور من الكويت يلعن النفط واليوم الذي تفجرت به الأرض. من قبل كان الناس يأكلون سباع الصحراء، والضب حيوان لذيذ اللحم شهيّ أكله في البادية. لا بد أن منصوراً الذي لم يحضر الوليمة أعد القرود لنا نحن الغرباء، ولم يكن ليوافق أن توضع الصواني التي تحملها كيفما اتفق.

* * * * *

ـ لماذا لا تضحك هذه الأيام؟

سألني نبيل الذي سيسافر بعد غد إلى القاهرة. لم أشأ أسأله لماذا عاد اليمني للظهور ولماذا يحضر اليوم مبكراً ولم أشأ أخبره أني أشعر وكأني مسؤول عما حدث لمنصور. ثم ماذا يفيد أن أحدثه عن وحدتي وتفكيري كل يوم في أنّ لا أحد حولي أتحدث معه. مضى أسبوعان الآن من الشهر الذي حدده لي صالح لأترك البيت، ولم أسع للبحث عن مسكن آخر. دائماً أنسى ودائماً لا أتحمس إذا تذكرت.

قلت:

ـ اجلس معي قليلاً.

جلس وقد عاد الإشراق القديم إلى وجهه. نظر إليّ طويلاً ثم أغمض عينيه وقال:

ـ لا أعرف لماذا أتذكر هذه الأيام قول أمي لي دائماً أن فيّ شيئاً لله. من زمان وهي تقول لي ذلك. دائماً تذكرني بخالي الذي كان يأخذ مني فلوس الإذاعة ويعطيني الشيكولاته وكيف غرق في النيل، وكان يُعَدُّ من أشهر السباحين في امبابة، والمدرس الذي كان يضربني في المدرسة الابتدائية حتى كرهت المدارس كيف سقطت فوق رأسه "قُلّة" من إحدى البلكونات فمات في الحال، والضابط الذي أخذني من المقهى إلى القسم مع غيري من الصبيان وتسبب في قضائي سنتين في إصلاحية الأحداث كيف سقطت به بلكونة في مديرية أمن الجيزة فمات رغم أنها بلكونة الدور الأول، وخطيبتي التي تركتني من أجل سائق تاكسي. تقول أمي إنه سيطلقها، لأنه اعتبرها شؤماً عليه إذ دهست سيارة جيش كبيرة التاكسي الذي يملكه وسوّته بالأرض ليلاً رغم أنه ركنه تحت شباك بيته.. لماذا أفكر في ذلك كثيراً هذه الأيام؟

ولم أجد إجابة. كنت محتاجاً إلى حديثه الحلو يُفَرّج همي ففاجأني بأفكاره. سألته:

ـ هل اقتنعت أخيراً بزواج خطيبتك من سائق التاكسي؟

ـ لا أظن أن أمي تكذب طول الوقت.

ـ لماذا تصرّ على السفر إذن؟

ـ لا أعرف.

أجاب وعاد إلى الصمت قليلاً ثم قال:

ـ هل تظن أن فيّ شيئاً لله حقاً؟ هل أنا طيب إلى هذه الدرجة ولا أدري؟ هل يحبني الله إلى هذا الحد؟

تأملته قليلاً. وقلت وأنا أشعر بعطف غامر نحوه:

- لا أظن أن الله يكرهك يا نبيل.

هز رأسه وابتسم وقال:

- ليت خالي أعطاني الفلوس ولم يمت، وليت المدرس تركني فتعلّمت ولم يمت، وليت الضابط لم يدفع بي إلى إصلاحية الأحداث وعاش، وليت خطيبتي لم تهجرني.

وأجهش يبكي فجأة ثم قام وتركني.

* * * * *

جلست وحدي بقية اليوم. انهمكت في ترجمة تقارير لا أعرف أحداً ممن يكتبونها من الفنيين الأمريكان، عن مواقع عمل لم أزرها رغم كل هذا الوقت، ولا أستطيع بين حين وآخر أن أمنع نفسي عن النظر ناحية اليمني، فأجده ينظر إليّ ولا يكف عن الابتسام.

من قبل، حين كنت أنظر إليه كان يحس بنظراتي فيبادلني النظر ويبتسم. اليوم والأيام القليلة السابقة منذ وليمة منصور، لا يبعد عينيه عني. وحين عاد عابد من البلدة يحمل خطاباً لي قرأت اسم علاء خلف المظروف فأهملت قراءته حتى أعود إلى البيت. لم أحب أن أضايق نفسي بشيء يطلبه علاء مني، أو بمشكلة ثارت بينه وبين أختي ويريد رأيي فيها. هناك أستطيع أن أفتح التليفزيون أو أترك البيت نفسه وأمشي في البلدة بحريّة.

٣٠

لم أحب أن ألقاك يوماً فتلومني. لقد آثر الجميع إخفاء الخبر عنك حتى لا ترتبك في عملك، لكنني أدرك شجاعتك وقدرتك على تحمل الصعاب، لذلك شئت أن أخبرك رغم ما في ذلك من ألم. ألمٌ لك لأنها والدتك الحبيبة، وألمٌ لي لأني خالفت ما أجمعت أسرتك عليه. لقد توفيت الوالدة منذ أسابيع وقمنا بدفنها وعمل ما يليق لها من جناز، وأرجو أن تتقبل خالص عزائي، وعزاء أسرتي، فلقد كانت والدتك أماً لنا جميعاً، وأرجو من الله أن يقوي عزيمتك، وأن تكون كما قدرت تماماً الإنسان القوي الذي يدرك حكمة الله، وأن تستمر في عملك واثقاً أننا هنا، أنا والأسرة، نرعى أخوتك كأخوة لنا.

ولم أنم الليل أمس ولا أحسب أنني سأنام الليلة أيضاً. لم أستطع العودة إلى العمل لأخبر أحداً، ولم أستطع البقاء في البيت إلا بعد أن درت في البلدة قاطعاً كل شوارعها وكأني وحدي أمشي بين أطلال لا صوت فيها لأحد.

- أتى الصباح عليّ وأنا أدق رأسي إذ كيف ضاعت مني صورة وجه أمي إلى الحد الذي لم أنجح ولو مرة في استحضاره. هل يلحق الموت بالخيال أيضاً؟

أذهلني الجمود الذي حط فجأة عليّ فصرت مثل حجر. لقد درت في البلدة غير واعٍ حقاً بما حولي، لكن ذهني لا يعمل. مضى عليّ الليل طويلاً، شديد الطول حقاً، لكن ذهني لا يعمل. هل كنت اتوقع هذه النهاية لأمي ولا ادري؟ ويريدني أن اكون كما قدر هو، الإنسان القوي الذي يدرك حكمة الله وأن استمر في عملي. علاء الذي لا اعرف في أي ركن كان قابعاً وقفز منه ليستولي على حصاد شقائي يريدني أن أستمر وهم، إخوتي، لعبة أبي المقيتة، أخفوا عني الخبر كي استمر في عملي. لا يريدون تعطيلي عن إعداد نفسي بما يجب وبما يسعى كل شباب هذا الزمان لاعداد انفسهم به. المال الذي يتفوق على ما قذفتنا به مصر من شرور. لقد اشتقت كثيراً إلى فأر. فأر واحد يخطيء ويدخل البيت بعد هذا الانقطاع. لن اقتله. مشتاق الى سماع صوت خربشاته وقفزاته وهو يمرح لاهياً واثقاً من براءة الدنيا حوله.

بالطبع لم يصدق عابد ولا نبيل الخبر. لقد راوني اعمل هادئاً، لكني اظهرت الخطاب لعابد الذي ارتبك.

- هل ستسافر؟
- غـــداً.
- لكـــن...
- سيوافق عم عبد الله.. لن يرفض شيئاً كهذا.

قلت له حاسماً. وبعد قليل جاء عم عبد الله إلى المكتب، وقبل أن أذهب إليه جاء هو اليّ. لقد اخبره عابد. صافحني وقدم الي عزاءه، وسألني ما اذا كنت محتاجاً الى أي شيء فشكرته، وأمر عابد أن يذهب إلى الجوازات لاستخراج تأشيرة لمدة شهر، وان يشتري لي

تذكرة في عودته لاسافر غداً مع نبيل. لم يقل هو مع نبيل. فكرت أنا بسرعة وهو يصدر لعابد اوامره، ولم يضايقني ظهور اليمني اليوم مبكراً ايضاً ولا ابتسامته التي لا تختفي. فقط في طريق عودتي اشتقت الى الذهاب الى المستشفى، لأرى عايدة وأقول لها لقد انقطع كل ما بيني وبين الناس في مصر، وادركت أني لن اجدها. تذكرت القصة كلها. والآن في غرفتي. في البيت الذي عليّ أن أتركه نهائياً لصالح، أود لو آخذ سيارتي وأسرع الى بيت واضحة أبكي في صدرها. يا الهي! اتذكر الآن أني وانا ادور في البلدة مساء أمس صامتاً غير مدرك لما حولي، رأيت دكانة أخيها خالد مغلقة لا تزال. وفكرت فجأة أنهما توأمان. تذكرت شدة الشبه بينهما. ثم تذكرت أن خالداً اكبر بكثير. وكما حدث امس اشتقت اليوم الى فار يخطيء ويدخل. وكما لم يحدث أمس اشعلت التليفزيون، لكن الإرسال كان قد انتهى من وقت طويل حتى أني أرى الصباح يجاهد للانعتاق من ظلام هذه الليلة الحارة الخانقة، وكان عي أن اظل أجاهد النوم الذي بدأ يغتالني الآن. لو نمت ما استيقظت إلا في المساء، ولا أحسب أن طرقات عابد الذي سيأتي ليحملني الى المطار ستوقظني أبدا.

* * * * *

- أراك اليوم أفضل من الأمس.

قال عابد الذي جاء في الثامنة صباحاً ووجدني في انتظاره. لم أرد. لا اظن أني كذلك. وحملت حقيبة كبيرة فحملها عني وترك لي الصغيرة أحملها. بانت الدهشة على وجهه وأحسست به يكاد يسألني كيف اشتريت ما في الحقائب رغم ما يبدو عليّ من حزن،

ولم اشأ أخبره بأنه ليس في الحقائب إلا كل متاعي الخاص الذي جئت به من القاهرة، واشياء قليلة كنت اشتريتها من قبل. لم يعد لي في البيت شيء. حتى التليفـزيـون، الذي تركه فاروق ثم تركه سعيد، ثم تركه وجيه، تركته أنا.

وقاد السيارة على مهل. ليس لأن الطائرة ستقلع في العاشرة. لكن لجلال الموقف. هكذا فكرت. كنت محتاجاً إلى أن أرى البلدة مرة أخيرة بانتباه، ولم يكن ممكناً طلب شيء هكذا منه، والمسافة من بيتي الى طريق المطار قليلة لا تمر من وسط البلدة.

ـ لقد ذهبت بنبيل منذ قليل.

قال ولم أرد.

ـ نبيل سيسلّيك في السفر.

ولم أرد.

ـ ارجوك أن تعود لنا بسرعة. الموت معلق على رقاب العباد.

ولم ارد. وأحسست به خجلان إذ صمت ولم يتكلم بعد ذلك، وأنا فكرت في هذه الروح المعادية له بلا سبب تقفز من جديد.

* * * * *

دَخَلَتْ السيارة الى طريق المطار ذي الأسفلت الأسود اللامع الذي تنعكس فوقه اشعة الشمس متماوجة تذكرني بعدم استوائه. لقـد صعدت الشمس اليوم بسرعة إلى السماء، وتملّكت الدنيا في وقت مبكر، ولم يكن حول الطريق إلا رمال وكثبان.

هذا طريق اعـرفه. لكني أراه اليوم وكأني أراه لأول مرة، ولا أستـطيع أن أكف عن النظر إلى الناحيتين لأرى شيئاً حولي غير

الكثبان. رأيت الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد يجري بسرعة وفوق ظهره شيء أسود اتضحت صورته وأنا افتح عينيّ على اتساعهما. إنه قرد ذلك الذي يركب الكلب المسكين الذي لا يتوقف عن الجري بسرعة مذهلة. لم ينتبه عابد إلى المشهد، وكدت اهتف له ؟ ينظر اليه. لكني ابتلعت ريقي الذي أحسست به جافاً، والتفتُّ الوي عنقي لأنظر من الزجاج الخلفي، فأرى الكلب لا يزال يجري والقرد لا يزال فوقه. لكن الطريق ينحني، وسيارتنا هي الأسرع، والمشهد كله يغيب عني. وتأخذ مكاتب الشركة مكان الكلب والقرد فالتفت أنظر امامي. هذا قرد منصور لا بد. قلت لنفسي هامساً.

* * * * *

ـ كل من عليها فان يا اسماعيل. نحن سنركب طائرة ونمضي ساعة ونصفاً بين السماء والأرض ويمكن جداً أن تسقطنا.

كان نبيلاً يحدثني وأنا لا أنظر اليه.

في البداية، حين وصلنا الى المطار، وبعد أن تركني عابد ودخلت إلى الصالة، أحسست بالبهجة تشع من كل شيء حولي. عدد كبير من أهـل البلدة وعـدد أكبـر من المصريين لا يكفون عن الحركة والكلام، وقد ارتدوا جميعاً ملابس زاهية نظيفة، وكثير من الأطفال يتحـركـون في عفوية ويدورون ضاحكين حول الحقائب الملونة، وشعـور طيب يبعثه مكيف الهواء، ووجود الشباب الصغار خلف الميزان ومكتب الجوازات نضرة هادئة. وشملني حقاً شعور بالراحة والرضـا، وبـدا أني نسيت تمـاماً موت أمي، وأشعلت سيجارة، وقدمت أخرى لنبيل، وابتسمت. لكني الآن أرى ما لا يراه نبيل،

عربة جيب تقف أمام باب الصالة ينزل من بابها الأمامي ضابط شاب يتقدم بسرعة إلى الجوازات وفي يده جواز سفر أخضر يدفع به إلى الموظف الشاب الذي يبتسم، ومن الخلف نزل شرطيان وجذبا رجلاً نزل ووقف بينهما فدفعاه أمامهما خلف الضابط. إنه سيد الغريب. هو نفسه بلحيته الطويلة ونفس بنطلونه الذي رأيته يرتديه من قبل وفوقه يرتدي قميصاً لم يجد الوقت، أو لم يشأ، ليغسله ويكويه. لقد رآني فورَ نزوله من العربة كما رأيته، ونظر إلي كمن كان يعرف أني في انتظاره. يذكُرني كما أذكره بلا شك. ولم أره ينظر إلى أحد آخر. أدخلوه من باب إلى غرفة ولم نره بعد ذلك، لكن المسافرين جميعاً أدركوا المسألة الآن، وبدأ المصريون يتحدثون في هدوء. لم يكن صعباً أن يدرك نبيل ما يحدث، فبعد أن حدثني نظر إلى حيث أنظر وقال:

- مقبوض عليه ويُرَحَّل. يا ساتر يارب!

ورأيت وجهه يمتقع ويشحب، وابتعد عني، وراح يدور بعصبية بين المسافرين لوقت ليس بالقصير.

أدركت أن سيد الغريب سيصعد إلى الطائرة قبلنا جميعاً، فلا متاع معه ليزنه، وإجراءات سفره لا بد تتم الآن. وأن الشرطيين سيصحبانه حتى يجلس بالطائرة، وأننا لن نرى شيئاً من ذلك، سنجده جالساً في الطائرة حين نصعد إليها.

بدا من حديث المصريين الهامس أنهم يعرفون قصته، لكن الدهشة كانت ترشح على كثير من الوجوه، ورأيت الخوف أيضاً على وجوه كثير من النساء اللاتي أرى وجوههن مكشوفة الآن. نحن في المطار.

رأيت نبيلاً يتحدث مع المصريين، فأدركت أنه يتقصّى قصة سيد الغريب.

لماذا لم يحاول أن يسألني حقاً؟

- يقولون إنه طبيب....

وقاطعته قائلاً:

- أعرف القصة كلها.

لقد أطلقوا سراحه اليوم. يقولون إن وكيلاً جديداً لوزارة الصحة زار تبوك وعرف قصته فطلب أن يراه. كان هذا الوكيل زميلاً له في الجامعة في مصر، وهو الذي رتب أمر ترحيله دون محاكمة. إنه محظوظ جداً.

ولم أفكر فيما إذا كان سيد الغريب محظوظاً. فكرت كيف يعرف الناس في تبوك كل شيء ولا أعرف أنا شيئاً. وبدأ المسافرون في الانتظام في طابور طويل لوزن ما معهم من متاع.

* * * * *

أحسست في المسافة القصيرة بين باب الصالة وباب الطائرة أني أنا والكون شيء واحد، ساخن وفارغ. وقدّرت كيف أسرع نبيل ليسبقنا جميعاً ويصعد سلم الطائرة هارباً مما تقذفنا به الشمس من لهيب رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف. لكن نبيلاً كان يبدو خائفاً وهو يقترب من الميزان. قال لي إنه خائف من هذه الرحلة، وإنه حين ركب الطائرة أول مرة لم يخش شيئاً. قلت له إن الخوف شعور طبيعي في السفر بالطائرات. ولم أر صفحة وجهه تعود إلى صفائها إلا بعد أن تركنا صالة السفر ودخلنا إلى أرض

المطار. لقد سبقنا جميعاً، وتأخرت أنا الذي مشيت على مهل انظر ناحية اليمين فأرى طائرة هليوكبتر صغيرة صفراء على جانبها صورة العلم الامريكي وتحته قرأت (القوات الجوية للولايات المتحدة الامريكية). وأنظر يساري فأرى طائرة هليوكبتر أخرى.

جلستُ صامتاً بجوار نبيل الصامت. رأيت سيد الغريب يجلس في المقعد الأول خلف كابينة القيادة، بعيداً عنا جميعاً في الدرجة الأولى التي لا يشغلها أحد. لا بد أنهم اختاروا له هذا المكان حتى لا يكلمه أحد. توقعت أن يعلّق نبيل على هذا الكرم في الترحيل، لكن نبيلاً كان لا ينظر إلي. شَخَص بعينيه إلى لا شيء، وراح يقرأ «الفاتحة» أكثر من مرة بصوت أسمعه بوضوح رغم صوت محركات الطائرة.

ربطنا الأحزمة، وامتنعنا عن التدخين، وطافت علينا احدى المضيفات بعلبة البونبوني. وتحركت الطائرة بسرعة هائلة فوق الممر، وازدادت سرعة نبيل وهو يقرأ الفاتحة، وانخلعت الطائرة مرتفعة عن الأرض، فرأيته يغمض عينيه، وسمعته يقول: «الحمد لله». واستوت الطائرة في الفضاء، فراح الركاب يفكون أحزمتهم، وتنهد نبيل وقال:

ـ الآن ليحدث ما يحدث.

ربّتُ على ساقه أشجعه فقال:

ـ أنا لن اعود مرة أخرى.

نظرت إليه في دهشة. قال:

ـ هذا قراري ولا رجعة فيه. كل فتاة سأخطبها ستتركني وتتزوج. لا بد أن اظل في مصر لاحافظ على ما أملك.

وسكت لحظة وقال:

ـ انت ايضاً يجب أن لا تعود.

تأملته وقلت:

ـ أنا بالفعل لن اعود يا نبيل.

ـ ستبقى في مصر؟

سألني وقد اتسعت عيناه ببهجة مفاجئة. قلت:

ـ لا.

ورأيت الدهشة تأخذ مكانها فوق وجهه، وأنا لا أعرف كيف اجيبه بذلك. لكن لا إجابة أخرى عندي حقاً هذا ما أشعر به كأنه يقين، وجاءنا صوت قائد الطائرة:

«ايها السادة سوف تعود الطائرة إلى المطار بسبب عطل فني بسيط. نأسف على هذا الإزعاج، ونأمل تعاونكم معنا بالحفاظ على هدوئكم، والبقاء في مقاعدكم، والامتناع عن التدخين، وربط الأحزمة».

ـ ها نحن فيما يبدو لن نسافر اليوم.

قلت، لكن لم يبد أن نبيلاً استمع الى شيء من كلامي. امتقع وجهه وشحب، وزاغت عيناه، وتضاءل في مقعده كمن يود الاختفاء.

ـ نبيل! ماذا حدث؟

كان ينظر الي في رعب.. رعب لم اعرف من قبل أنه يمكن أن يصيب البشر. ولم نكن قد ارتفعنا كثيراً. لقد أحسست بالطائرة تهبط، ولم أجد وقتاً لأنادي إحدى المضيفات إذ انشغلتُ بربط

حزامي حولي، ثم رحت أربط حزام نبيل حوله، وهو ذاهل عني لا يكاد يحس بي.

ارتطمت عجلات الطائرة بالأرض بقوة أفزعتنا، فارتفعت صيحات الركاب، وكاد قلبي ينخلع وأنا أرى نبيلاً يتضاءل أكثر. وسمعت صوت صفير المحرك العالي، وصوت احتكاك العجلات القوي بالأرض، وسمعت بالكاد صوت نبيل وهو يقول:

- لا يوجد عطل فني يا أستاذ اسماعيل.

- ......

وفي اللحظة التي توقفتْ فيها الطائرة، رأيت من خلف زجاج النافذة الصغيرة عدداً من الجنود يقبل نحوها بسرعة.

- لا يوجد عطل فني يا أستاذ اسماعيل. ليتك تقوم من جواري الآن. لقد سرقتُ الخازنة. عرفت رقمها أخيراً، وأخذت منها خمسين ألف ريال خبأتها في العفش.

بسرعة انفتح باب الطائرة. وبسرعة وجدت جواري وأمامي ثلاثة من الجنود ينقضون على نبيل يجذبونه بقوة وأنا عاجز حتى عن الكلام، والركاب جميعاً ينظرون إلى ما يحدث في هلع، والمضيفات المصريات وقفن مشدوهات منكمشات جوار بعضهن يكدن يتلاشين والفزع على وجوههن، ولم أر وجه سيد الغريب. ظل جالساً في مكانه لا يتحرك ولا يهتم بأن يعرف ما يدور بالطائرة.

* * * * *

من النافذة الصغيرة أيضاً رأيت عم عبد الله وعابداً يقفان

ومعهما الضابط الكبير أبو حكيم وحولهم عدد من الجنود، والجنود الثلاثة يدفعون نبيلاً ناحيتهم، ولا يكفون عن ضربه على قفاه ومؤخرة رأسه بأيديهم، وركله في ظهره بأرجلهم، ورأيت عابداً يتقدم بسرعة نحو نبيل يقابله بركلة شديدة في بطنه، فينحني نبيل، ولا يكف الجنود عن ضربه على ظهره وقفاه ورأسه، وعابد يعود الى الخلف خطوة ثم يهجم ضارباً بكل قوته، مرة بيده، ومرة بقدمه، حتى سقط نبيل فوق الأرض على ظهره، ورأيت الدم يغطي وجهه، لكنهم انحنوا يمسكون بقدميه يجرونه جراً، يسحلونه، على أرض المطار، ويدورون من خلف الطائرة فلم يعد ممكناً لي رؤيته، لكن الجالسين في الجانب الآخر الذين كانوا قد اندفعوا الى جانبنا يحاولون الرؤية معنا، اسرعوا بالعودة الى جانبهم، ووقفوا متزاحمين ينظرون من النوافذ الصغيرة. ولم أحاول معاودة النظر.

* * * * *

حضرات الركاب.. نعتذر لكم عما حدث منذ قليل، ونوجه عنايتكم إلى أننا سنقلع على الفور. رجاء الجلوس في مقاعدكم والتزام الهدوء، وربط الأحزمة والامتناع عن التدخين. نتمنى لكم رحلة طيبة ووقتاً سعيداً على طائرات الخطوط الجوية السعودية.. شكراً.

ورأيت المضيفات يتحركن بسرعة، وراحت واحدة منهن تدور علينا بعلبة البونبوني مرة أخرى، وكان قائد الطائرة يعيد ما قاله منذ قليل، لكن باللغة الانكليزية.

القاهرة

١٩٨٦ _ ١٩٨٨

البلدة الأخرى

«تبوك» هي إحدى مدن المملكة العربية السعودية وهي المكان الذي تجري فيه احداث هذه الرواية.

الراوي كونه موظفاً مصرياً هاجر إليها للعمل، يقدم لنا عبر سرد تجربته في الاقامة والعيش، وصفاً حياً لأوضاع المهاجرين امثاله من مصريين واميركان وباكستانيين وكوريين. كذلك لعادات وتقاليد سكان المدينة وسلوكهم. فنجد ان القديم جداً في تلك المدينة العربية يسير بمحاذاة الجديد، في جو من الطرافة المثيرة. ونجد شخصيات الرواية وناسها يندفعون نحو مصائر غريبة تتشابك فيها المأساة بالملهاة.



1855131757